محمد المزيني

الطقاقة بخيتة

مدونة ابو عبدو

رواية

الانتشار العربي

محمد المزيني

الطقاقة بخيتة

رواية

الانتشار العربي

Arab Diffustion Company

محمد المزيني

الطقاقة بخيتة

رواية

الانتشار العربي
ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

لوحة الغلاف والتصميم للفنان التشكيلي السعودي ناصر الموسى

ISBN 978-614-404-167-3

الطبعة الأولى 2011

هأنذا أتأمل ليل المدينة من نافذة سيارتي
ألفيتُها شاحبة.. دق المللُ في أوصالها الوهنَ
تتجشأ غباراً، وتذرف دموعاً من عرق الكادحين
لم يعد لهيبتها مكان.. ولا لحكايتها بقايا ترمّم غربتها
لا أحد يترفّق بأوهانها
حتى لصوص الليل تركوها للمهملات
ففي النهار ملاذهم
الناس هنا بلا عيون وآذان
فهل تعطلت الألسنة عن الكلام؟
لا أرض.. لا سماء...
هنا.. ليس دوننا سوى أبواب خلفية!

فهرس المحتويات

الفصل الأول: مصارحة 7
الفصل الثاني: نيو لوك 79
من سيرة البطل الأول تكتب الوهم على أوراق الأسى 107
بصوت البطلة الأولى 113
الفصل الثالث: حسابات جديدة 145
من سيرة البطل الثاني الميت الحي 157
من سيرة البطل الثاني تغريبة القلب المهجور 199
الفصل الرابع: خدر يشبه السحر 211
من سيرة البطل الثاني حيل الغريب في أثر الحبيب 217
الفصل الخامس: تبادل أدوار 225
سيرة البطل الثالث من تباريح الماضي الموجع 273
الفصل السادس: بين يدي الملل 279
سيرة البطل الرابع ميلاد الغربة 301
الفصل السابع: شخصية مفقودة 315
الفصل الثامن: رقصة زار 321
من سيرة البطل الخامس ولادة صاخبة 335
الفصل التاسع: ذاكرة معطوبة 341
الفصل العاشر: أكثر من لسان 357
الفصل الحادي عشر: تجربة زار 375

الفصل الثاني عشر: ساحرة 403
الفصل الثالث عشر: عودة الغائب 413
ظهور مفاجئ لبطلة محتملة 421
فاجعة تقطع الحبل السردي 427
موت النص 437
لحظة من فضلكم 439
المحذوفات 441

الفصل الأول

مصارحة

عزيزي القارئ ماستقرؤه بين دفتيّ هذا الكتاب ليس رواية بالمعنى الشائع؛ لأنني حقيقة لم أكن أنوي كتابة رواية أو ما شابهها، أو بالأحرى لم تكن فكرة كتابة رواية تطرق رأسي نهائيا؛ لأنها لم تكن ضمن مخططات المستقبل الذي لا أؤمن به بتاتًا، مع حبي أو عشقي للروايات، وحاجتي لقراءتها بدافع البحث عن شخصيات تشبهني كي تبعث فيَّ العزاء المفقود. فكل ما هنالك التقاء خيوط صالحة لحياكة رواية وهي التي حرّضتني للكتابة حتى تناسلت هذه الوريقات. أما الآن ولكي لا أكون مصطنعًا فلن أبدأ معكم برواية متخيلة، سأطبخها على أعينكم فوق نار هادئة، سأنقل لكم بداية مشاهد حية ألتقطها بعدسة عيني دون تدخل في صياغة مُثْلَى للحدث. قد أحتاج لتكثيف الرؤية حولها مثلما يستبدل المصور عدساته. كل ما يمكنني القيام به الآن هو السعي حثيثًا للبحث عن نقطة بداية مقنعة.. وحالما تكتمل أركانها سأشرع على الفور بتضفيرها حتى أصل معكم إلى حبكة لائقة.

إذن ما دمنا قد اتفقنا على أن هذا النص مادة أولية لرواية محتملة فسأبدأ معكم من اليوم الذي يؤرخ لحياتي وهو يوم استلمت قصاصة؛ ورقة أقامت وتد مستقبلي. تناولتها بلهفة وقرأتها بعناية وطويتها بلا اكتراث ودسستها بفتور

داخل جيبي الأمامي، كانت تحمل بين طياتها تأبينًا لثلاث سنوات خلّفتها ورائي: تلك كانت قرار تعييني معلمًا في هجرة لا تستدل عليها حتى الكلاب الضالة؛ قلت في نفسي بارتخاء تام: (اللهم لا اعتراض).

1

ثمة هشيم مشاعر متناقضة اجتبتني فجأة. أحالتني إلى ثلاث سنوات ممضّة، يوم تخرّجت من كلية الآداب قسم اللغة العربية بامتياز، ذلك اليوم طرت من الفرح وتخايلت بين أقراني مزهوًا بإنجازي. قلت: اليوم سأودّع حياة العنت خلف مقود سيارة نقل صغيرة، طفقت مع إشراق كل صباح أفتش بين الجرائد اليومية عن قوائم قرار التعيين حتى اسودت أطراف أصابعي.. ثلاث سنوات أقتني الصحف اليومية. أفلّي صفحاتها وكأني أفتش عن الفوز بورقة يانصيب. يبدو أن بلدنا ذا الخصوصية الإسلامية؛ بلد الحرمين الشريفين يمارس هذه اللعبة بطريقة أخرى، لعبة الحظ (اليانصيب) الطريق الوحيد لحصول الناس على لقمة عيشهم، بغض النظر عن المؤهل أو حتى الخبرات والقدرات. . ثلاث سنوات احترقت من عمري وأنا أنتظر ورقة الحظ المشمولة بقرار لقمة عيشي، عند استلامي هذه الورقة مرَّ أمامي شريط من الذكريات، كشرائح فيلمية تدور بجهاز عرض سريع.. كم هي الحسرات التي أعالجها يوميًا بكثير من المسكنات، وورقة التعيين كانت تذكرة فرح مقتصّ من حسرة، وتقزز مصحوب بأعراض لعنة كادت أن يتشقق لها وجهي، لم يعد لمجرى الزمن وصيرورته أي معنى. ما حدث نتيجة حتمية لما بعد

الانتظار المّر؛ لذلك صرت نهبًا لمشاعر متداخلة، تشبه إلى حدٍ كبير تداخل الصور في فيلم لم يمنتج بحذاقة فنان محترف. كنت أتحسّس هذه السنوات الثلاث المسحوبة من عمري وقد نبتت في حلقي كشجرة صبّار؛ هذا مع معدلي الكبير الذي أعفاني من سنوات إضافية يتكبدها آخرون فيقتعدون مصطبة الانتظار الطويل باسترخاء تام يطحنهم الفراغ وتعبث بهم الفاقة. اندلعت أمامي كل الخيارات.

حقيقة لا أدري كيف صمدت أمام نزف هذه المشاعر الحارقة، كأنني ابتلعت منطادًا ما برح ينتفخ داخلي حتى طيّرني، فماذا عساني أفعل هل أبقى رهينًا لهذا الونيت العراوي (سيارة النقل الصغيرة) الذي سلخ ظهري مع دخله الشهري الذي لا يوازيه راتب معلم بالدرجة الأولى. هل أترك المتع المسروقة التي يوفرها بالمجان؟ أم آخذ راحة ألتقط خلالها أنفاسي وألوذ بزاوية منفردًا أوازن بين هذين الخيارين؟ فاستلامي لقرار التعيين أعاد لي مسلسل حياتي بتفاصيلها الدقيقة الجارحة؛ فماذا أدير وأقرر فليس أمامي سوى هذا القرار المطوي في جيبي والوقت المنسحب من حياتي يضائل فرص العيش؟ تتزاحم الأفكار والهواجس ويزداد نبض عروقي بشيء من الارتياب الكريه، فهل أطوي هذه الورقة في كوّة من النسيان وأعود لمكابدة التقاط لقمة عيشي من جيوب ركاب (الريحة) أو أحزم أمري وأعد عدتي للرحيل؟ ولا خيارات بديلة ممكنة حتى ولو مع شيء من التضحية؛ فرضًا لو غضضت التفكير عن تلبية هذا القرار انتظارًا لفرصة لا تكبّدني مشقة الترحال، فمن سيضمن لي العثور على فرصة بديلة لطالب تخرّج بتقدير امتياز من كلية

الآداب، بما يخولني للترشيح في قسم الدراسات العليا. لا أحد يضمن. أرجوكم فكروا معي ولا تنسوا الوقت الذي يمرّ كالهباء، فأنا لم أتعود على جيب يتضور فاقة، فمنذ عملت في هذه المهنة لم يعصف به الخواء قط، والآن ليس أمامي سوى خيارين مرّين: إما العودة إلى نحر الوقت مرتكزًا بمثابرة لا تعرف التوجع وأنا أعارك ازدحامات شوارع الرياض بحثًا عن راكب، وإمّا الانصياع للقرار الواضح الذي لا يقبل المماطلة. الآن أدركتم كم أنا مربوط بحبال الوقت الغليظة. انسحب كل الضجيج من رأسي لأبدو أصمَّ لا أسمع سوى صوتين هما صوتا القدر الذي يعطيه الخيار في قبول أحدهما، داهمتني ابتسامة طفيفة افترشت شفتي فللمرة الأولى يكون القدر رحيمًا معي ويعطيني خيارين أحدهما يضيء بلون أخضر نقي والآخر معلّق في أضابير الغيب.

جبت المدينة بسيارتي (الوانيت) أفكر بصمت كيف أقرر لا أقصد كيف أختار ما بين حيرتين، فهل سأقطع الطريق أمام هذا القرار الملعون وأمكث ملصقًا بالأرض التي تلوّنت برائحتي؟ أم أرحل للقرية القابعة في أقصى الأرض؟ سأكون حينها كمن سقط في حفرة بلا قاع، الخروج منها مستحيل والتلبث داخلها موت بطيء. أو كمن صعد به إلى سماء سابعة لا تمتّ إلى الأرض بصلة؛ الهبوط منها مستحيل. بدأت الحيرة تضرب أطنابها كرة أخرى في رأسي وتخيّم على عيني هالة من التشتت. . لم أستشعر يومًا ما مثل هذه الورطة المفصلية، فأنا الآن على حافات المستقبل. كم أحتاج إلى وقود كاف من الشجاعة للاختيار. شرع الصداع يفتك بي والصورة تهتزّ أمامي

وسيارتي توشك على ابتلاع الرمق الأخير من الوقود؛ وثمة استشعار ثالث بدأ يحرّك أمعائي أصبحت مثل سيارتي فكلانا ينتظر دوره لفكّ أزمته الخانقة.

عند الساعة الثانية ظهرًا ألصقت سيارتي حذو رصيف داخل زقاق ضيق من أزقة حلّة القصمان: السوق القديم الذي يتمدد في جوفه التاريخ وتعلم حيطان أزقته المتداخلة ندوب الماضي. ترجلت من سيارتي سريعًا أمطّ مشيتي مخترقًا الأجساد الواقفة بتراخ وبطون متخمة ووجوه تكسوها اللامبالاة وهم يخلّلون أسنانهم في حلق باب مطعم المدينة اليماني. أرسلت عيني تفتشان عن مقعد فارغ بين الأجساد المتراصة والأيدي المتهاوية على أطباق السلتة والحلبة، كان ثمة مقعد محشور في منتصف الطاولة الطويلة المصطكة بالجالسين، وسريعًا اتخذت طريقي إليه صائحًا بعبده اليماني أن يوافيني عاجلًا بطبق (برم) مع الأرز وآخر(سلتة). لم يطل الوقت وأنا أقلب عيني كالذباب الحائم فوق الأطباق حتى وُضِعَ طبقان؛ لأبتدر السلتة بالخبز الساخن لفظت قبل البسملة قائلًا: سأستمتع بوقتي.. قبل.. قبل.. أن أرحل.

حياتي الوعرة شكّلت طبيعتي وشيأتني بعزلة دميمة، أصبحت مخلوقًا (لقاحيًا) من الدرجة الأولى. فكل ارتباطي بها عدا كدحي المستميت خلف مقود السيارة أني آكل وأنام وأمارس عادتي السرية حتى يقيض لي قدري أنثى عابرة تبادلني فاقة الجسد، فنتناصف أثير جسدينا مثل رغيف ساخن يؤكل (حاف). تبدو لي كل المتحركات من ذوات الأرواح

وغير الأرواح مجرد أعراض تمحوها الذاكرة فورًا، لم أؤسس رابطة صداقات من نوع ما، حتى النساء اللاتي يقتحمن حياتي؛ أقصد جسدي عنوة أتخفف منهن سريعًا، إلا ما أتخذه لنفسي بعناية ومن أبواب سرية، فيطول معهن الأمد، عند إعلان ساعة الصفر السالبة. اكتشفت حينها أنني كنت أقترف رذيلة رخيصة فأهرب إلى حيث طريق اللاعودة، أو هكذا كنت أتوهم فما أن يجأر جسدي بالحاجة وتصبح العادة السرية ممارسة غوغائية وهمجية؛ لأبدأ بتحريك بوصلتي نحو أقربهن للغواية فلا أتركها حتى أوقع بها قصدًا وتقع بي سهوًا.

حقيقة لا أدري لماذا أكاشفكم بأسراري ربما لأنني بمسيس الحاجة للبوح. منذ اللحظة أنتم أصدقائي الافتراضيون، لا أعرفكم ولا تعرفونني، كل ما في الأمر أن أحدهم التقط هذه الأوراق من مكان ما، وقرأها بفضول ثم نشرها باسمه أقصد روايتي، هذا كل شيء ولكن ليكن هذا الشخص هو الذي يكتب وأنا المملي فلا ضير، فما دمت قد قررت البدء فلن أتوقف. أعدكم أنني سأفتح هذه الأبواب السرية وأطلعكم على ما يتوارى خلفها.. الآن سأكون رابط الجأش حتى أصل إلى الحيز اللائق بسرد مثل هذه الحكايات حتى لو جمعت بين دفتي رواية لمجهول؛ لذلك سأبدأ من اليوم المجيد الذي ألقى عليَّ بتبعات الذاكرة الفائضة بالحسرة والأسى والتجلد؛ أقصد يوم تعييني معلمًا للصفوف الأولية في هجرة تقبع خلف الشمس.

2

يكفيني من هذا اليوم أنه فاصلة تاريخية حميدة من فواصل حياتي في زمن الوعي والمسؤولية بالرغم من كثرة الفواصل التعيسة المتناثرة بين جنباتها، ولن يثني ذلك من عزمي على مواصلة ما انتويته. أدرك أن تجميعها يحتاج إلى حذر وعناية فائقة مثل تجميع قطع زجاج صغيرة متناثرة على الأرض، ومع ذلك سأقوم بلعبة ضبط النفس وألتقطها على حذر ثم أعتني بتنضيدها حتى تكتمل داخل البرواز اللائق بها، أقصد اللائق بكم، أولًا سأخبركم عن اللون الذي يصبغ حياتي وهو لون الوحدة الذي يحيل الكون إلى عتمة مقيمة فأنا الوحيد لأبويَّ لذلك لم تكن حياتي صاخبة بما يكفي لشحن رأسي بذكريات كثيرة. أظنني كنت بلا مراهقة، مراهقتي كانت عابرة، والمدرسة لم تنبت لي أصدقاء يلهبون عروقي سخونة، بتّ منزويًا عنهم مقتعدًا مقعدًا أماميًا ينأى بي عن غمزاتهم ولمزاتهم.

لتعلموا أنني مختلف، عن هؤلاء في كل شيء، طبعًا اختلاف سيئ، فهم يكتشفون اليوم فقط أنهم ناهزوا المسؤولية، ليس أمامهم سوى بحر تعوم على صفحته آمال عريضة بمستقبل زاهر. لم تتبخر ضحكاتهم بعد من مقالبهم التي كانوا يوقعونها بالأساتذة بمكر وخبث. أما أنا فلم يكن

لدي الدماغ الكافي للعب ومجاراتهم، كما أنني غريب، أحتمي بصمتي مخافة الوقوع في براثنهم التي ينصبونها للجميع، ربما منعهم من ذلك تفوّقي عليهم؛ الأمر الذي كسرهم أمامي، وربما لسبب آخر قديم لا يزال يترك آثاره في ذاكرتهم، يومها كنا طلابًا جددًا نتعرف على وجوه بعضنا ونكرّس أعيننا لتفحص ملامح أساتذتنا، ليس لنا من هواية سوى التفرس في كل شيء، واحد أعدّ نفسه لي كبش فداء، فما أن لزمت الركن القصي من الفصل بصمت مستتب ليس لي سوى دفتري وقلمي وما يمليه الأستاذ إذ انبرى هذا الشقي لسرقة كراستي، محاولًا إخراجي من صمتي والعبث بي. ربما أكون بعدها لقمة سائغة لتهكماتهم، بيد أني لزمت الصمت، بعد عناء بحث أذهب علي متعتي الخاصة أثناء الفسحة بقراءة ديوان أمل دنقل ـ هذا الشاعر الذي أجدني متماهيًا معه تمامًا، ومن أجله اخترت الالتحاق بكلية الآداب ـ وأخيرًا بعدما أحسّ بخيبته حاول استثارتي بطريقة أخرى مخرجًا الكتاب من خلف مكيف الهواء يلوح لي به من بعيد بحركة طفولية، فلم أعبأ كثيرًا به، تركته يُمارس غباءاته بضحكات الزملاء المستفزة له، ما دفعه للاقتراب أكثر محاولًا تمزيق أوراقه، شّق الورقة الأولى، ولم يفطن أنه قريب من مرمى يدي، فقبضته بإحكام آلمه وصفعته على صدغه فتدحرج بعيدًا، مما ألجم كل الضحكات وبدّدهم من حولي كفقاعات صابون. استقر إجماع زملاء الدراسة على تسميتي بـ(عابس)، وأنا مع كل عباراتهم النابية التي يلاحقونني بها أشيح بوجهي عنهم مكتفيًا بالاستماع لمحاضرات الأساتذة بإنصات. مع ما يمتلئ به رأسي من ضجيج الطرقات، يكفيني مجرد الإنصات

للمحاضر، تاركًا للصوت مهمة لصق المعلومات في زاوية نظيفة منه، لا تهرب منه أبدًا. أما صوت زملاء الفصل فكان فائضًا عن حاجتي.. أولئك الذين لم تنفطر قلوبهم يومًا أو تأخذهم رأفة من نوع ما وهم يبصرون بدايات إعيائي الصباحي وثوبي المتعرق. كنت أشقّ طريقي بينهم برائحة عرقي الناشف وشماغي المهلهل فوق كاهلي. أعيد ترتيب ما تلقيّته من معلومات جديدة كي أضيفها إلى ما حفظته سابقًا، وفي طرقات الكدّ أسترجعها، أعدّها كما أعد حصيلة يومي من النقود. ما كان يعصر قلبي حقًّا وينكت جراحه العميقة فاقة أبي، ما يؤلمني أكثر رفضه القاطع قبول مدّ يد العون له، لذلك أستعيض عن النقود بتزويد البيت بالمؤنة اللازمة من طعام وشراب خصوصًا القهوة والهيل باهظتي الثمن، فضيوف أبي لا تنقطع أقدامهم عن عتبات المنزل نهائيًّا. كنت أردم أي سؤال يحدث شرخًا طفيفًا في قلبي بالانشغال، لا أدري أين تُبحر بي أيامي، ولم أتوقف لحظة وأنعم النظر في معنى القدر، ومعنى الصدفة.

مذ ذلك الحين وأنا منفرد بوحدتي وتسنّمي رأس قائمة الأوائل على الرغم من هيئتي الرثة بحكم طبيعة عملي كسائق أجرة، تلك المهنة التي دشنتها مع بداية إجازة الصيف واستمرأتها بما تجلبه لي من مال لم أكن أحسب له حسابًا يتجاوز أحيانًا العشرة آلاف ريال شهريًا خصوصًا في المواسم.

3

اليوم لم أعد طالبًا، بل أستاذ هذه الفكرة التي تثير حرقة في صدري تعيد لي وجوه أساتذة الجامعة القانطة من تربّصات الطلاب ولعانتهم، داخل هذه الجلبة اليومية لم أسأل قط من هو المستقبل؟ هل هو كائن حي سيأتي على مركبة مثل قطار كما يشبّه العمر، هل هو في حسابات الزمن، ثمة أسئلة لحوحة طفقت تخترق جمجمتي منذ أن قرأت اسمي ضمن الخمسة الأوائل في تخصصي الأدبي..

أمست ترتادني بريبة كل ليلة، فكنت قبل أن آوي إلى فراش النوم أغرق في سديم الوحشة، لا تغفو عيني حتى تلتهم ثكنة من دماغي لأسقط ضحية الإعياء الجسدي والذهني. ينتزعني النوم إلى عمق سواد مفرغ من الأحلام، فأنا في قعره مثل متفرج وحيد داخل صالة سينمائية داكنة بلا شاشة. الشيء الذي أذكره تمامًا أنني خشيت نسيان تقاسيم وجه أبي، فيذكّرني به صوته الواهن الأجش المنطلق مع مئذنة المسجد، الصوت الذي يهزّ سكون الزقاق الصغير المتفرع من شارع (صيتة) في حي الملز القديم، يرفقه بنحنحة تعقبها ندبة من سكون، ينهض الصوت متكسّرًا بحشرجة تسبغ على القلوب حالة من الطمأنينة وتبعث في قلبي أريحية خاصة، هي لي بمثابة بطاقة أو بالأحرى تذكرة ودليل على بقاء أبي قيد

الحياة. . صوته أيضًا مؤشر على صحته، على الرغم من ضعة بيت المسجد الصغير المليء بالفئران المستأنسة، متخذة من شقوقه الكثيرة ممرات، فنراها قريبة من مرمى العين فلا ترتعد أو تفرّ. أمسى انقطاعي مقسمًا ما بين الدراسة والكدّ ثم آوي إلى فراشي باكرًا، هذا الروتين اليومي حرمني لذة اقترابي من والديّ والعناية بهما بما يليق بحنوهما وخوفهما علي، إلا أن قلة ذات اليد والحيلة جعلتهما يكتفيان بالمراقبة عن كثب دون نبرة توجع أو عتب تسيئان إلى مزاجي المعكر دائمًا، أو بالمعنى الأدق وجومي المقيم على صفحة وجهي المكترب، وجهي الذي أحمله بكل خطوط الكآبة. فهو ينكأ جراحات الهم وتقاطعات المدينة التي أسلمتني لبوصلة الفاقة.

4

أرى نفسي قريب الشبه من سيارتي الونيت. يكفيها الوقود والزيت وقليل من العناية. هذا أنا باختصار شديد، رحلتي التي حفرت ذاكرتي بعدما كنت أشبه ما أكون في عماء، فلسيارة النقل الصغيرة المسماة (ونيت) الفضل في كشف مخابئ الأرض التي نمشي عليها، هذه السيارة التي اكتسبت اسمها الشعبي قبل أكثر من ثمانين سنة، أيام كان آباؤنا يضربون الأرض وأكباد الإبل من أجل لقمة العيش حتى ذلّت رقابهم وطأطأت رؤوسهم لإدارة شركة الزيت الأمريكية (أرامكو) ومنهم انتقلت إلينا عادات وأسماء كثيرة كنا نجهلها منها اسم هذه الناقلة الصغيرة بحجم eight one لذلك درج على ألسنتنا حتى يومنا الحاضر.

في البدء كان العمل على ظهر هذا الونيت مهنة شاقة، فجهلي المطبق بمدينة الرياض وطول المسافات خصوصًا الأحياء الناشئة حديثًا، تلك التي يذهب إليها العمال بحثًا عن عمل أو لتأدية عمل، بأدواتهم الثقيلة من أخشاب وحديد يكلفني جهدًا مضاعفًا. . استطعت في برهة زمنية وجيزة التغلب عليها. ما لم أوفّق فيه هو ترويض الركاب أنفسهم متعددي اللغات، مختلفي الأمزجة، متنوعي الروائح، مفاصلاتهم الطويلة في أجرتي التي عادة ما تنتهي إلى مشاحنة

كادت أن تؤدي بي إلى ترك هذه المهنة بلا رجعة، فيتحدث العقل بصوت أسمعه، المخالفة للنظام ورقيًا ومسموح بها عمليًا، مثلها مثل كثير من المخالفات التي يغضّ البصر عنها، بعضها يمرّ من فوق الطاولة وأخرى من تحت الطاولة. أصغرها التسول وأوسطها الرشوة وأكبرها سرقة المال العام، عمليات السطو وسرقة الأموال العامة والرشوة لم تعد خافية؛ بل تطالعنا بها الصحف يوميًا، لذلك لم يعد التعاطي معها إعلاميًا محرمًا أو مريبًا.

الأسبوعان الأولان مرّناني على مقايضة الراكب، والأسبوعان التاليان درّباني على الجلوس الطويل خلف مقود السيارة. كنت في كل ساعة أخلو فيها إلى نفسي أفكّر جديًا بالبحث عن وظيفة مناسبة لطالب جامعي براتب مقطوع، إلا أن الوقت لا يمنحني فرصة البحث، ففأرة الحاجة تتربص بي. أشرع بسدّ منافذها مع برودة الإسفلت صباحًا حتى موعد محاضرتي الأولى. فما أن أخرج من الجامعة وأسقط في جوفي لقيمات أرز ساخنة مع نصف دجاجة مشوية، حتى أطلق لفحيح سيارتي العنان ولأنفها الأشمّ حرية التقاط رائحة الزبائن، الذين تيبست جلودهم جرّاء الكدح المضني حتى فاح نتن رائحة عرقهم المتبخر من مسامات جلودهم المتقيحة. البعض يراهم كثمار أشجار رخيصة. أما أنا فأراهم كالزبيب المجفّف مادة أساسية في صنع الخمر المحلي بما يملأون به جيوبي من ريالات متسخة ورطبة، بيد أنها طاهرة ونقية. عوّدتني مهنة سائق الأجرة كمّ أنفي وفمي بذيل شماغي درءًا لرائحتهم العفنة، يا لها من رائحة حادّة ومعلّة، تخترق الرئتين بمباغتة سريعة؛ روائحهم مختلطة وغريبة، كأنهم

يعلّقون أمعاءهم فوق صدورهم ويتجّشأون منها وبها ، ومتى تطاولت الرائحة بعنفها المكدس قريبًا من أنفي وانداحت في رئتي أشعل سيجارة أشحنهما بها وأبخّر بدخانها قمرة السيارة، وتظلّ الرائحة سيدة المكان، فهي ملتصقة بمقاعدها البلاستيكية ومتشبثة بالريال ولقمة العيش.

5

طول مقامي خلف مقود السيارة كشف لي أن نساء طبقات المجتمع ما دون المتوسط أو من يقتربن من قاع المدينة يفضّلن الونيت على سيارة النقل الصغيرة؛ لأنهن يجدن بغيتهن فيها بما توفّره من حيّز كاف لنقل حاجياتهن التي لا تتسع لها شنطة الليموزين الصغيرة، لذلك ما أن تحين ساعة إيابهن المسائي من الأسواق أمرّر سيارتي بينهن، أترصدهن أمام بوابات الأسواق الرئيسة، فعند الغروب أكون قريبًا من سوق المعيقلية وما بين الساعة الثامنة والعاشرة أخترق حلّة القصمان المكان المتدثّر بعباءة الماضي وشيخوخة الحاضر الذي لم تطله أيادي التغيير؛ ما كان يشغلني هو اصطياد الراكبة الكفء ودلالة الكفاءة رشاقة القوام ونوع العباءة وطريقة ارتدائها، فهنا قد تُقاس طبقات النساء من عباءاتهن وطريقة لبسهن لها مثلما يُقاس الرجال من وجوههم وملابسهم ثم تُبنى المواقف وفقها.. هذا من أهمّ دروس الكد اليومي، ألا أرخي أنفي نحو الراكبة حتى لا أتعثّر برائحتها المدوخة، حتى تطمئن نفسي ويهدأ وجيب قلبي وتتبخر الروائح الكريهة من مخلفات ركاب (الريحة). تعلمت أيضًا ألا أترك لهن من سحنتي ما يكشف عن هويتي، مكتفيًا بأذني بعد أنفي الممرنة جيدًا على التقاط حكاياتهن،

فما أن يعبئن صندوق الونيت بحاجاتهن ويتراكمن داخل قمرة السيارة الخلفية حتى تنتثر حلوقهن بالضحك والتغامز وشيئًا من التخابث إلى حد التقابح. أسترق بعيني التوّاقتين ومن طرف خفي بعض المشاهد الساخنة. كل يوم أكتشف عمق الخبث النسائي، هذا الخبث المخيف يلجمني كأني بين يدي سائس ماهر، أعتمد الصمت متوخيًا الحذر من مكائدهن وحيلهن. المرآة العاكسة المحدّبة كفيلة برصد المشاهد وتفصيلاتها كاملة وقلما تنتهي بلا طائل، حتى لو بهمزة خفيفة غير مؤذية على فخذ إحداهن وأنا أعينهن على نقل حاجياتهن ووضعها حيث يرغبن من المنزل، وقد تكون الفاصلة الصغيرة لجمل وثيرة بعلامات ترقيم رخوة وساخنة، كأن تستمرئ الالتصاق أو تدعوني لاختطاف لذة مستعجلة، بعدها أتّجه مغمورًا بنشوة صغيرة تطري أنفاسي وتزرع دفئًا مخاطيًّا فوق بشرتي. أنبري للمشاوير الرسمية المتفق عليها سلفًا، أولها مشوار بخيتة رجاوي ونصرة، أقلّهن دفعة واحدة من المعيقلية إلى منفوحة والطرادية، هذان الحيّان المتلازمان تصل بينهما أزقة ملتوية تشبه سراديب الحرب المحفورة بين ثكنات المحاربين. أعقف سيارتي متجهًا صوب سويقة هناك لا أحتاج إلى الوقوف الطويل المستفز لأعين رجال المرور المتربصين لأدنى مخالفة أو حتى شبهة مخالفة بانتظار من ستسقط أكوام محمولاتها في صندوق الونيت بشيء من الصخب لا يشبهه إلا ركوبها في المرتبة الخلفية، وبلهاث متقطع تشير لي أين أتجه. وكعادتي سألتزم أوامرها منفذًا كل طلباتها بشيء من توخي الحذر. تعلمت منهن ألا أثق بامرأة مهما أكثرت من التسبيح والتهليل والتكبير، كنت أدرأ حيلهن

بالصمت خشية السقوط بكلمة حادة تدميني، فهن في بلادنا دائمًا مصدَّقات، خبثهن وحيلهن المتكررة علّمتني أن أغلق الأبواب الخلفية من الداخل فلا تستطيع فتحه سريعًا إلا بإنزال زجاج النافذة للاستعانة بالأكرة الخارجة، وهذا يحتاج إلى وقت كاف للتفكير أولًا ولتنفيذ الفكرة، وساعة تنقدني أجرتي أترجَّل وأفتح لها الباب؛ لتهبط منها كملكة متوّجة. وفي هذه الأثناء تبدأ مراوغاتي العابثة.

لا تُمْحَى من رأسي تلك المرأة التي زجّت بي في سجن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا جريرة ظاهرة. كنت قد أفرغت حمولتها مغتبطًا بقلب طفل وديع وقبل أن تنقدني أجرتي دخلت بيتها وأغلقت الباب دوني، وتركتني أكيل لها السباب الذي لا ينبت نقودًا، وأركل الباب قهرًا. انتظرت طويلًا رجاء أن تتعطف علي وتدسّ لي نقودي من عقب الباب وتتركني أرحل إلّا أن ما حدث لم أكن أحسب له حسابًا، فقد رأيت شابين يافعين في مثل عمري تقريبًا يشقّان طريقهما نحوي وأعينهما تقطر بشهوة الافتراس، شدّاني من تلابيبي وطرحاني سريعًا أرضًا، حتى غاب الأفق عن عيني من لكمات مسدّدة سريعة تنهال على وجهي وبطني. حتى أردياني أرضًا وقاما بتفتيشي ثم ألويا إلى سيارتي ونخلاها فلم يتركا مكمنًا محتملًا للنقود إلا ونقّبا فيه، مستخرجين حتى القطع المعدنية المهملة، وقفا بمحاذاتي في استعراض قاهر يكيلان لي البصاق ويتوعداني بالمزيد فيما لو حاولت العودة، ثم هرولا سريعًا لا أرى سوى غبارٍ انحشر به صدري. تركاني أجترّ أوجاعي. أظن أني كنت قد فقدت وعيي بدليل الغرفة الصغيرة التي أفقت في ركن ضيق

منها من غيبوبتي وأنا أعتصر ألمًا وأتجرّع قيحًا امتلأ به حلقي. بتّ طريح الأرض حتى تشقّق الصباح ورأسي مثل خلية نحل يعجّ بكل الأسئلة والاحتمالات، يمور بألف سؤال يقابلها ألف جواب، واحد منها كان المختصر المفيد نطق به شيخ الهيئة قائلًا : إياك وكيد النساء فإنهن أخبث من الشياطين. ثم أعلمني أنها قدّمت شكوى ضدي بتهمة التحرش بها. هذه أربعة أهداف سُدِّدت في مرماي بركلة واحدة من قدم أنثى محلها السماء وليس الأرض. أترك لكم إحصاءها بروية.

6

غرفة الهيئة المكتومة المسماة بالحجز علّمتني أن أماري النساء بلذيذ الكلام؛ فهن يتناولنه مثل الشطائر؛ بعضهن يحببنه مملحًا وأخريات يتشهينه مرشوشًا بسكر ناعم، وأنا بين هؤلاء وأولئك أكيّف مذاقاتي. اكتشفت أن ثمة حيلة لذيذة تقرّبني منهن وتقتص لي مقدمًا، فبدأت أمرّن لساني على مجاراة أحاديثهن واستطعام حكاياتهن الدبقة وضحكاتهن العاهرة.. لا أتوانى متى أحسست بالرغبة أن أتنازل عن أجرتي، مقابل جسٍّ ولمس بطريقة سريعة مثل عملية المسح الضوئي، كل بحسب رغبتها أولًا وجرأتها ثانيًا. أحيانًا لا تحتاج إلى أكثر من تحريض، بعضهن تحفهنّ الرغبة في أن أغوص والجًا فيما هو أعمق من التحسس الظاهري إلى مصدر الدفء المخبوء داخل تنورتها. فلن أكون أقل حظًا من الباعة اليمانيين والبنغاليين والباكستانيين الذين يقضون أوطارهم مقابل ما يأخذن منهم من بضاعة، وكل شيء له ثمنه. مقايسة طول وعرض الجينز والصدرية والاستئناس بسخونة السراجين المنيرين تستحق عليه تخفيض نسبة مقدرة وعندما تذرع الأصابع النهدين واستدارتهما مباشرة بدون حامل فبنسبة أكثر وما دون ذلك بالنزول للأسفل تزداد النسبة «يعني» العلاقة طردية فكلما نزل التحسس

ارتفعت النسبة. سألت إحداهن ذات مرة عن صحة ما يُشاع فصادقت على ذلك بقولها: وما الضير في ذلك ما دامت المرأة ستأخذ مجانًا وهو لن يأخذ أكثر من لمسة، لنعتبرها مثل لمسة الجدار أو الكرسي الذي نقعد عليه. قلت في نفسي: الله ما أسهل المرأة وما أصعبها، تسهل عند الحاجة وتصعب جدًا عندما تستغني، وأمام حاجة أطفالها الذين تعولهم تقدم من أجلهم أي شيء، مثل المرأة المطلقة بلا عائل، لا تجد الأخلاق مثمرة جدًا في ملء بطون صغارها، حتى لو قطعت من لحمها وباعته من أجلهم.

7

مرّت أمام عيني مشاهد خشنة وصور أخرى رافقتها لبعض مشايخ القنوات الفضائية الذين لا يحسنون سوى تنضيد الكلام العامر بالمحسّنات اللفظية والبلاغية، يردمونها ببعض الأحاديث الشريفة والآيات الكريمة وفق مفاهيمهم الخاصة، حلوق مملوءة من محفوظات الوعظ تخلو من أدنى حلول إيجابية، حتى فكرة تشغيل النساء المعوزات في الأسواق والمحلات وقفوا حائلًا دونها، مكتفين عبر القنوات المشروعة وغير المشروعة بزرع المثل والفتاوى القهرية التي لا تُنبت إلا كلامًا.. هؤلاء الوعاظ يحدثون الناس باسترخاء باسم الدين لكنهم لا يتغافلون بتاتًا عن الشيكات التي تُدّس في أيديهم قبل خروجهم من بوابات القنوات الفضائية التي يتزاحمون «حصريًا» على بواباتها. لا يقنعهم أنهن شقائق الرجال ومثلهم بحاجة ماسّة إلى المال، مع إضافة أخرى وهي امتلاؤهن بالأمومة القاهرة؛ لذلك؛ فمن ليس لديها شهادة تعليمية تؤهلها لوظيفة محترمة فلا خيار لها سوى القعود تحت أحذية المارة ببسطتها المتواضعة المهددة دائمًا من بطش موظفي البلدية أو التسول أو الحصول عليه بطرق غير مشروعة، غفل مشايخ القنوات الفضائية أو بالأحرى تغافلوا عن أكوام اللحم والبطون

الجائعة والأفواه الفاغرة المنتظرة لكسبهن من البيبسي والفيشار أو الحنّاء والحجابات. تضيق أمامهن المصادر البديلة؛ لأنهن لسن من وجوه المجتمع أو لحاه المعروفة؛ كي تصلهن الشرهات والإعانات والإكراميات بالمجان. . بعضهن تتجشم القعود تحت وهج الشمس الحارق قريبًا من أبواب (طوال العمر) أيامًا رجاء أن يجود عليهن في ذات مرة بقليل من المال.

8

الونيت منحني فرجة كاملة على المجتمع المتستر بعباءات ثقيلة من المحرمات، بتّ مع الوقت مثل جراح أغرس شوكتي في اللحم الساخن لتحصيل قوتي، فيما هو يغرس مبضعه في اللحم البارد وفي كليهما حياة. . صورتان لمفارقتين غريبتين لكنهما مطلوبتان. تجربتي الأولى كانت مباغتة، لم أحسب لها حسابًا، بعدما مرّنت نفسي على الاستئناس بنساء الونيت، ومخالطتهن بشيء من الأريحية. استوقفتني إحداهن طالبة أخذها في مشوار، كان صباح يوم خميس حيث تشحّ أقدام النساء. اشترطت في البداية أن آخذها إلى حيث تريد فلديها أكثر من مشوار، وافقت بلا تردد وعيني تتحرى اقتناص ملامح سريعة منها، كانت مفخخة بعطور آنستني وأنستني حرارة الشمس اللاهبة، في الطريق تحدثنا كثيرًا في كل شيء، عقدت لي مفاضلاتها بين الونيت والليموزين المكيّف والمريح، فالونيت عادة لا يعمل به إلا مواطن وهي بذلك تنفع المواطنين ثم إنه يستوعب حمولة أكثر، يفترض أنها تواسيني وترفع من معنوياتي وتضاعف من همّتي بهذا الكلام، كل هذه الأشياء كانت محصورة فقط فيما يمكن أن تمنحني إياه من لذة حتى ولو بالملامسة العفوية. وكنت أرخي أطرافي وأنا التقط منها

الأشياء لتسفيدها في صندوق الونيت. نصف نهار كاف لتوليد طاقة إيجابية استشعرناها ساعة انتهى بنا المشوار أمام باب الفيلا العريض، كم أسقطتني هيبتها بصغار هشم روحي المتطلعة، ربّتت على كتفي وهي تمد لي مبلغًا مطويًا بمنديل رقيق، أخذته ودسسته في جيبي دون أن أتفوّه بكلمة. عاونتها باستكانة متناهية بتنزيل حمولتها، اكتفت بحمل بعضها ومضت وتركتني ألوب في المكان أفرغ صندوق الونيت، عادت من الباب الأمامي ووقفت تتفرج كلبؤة تحرس صغارها، أدّيت المهمة بكل أمانة واقتدار، فلما اطمأنت إلى أن كل شيء صار في مكانه الصحيح استمهلتني قليلًا وغابت عن عيني المتلهفة لجسدها المكتنز خلف عباءة متموجة السواد. وقفتُ منتظرًا بين الخوف والرجاء، غابت وقلبي يستشعر المكر النسائي الذي نكس كل مواقيتي؛ فالدقيقة تُحسب معهن بساعة والساعة بلا نهاية وهذه الساعة أخشى أن تطول.

عادت فارتد إليّ بصري مع سكينتي المفقودة، قلت في نفسي المهم أنها عادت وقد نزعت عباءتها ليبدو لي ما خفي من حسنها، على الرغم من توسطها في العمر. وامتلاء جسدها قليلًا فلا تزال مسحة الجمال تعلن عنها عيناها الكحيلتان ووجنتاها المشربتان بحمرة فوق وجهها الخالي من التجاعيد، ما يعلن عن عمر يناهز الثلاثين. بأمومة ناولتني كأس عصير برتقال بارد، تناولته فلامست أصابعي الغليظة أصابعها الرقيقة الناعمة، كانت دافئة بما يكفي لأن ترتعش فرائصي أو ربما فرائصنا، فسقط الكأس سهوًا لتتخلل أصابعنا ببعضها دون أن نستشعر للعصير الذي رشق على

طرف ثوبي لنفيق من غفوتنا اللذيذة، هويت مكبًّا أستجمع قطع الزجاج فجرحت قطعة زجاج صغيرة ولئيمة يدي. أخذتها الرأفة من الدم المتصبّب بين أصابعي، فأقعت أمامي وعيناها تتأرجحان كعيني دمية تتحرك عيناها لأدنى هزة، مسحت بقايا الدم الأسود المتخثر بين أصابعي وسحبتني من يدي إلى غرفة داخلية. أجلستني على كرسي خشبي مذهب الحواف، وسارعت تحضر الماء الساخن وندف قطن ولفة شاش، ثم جلست أمامي على الكرسي الصغير الذي سحبته من أقصى الغرفة. كانت الدماء الفائرة في عروقنا أشدّ وأنكى، كانت تتعمد سحب يدي لتلامس أطراف نهديها والشهوة تغلي كمرجل في رأسي، اقتربت تخامرني برائحة عطرها الفوّاح فانغمست شفتاها الآخذتان بالتفتح كوردة ربيع بين شفتي. هاتان الشفتان البكريتان اللتان لم تتذوقا رضاب امرأة قط، ولم تكونا مشدودتين إلى لذة. لا أدري كيف استولت على جسدي فجأة. لم أمنحها أحقية الإيغال بين ثناياي وابتلاع الماء الساخن الذي بدأ ينزّ من فمها، هذه قبلة التعميد الأولى لي، بمثابة افتضاض بكارتي، حتى أننا لم نتنبه إلى الوقت الذي تسرب خلسة على لفح النار المتقدة بين أنفاسنا. غامت الأشياء وتلاشى الخوف الذي كان مسيطرًا على أركاني وعيناي شاخصتان تتفحصان المداخل الخارجية والداخلية، وأذناي ترصدان وقع أقدام قد تأتي في أي لحظة، فما أن اختلط عرقنا، حتى بدأت اللعبة تأخذ مسارًا آخر. كانت تفكّ أزرار ثوبي وتسحبه إلى الأعلى إمعانًا في تجريدي وأنا أقلّدها وأفكّ أزرار بلوزتها لينكب منها ثديان عظيمان التقمتهما كطفل يتلمظ لسدّ جوعته من الثدي

المـوارب عنـه.. كـان الـشيء الـذي استفـز تـاريـخ معـانـاتي وصيّرني طفلًا رضيعًا يبحث عن أم فرأيتها اثنتين أمّا وعشيقة. كنت أخالني سأنتهي عند هذه المتعة لأسدل ثيابي فوق جسدي الرخو وأرحل. كانت تتمدد وتأخذ في الاستطالة حتى لكأني أراها وهي تخلع آخر قطعة تسترها حورية بحر تملأ الغرفة تبتغي لفتي إلى أعجوبة ذيلها. كانت تحيلني إلى ربان لقارب يعبئ جسدي كاملًا ويفيض.. الشيء الذي لم يكن يأخذ مكانه الطبيعي بين كل الصور التي اختزلتها ذاكرتي عن جسد المرأة فرجها الشبيه بمغارة مهدمة كانت مهمتي الصعبة هي إزالة بعض العوالق اللحمية عن فوهة المغارة مع تردد بدأ يلف «بكرتي» إلى الوراء لولا التقاطها لي من بؤرة الحيرة والامتعاض الطافيتين فوق وجهي. غمرت رأسي بين نهديها لتبدأ دورة دماء اللهفة تدبّ في أنحاء جسدي من جديد، ويدها تلاعب شيئي الذي امتلأت الدماء في عروقه وبرشاقة سباح ماهر أولجته في عمقها فتدفقت مياهها الساخنة.. لأول مرة أعلو جسدًا فائرًا بشلالات أنهار متدفقة متحينًا للذة كاملة، حتى تعاقبت انفجاراتنا كبراكين، وذويت في أحضانها متلمسًا طفولتي المسحولة. تقطّرت من عيني دموع ساخنة سحّت فوق صدرها، تنبهت إليها ورفعتني إليها تواسي جزعي وندامتي، فعجزت عن تفتيت وجومي، سحبت جسدي وألقمته داخل ثوبي وخرجت، أجتر ذنبي وكبيرتي مفرغًا من أدنى أمل بمغفرة قريبة.

9

ليل الرياض بدأ يزحف وئيدًا، وقبل أن تتبرج الأرض بزخرف الإضاءات البرتقالية الفاقعة، خرجت أفوح برائحة المرأة الناضجة كانت تنازعني الهواجس مثل ترمومتر في فم مريض محموم. عدت إلى غرفتي. نزعت ملابسي الرائبة بالرذيلة. دخلت تحت الدش أقشّر عن جسدي بقاياها محاولًا إعادته إلى بكارته. خرجت مبللًا بالخطيئة. اتجهت صوب القبلة بارتعاشة كادت أن تقضي على ما بقي من روحي، كان الجزع واليأس قتلا آخر خيط يصلني بالله، توكأت على عزيمة مبلبلة ورفعت يدي المهزوزتين وكبّرت. لم يفتر لساني وهو يتلعثم باحثًا عن فاتحة القرآن، كأنها انتزعت من رأسي عنوة، أخيرًا التقطتها ثم جاءت السورة التالية بخشوع انسكب في قلبي كما يندلق الماء في السواقي، فانفجرت باكيًا، لا أدري كم صليت من ركعة حتى عييت، ونمت تلك الليلة ساجدًا بلا حلم وفي الصباح الباكر أفقت بشيء من الرضا، وقد زالت عن روحي تلك العوالق الملعونة جرّاء خطيئتي الأولى. دلفت أتحسس دفء شمس الصباح الملقاة توًّا وسط غرفتي، نظرت متفرّسًا في أدوات تبتلي في محراب التوبة، دعاء الليلة الفائتة المرّ والبكاء الحارق أعاداني إلى سمتي ورقأ روحي المتشققة. استشعرت هذا الصباح مغفرة الله، ثم

مضيت بتصميم على سحق الماضي، إمعانًا بالتشفي. قررت أن أرهق جسدي بالكدّ المضني، حتى أجرّده من رغائبه. مررت قريبًا من سوق المعيقلية فبرزت من أحد المخارج فتاة تحسر عنها عباءتها فانكشف الغطاء عن عيني، فأبصرت تضاريس الأنثى داخلها تلك التي لم أكن أعرفها لولا تحولات ذلك المشوار التاريخي الذي أودى بي إلى لذة التهلكة وكمين المعرفة، فقبلها لم أكن أعرف أن ثمة قنديلًا بحريًا ينز بالعسل ساعة يجوع، لم أكن أتخيل يومًا أن الجسد الأنثوي الرخو ينتفش عند الطرق ويصبح مثل قطن يخامره ماء. تلك المرأة نقشت على جسدي غواياتها، وأعادت اكتشافه الذي لم يكن يعني لي أكثر من حاجات سريعة أبخرها عبر خطوط الخيال، أو بمشاهدة قلقة وسريعة لفيلم مهرب. ثمة صوت يسكنني أظنه الشيطان الملعون يقول: أنت ابن أبيك آدم الذي لبس عار الخطيئة الأولى فندم أيما ندم لكنه لم يعلّم أبناءه حكمته فلم يقلعوا عن اقتراف خطاياهم، لن تكون أطهر منهم، ولا أحكم منهم ولا أعقل، ألا تستحق الأنثى مشاطرتك الحياة، فهي حقيقة الحياة الأسمى على وجه الأرض، كم اقترفت من الخطايا فلم تهتز لك شعرة، الأنثى فقط كشفت لك هوانك وضعتك، وغيّرت من ذائقة الحياة، كما قلبت موازينك.. يا الله، كيف تفوت خلفك سنوات طويلة مسكونة بكربات خبيثة، دون أن تصفّي حساباتك معها. لقد اكتشفت مكمن لذتك فهي في متناول يدك، ثم ذكرني مبكتًا وهازئًا بعدد النساء اللائي استدرجنني وتمنعت، وأوصدت أبوابي دونهن. كنت أحيل رفضي إلى الخوف من العبث بي وعدم نقدي أجرتي. أو توريطي،

مستعيدًا وجه المرأة الملعونة التي أوغرت صدور أولادها ضدي عندما قررت جحد أجرتي، لم يكن الأمر على هذا النحو، بل هو خوف داخلي من التجربة ذاتها، كان الله يتمثل لي عبر كل منارة مسجد أمر بها، وفي كل صوت أذان يدلف إلى أذني بطواعية «خصوصًا» صوت أبي المتحشرج، كان الدين جزءًا من مكوناتي الشخصية التي تقودني دونما استشعار مني، حتى وقعت ضحية المرأة المتمرسة، لا أدري كيف قادتني خطواتي المتخاذلة طواعية لمآربها.

10

تمرّ الأيام سراعًا والصور لا تبرحني.. تمور في رأسي وتنخر مكامن رائحة أنثاي الوحيدة، فتجرفني غلواء الشهوة المستعرة في عروقي، أقف بسيارتي مقابلًا لأحد فوهات أسواق العويس متحينًا أي عباءة تهفهف قريبًا مني، ممعنًا النظر في كل جسد أنثوي، متلهفًا للتجربة الثانية. بعد اليوم لا خوف، فالمتعة المسروقة تستحق حتى السجن مادمت أعزب لن ينالني من العذاب سوى مئة جلدة وهي المقررة شرعًا في جريمة الزنى كاملة الشروط مستحيلة التحقق، فلن يقف بين شعب الأنثى وذكري أربعة حكام بمثابة شهود يتحرَّون دخول حشفته الأصلية في فرجها الأصلي ليقتادوني بعزيمة إلى الجلاد كي يلهب ظهري متثائبًا تلك المئة المقررة. فمن شيم الناس هنا درء فضائحهم بكل الحيل، فلا يريدون التشهير ببناتهم أو نسائهم، لذلك لن يتعدى الأمر متى وقعت في الفخ سوى الضرب. وجسدي الذي عدنته هذه المرأة، سيكون متأهبًا لاستقبال أي مباغتة.

عيل صبري وأعياني الترقب؛ فقررت أن أمنح أوقاتي لكل الصداقات العابرة بلا ارتباط معرفي أو عاطفي (فالصداقة الجنسية كما يقول كونديرا لا يمكن أن تخلي

المكان أبدًا لعدائية الحب). اكتشفت أن العلاقة الجنسية المحضة بين اثنين هي قمة الاحترام المجرّد من عواطف دونية. ببساطة أقول أو تقول: أريد دفقتك وببساطة مماثلة أقول أو تقول: أريد أن أنام، وعندما نفترق ويطول البين بيننا لا نجزع بل يزيد اشتهاؤنا ويضاعف من إحماءة اللقاء حتى لو بالمتخيل، فارتباط الحب بالجنس من مخلّفات الأفلام العربية، وارتباطه بالتملك من مخلفات التاريخ الذي لم نعشه. أما ارتباطه بتملك عقار أو سكن فهو من مخلفات خصوصيتنا السعودية.

هذه الفكرة دوّنتها في رأسي فأحدثت زلزالًا كونيًا داخلي. طفقت الأشياء تمور أمام عيني بغرائبية متناهية. نساء المدينة يتشكلن بصور مختلفة، أصبح لي عينان ضوئيتان تكشفان ما توارى خلف الحجب، وصرت أبصرهن بعين داخلية، سافرات بشعور متهدلة على الأكتاف. أما الفتيات فبناطيل ضيقة تحسر عما توارى من لذائذهن. سيقان عارية وممتلئة، أرداف تتراقص على إيقاعات الخطوات الرتيبة. تمثل النساء أمامي في طابور طويل. صرت أغرس عيني في فرجات العباءات المسدلة فوق الأكتاف أقايس تدوير سيقانهن وهن محشورات ببناطيل جينز ضيقة، والصدور مكمّمة بستيانات خفيفة. اقتناص اللذة من جسد أنثى تفحّ كالثعابين المتضوّرة من امتلائها بالسم الزعاف: هو اكتشاف للحياة الطبيعية، هذا التخليق الجديد أعاد تدوير حواسي الخمس. لساني بطعم الليمون وعيناي تلاحقان تضاعيف

الجسد الرطب وأذناي مسكونتان بالهمس ودوي انفجارات تهزّ طبلتيهما، وأنفي مغمور برائحة العرق المعطر ويداي بملمس الهواء الشفيف. لم يعد للبيت ألفته المعهودة، غرفتي تنسج لي ألف جسد لامرأة غاوية، كل ذلك أنساني سيدة ليلة الاختبار العظيمة تلك التي قلبت موازيني.

11

لم يعد التكسب خلف مقود (الونيت) يعني لي أكثر من إزجاء وقت فراغ محتوم، واليوم أضيفت على رأس قائمة اهتماماتي الأنثى الجسد. في كل ليلة أسقط رقم جوالي في ورقة صغيرة شذّبتها بعناية، واحدة من بينهن استأثرت بعقلي لم تبرحني صورتها قط وهي تلتقط رقمي من حقيبتها الصغيرة وتزيح خمارها عن وجهها، ليهتز كشعلة أولمبية بابتسامة مطّتها بفخامة استثنائية، تواري اشتهاءً مزحومًا بالرغبة. عدت ليلتها أتمرغ في فراشي كجرو يمرّغ جسده في تراب رطب. كنت أسائل نفسي، هل ستتصل؟، أذكر حينما كنت بما يشبه التوهان أنني أعطيتها رقم جوالي. كيف لم أراجع الرقم؟ فلعلي أعطيتها إياه خطأ أو أني أسقطت ورقة أخرى، رقمًا مختلفًا وأنا في لحظتي المدوخة. ليتني جرؤت على مغامرة صغيرة بأن (مثلًا) أملي عليها رقمي مباشرة أو أطلب منها أن تجري اتصالًا سريعًا كي أضعها في قائمتي التي لا تتسع إلا لمثلها، حزمني خوفي المسيطر الماثل في رأسي كلعنة نبتت حرشاء شائكة غرسها شيخ الهيئة بصوته الأرعن يوم قال لي: (إياك وكيد النساء فإنهن أخبث من الشياطين) يا لغبائي كيف أفوّتها هكذا ببساطة، تركتها للوقت، فلا يزال جسدي

مغمورًا برائحة أنثى واحدة، حتمًا ستتلاشى كزجاجة عطر منزوع الغلاقة، يااااه ليتها تتصل، جسدي بات بحساسية مفرطة لا تحتمل.

بات العمل بالنسبة لي شبيهًا بلعبة البليياردو، يحتاج إلى مهارة في التسديد وصبر ورباطة جأش في الضرب، لم يعد ثقيلًا أحمله فوق ظهري كما كان. سبع سنوات من الكدّ المضني كدَّست في حسابي مالًا جيدًا يؤمنني من العوز، على الأقل حتى نهاية فصل الصيف والتحاقي بالمدرسة معلمًا. صرت لا أقبل بأي راكب أو أحفل بأي ملوح يناهز الطريق العام بجسده المنهك. لن أتنازل عن مواصفاتي الخاصة التي وضعتها أخيرًا، لا تبعات عدا التزامي الأول مع بخيتة ونصرة، اللتين آخذهما عصرًا إلى سوق المعيقلية ثم أعود بهما إلى بيتهما المنزوي في ثلمة من حي منفوحة. بقية النهار لا أحسن سوى الخمول وتقليب جوالي بانتظار اتصال إحداهن. في ليلة خاملة وبعدما اضطجعت في سريري سابحًا في وحل الملل اهتزّ السكون من حولي برنة جرسية عالية تنبعث من محمولي. كان رقمًا مجهولًا ، فهل هي من صيد الأيام الفائتة؟ رفعت جذعي الأعلى بتهيؤ كامل لاستقبال الصوت فانبعث ببحة أنثوية رخوة شردت بقايا سكوني، وطردت خمولي وكآبتي، كانت تمرّن صوتها على تنغيمة تلائم محادثة أولى ملهوفة. سألتني عن أحوالي، وأنا أتلجلج بكلمات حيرى، مشتت بين الحيرة واللهفة، الصوت قريب إلى ذاكرتي تمامًا بدأت أغمغم بكلمات لا تشدّ من أزر جملة. ضحكت من ارتباكي وهي تقول:

ـ من يسمعك الآن لا يصدق أنك أنت من غازلني، ولا من أسقط الورقة في حقيبتي!

لا تكن هذه طريقتك مع كل النساء، تتمسكن حتى تتمكن.

ثم فرقعت بضحكة ماجنة، ولساني يبتغي التحرر من ربقة المفاجأة، لا يمكن أن أفوت هذه الغنيمة بغباء لسان ألجم بمباغتة أنثى لا أبحث من ورائها سوى عما تتيحه لي من مكتسبات جسدها الفارغ، كانت الأفكار تجوس رأسي بسرعة العاصفة تستجمع قواي المتسربة وتعيدني إلى نفسي، مخافة فقدانها، فانطلق لساني يهدر بلا توجس أو ريبة، قالت باختبار استفتاحي:

ـ هاه؛ عرفتني.. وإلا؟

هذه الـ وإلا أرعبتني فسارعت بالإجابة قائلًا:

ـ لا (أفا) عليك.. إن لم تكوني هي فمن تكون؟

ـ يا خبيث تريد إقناعي أنك لم (ترقم) غيري؟

ـ هل تريدين أن أقسم لك؟

ـ صدقتك.. قالتها وهي تضحك.

ـ أما أنا فاسمي نوف (فضحكت) أو أنا أسمِّي نفسي منذ اليوم نوف، فهل يضيرك الاسم المستعار؟

قلت بشجاعة مفرطة:

ـ لا أبدًا ولكن ربما تحسبينني مغفلًا إن كشفت لك عن هويتي، لسبب بسيط هو أني تقريبًا ليس لدي ما أخاف منه، لست مثل كثير من الشباب الذين يقضون أوطارهم من النساء

تحت أسماء وهمية، خشية افتضاحهم وتوريط أهاليهم وذويهم.

ـ يعني أنت ما يهمك، لكن لا أضمن صدقك من كذبك، كل هذه المعلومات ربما تكون قد اجترحتها، كيف لي أن أصدّق أن طالبًا جامعيًا متفوقًا يعمل في هذه المهنة المضنية؟ ألم تجد أنسب منها مستحيل؟!

ـ لا وجدت في عمل ليلي براتب ألف وثمانمئة ريال، بينما أحصّل من وراء الكد تقريبًا ستة آلاف ريال شهريًا، كما أن الوقت ملكي والسيارة أيضًا، فكرت أن اقترض سيارة ليموزين، ولكني وبعد طول تفكير قررت ألا أرهن نفسي أربع سنوات لأي جهة كانت ما دام هذا الونيت يحقّق لي هذا الدخل الجيد مقارنة بالوظائف الأخرى، يعني أفضل من وظيفة على المرتبة السابعة، خصوصًا أني سأنهي دراستي وأستريح من هذا الكدّ إلى الأبد.

12

لم أكن أستعجل اقتطاف اللذة فتحدثنا طويلًا، سهرنا الليالي في ينابيع أحاديث ثرّة لا تنضب. كانت تتحدث بلباقة متناهية، وكنت أجاريها باللغة التي تتحدث بها؛ لغة مفعمة بالاستعارات والتشبيهات تكون فلسفة.. أو رؤية للكون والحياة.. لم نستشعر كيف كان ينسحق الوقت.. سألتني ماذا أقرأ وسألتها ماذا أعجبها.. ليال تتمدد حتى الصباح تبدأ دافئة ثم ساخنة لا تبرد حتى يباغتنا النوم. اكتشفنا خلالها كم نحن متقاربان في الوعي إلى الحد الذي نتسابق فيه على التقاط الأفكار المختلفة، عن الإنسان والكون والحياة حتى عن الله، وكأننا نتحدث بلسان واحد فلا تعرف أينّا سيد الفكرة، كاشفتها بهويتي وسيل من المعلومات الشخصية بلا تحفظ أو مداراة، الشيء الوحيد الذي كاد يهوي بالصورة أنها موسرة. من عائلات برجوازية، آثرت التحفظ عليها معلّلة بقولها:

ـ اسمي لي أما عائلتي فليس من حقي.

عذرتها، ولم ألحّ بمساءلة مبتذلة، فالأسماء والعناوين والأرقام من حق الرجال فقط، أما النساء فتحفّهن المحاذير.

في المحطة الأخيرة من مكالمتنا نستأنس حرارة تتسرب بين أركاننا فنعالجها باقتطاف حيِّز من اللذة، نسقط خلالها لباس الحشمة ونمرغ ألسنتنا بوحل العبارات العاهرة،

كانت تستلذ بكل الأوصاف الماجنة والشتائم القبيحة، فلا ننتهي إلا على ذبول يُفتر ألسنتنا.. في الليالي المتعاقبة مددنا جسور غواياتنا فتواصلت ثرثراتنا حتى الصباح. لا ننتهي حتى نفتل حبال المتعة ونريق لزوجتنا، فلا يعود للكلام ثمن. تودعني عقبها بقبلات راضية. وأنام بنفس مرضية، قد نعاود اقترافها في الليلة التالية وقد نخفّف من إحماءة أجسادنا فنؤجلها لليلة التالية، خصوصًا عندما تحتدم أحاديثنا بقضايا الأدب والثقافة، فقد عثرت فيها على الميزة الأهم، فهي قارئة نهمة.

13

صباح ذات يوم هدرت باتصال لا ينقطع، كنت أتنعّم بأحلام طرية وجوالي على الصامت... لا أدري كيف كشحت إضاءة الجوال في عيني مخترقة سدف الظلمة الحالكة؛ فتنبهت إليه لو لم تكن هي المتصلة صباحًا على غير عادتها لتدثّرت بلحافي وانقلبت على شقي الأيمن وواصلت الشخير، التقطته دون أدنى حركة تغير من نومتي فانبعث صوتها نقيًا طريًا وجادًا بدأته باعتذار:

ـ حبيبي معذرة صحيتك شوف جريدة اليوم... الصفحة.. اقرأ مقالي العمود الأيسر يالله باي.

قرأته بنهم وغبطة كان بعنوان (لذة مهّربة) وهو الموضوع الذي تحدثنا عنه في ليلة سابقة.. كيف يمكن للإنسان أن يهرب لذته حتى فيما يتلمس قراءاته؛ منه عرفتها فكنت كحجر صغير سقط في هوة سحيقة.. هذه الكاتبة التي يتلهف كل كاتب لنيل كلمة تمنحها إياه. باتت تساهرني الليالي الطويلة بكل فجور وأريحية. بعد أيام تالية قدّمت لي مفاجأة أخرى وبالثقل نفسه كتاب صدر لها مؤخرًا، بعثت به مع سائقها الخاص، يومها داهمني شعور بالمهانة والضعة، فكيف تكون مقتدرة ماديًا ومثقفة لهذا الحد وتستعين بسائق ونيت معدم لولا أنها كانت تتربص بأمثالي فكنت فريستها

المبتغاة؟ فهل أترك لنوازع الأنا العليا تحطيم كل الجسور التي تمدّدت بيننا؟ عدا أنها بدأت تميل عاطفيًّا نحوي، وقلبها يخفق بشيء ذي مغزى، ليلتها استجمعت قواي لمجابهتها بكل ما يؤرقني، على الأقل، كي أستمع منها إلى اعتذار يعيد إلي كرامتي، ويبقيها لي، اتصلت متأخرة قليلًا عن موعدنا الليلي وقبل أن تغزوني بعباراتها الشهيّة صوبتُ سهام أسئلتي المغموسة بلائمة، صمتت كثيرًا وأنا أصبّ جام غضبي بصوت أجش، امتثلت صامتة دون مقاطعة، لحظة انتهيت ساد صمت مطبق كأنه الانتظار الفاصل بين الحياة والموت عبر طلقة مصوّبة نحو مقتل، ثم سألتني:

ـ سأعترف لك: أنا فعلًا قبلك كنت أبحث عن تسلية، أعترف أنك لست الوحيد الذي أوقعته في شباكي، ولكن أقسم لك بالله العظيم، أنها مجرد مكالمات ليلية أو ليلتين أقضي معهم وقتًا عابرًا، ثم أغيّر شريحتي. أما أنت فصدفتي المختلفة تمامًا عنهم، كان بمقدوري معاملتك بالمثل، ولكن بعدما عرفت عنك ما عرفت ولامست شغاف روحي فقد أحببتك، إذا كنت تريد كفارة تزيل كل هذه العوالق فلا مانع عندي. قل لي كيف يمكن لي أن أكفّر عن خطيئتي تجاهك.

ـ كيف؟ (سألتها).

ـ سأكشف لك ما تبقى من هويتي؟ هل يريحك مني هذا؟

ـ كيف (كررت السؤال).

ـ الليلة وش عندك؟

ـ ما عندي شيء.

- طيب خلاص أنت تعرف البيت اللي نزلتني عنده، الساعة التاسعة تجي بس مع الباب الغربي، ولسان حالي يهجس لي: هل ما تقوله هو ما تعنيه بجد؟ أم أن كلام الليل مدهون بزبدة؟ لاحظت أن نبرة صوتي قد مالت للهدوء أكثر فغشي صوتها بنبرة اشتهاء، فانزلقت من لسانها عبارة ماجنة:

- أنت مخيف، تخيلتك تجلدني، صوتك الغليظ الساخط أحالني إلى قشة:

- هاه أجيء هالحين؟ (سألتها بشغب).

ارتخت أوتار صوتها وهمست قائلة:

- صدق أنت مشتاق إلى هذه الدرجة؟ بس أنت إلى هالحين ما تعرفني.

ثم ضحكت بقهقهة راقصة متغنجة مطلية برغبة وأتبعت قائلة:

- بصراحة أنا أبيك الليلة قبل بكرا.. بس بكرا ستكون الأجواء مكشوفة أكثر

- ماذا؟ مكشوفة أكثر؟!

أرعبتني هذه الإلماحة ولسان حالي يردّد: الناس يدوّرون على الستر أكثر وهذه تدور على الفضح، بس ما معنى الكشف هل هو الفضيحة أو...؟!

- غدًا ستفهم كل شيء، أريدك كاملًا بي وأنا مكتملة بك. بس هاااه ما يحتاج أول السرية مهمة.. الليلة سترى أناسًا ربما لمرة واحدة في حياتك، هذا قانون إن كنت مستعدًا، فاقبل دعوتي.

فهمت أنها محاطة بقائمة من المحاذير. انتابتني بعض توجّسات قد تصل إلى مستوى ذعر مسيطر لم تفككه سوى الأحاديث الرخوة بيننا. حتى تشبعت سماعة الهاتف بالقبل والتأوهات الحارة والكلام المفتوح على كل القبائح المشهية، لولاها لما نمت مغمورًا بحلم لذيذ وانتظار الغد.

14

تهيّأت كعريس يستقبل ليلة عرسه، لبست ثوبًا نظيفًا ثم خرجت أتلمس طريقي بين زحام الأرصفة المنهكة تحت الأقدام. دخلت أسواق الشعلة أقطّع الوقت الذي يعاندني بلا طائل. نظرت إلى الساعة الخاملة فكانت تشير إلى السادسة، التقطت سيارتي أجوب شوارع المدينة العائمة بهدير السيارات وأدخنة المحركات، وعند الثامنة إلا ربع كنت قريبًا من دارها. أجريت اتصالي، فأجابتني على الفور، أخبرتني أنها خارج المنزل لتجهيز ليلة الحفل. يا لهذا الوقت اللئيم الذي لا ينقضي لا أدري كيف انصرم حتى وطأت قدمي مدخل السور الخارجي ومنه ولجت مدخل الفيلا الواسع ذا الأعمدة الرخامية العريضة أفضى بي إلى صالة باردة تعجّ بألوان مختلفة من الإضاءة الهادئة واسعة بما يكفي لتعريتي، لمحتني فتهادت إلي بولهٍ تستقبلني متخففة من كل مظاهر الحشمة اللازمة، جينز بيرمودا وبلوزة تشفّ عن «ستيانها» من الخلف وشعر مجعد بالجل حتى لتبدو أمامي كغجرية المسلسلات المكسيكية. اقتادتني ضاحكة وهي تقول:

ـ ستسمع الكثير وترى الكثير، نظريات وأفكار وحكايات سرها لديك فلا يطلعن عليها أحد من العالمين.

أجلستني في ركن قصيّ من الصالة من خلفه باحة تعج

بأدخنة المعسل، فرقعت بإبهامها والوسطى منّبهة الخادمة الفلبينية كي تقدم لي على عجل مما صُفَّ من كؤوس فوق الصينية النحاسية التي تحملها، التقطت منه كأس عصير بلون أخضر لم أره من قبل من بين الحمراء والصفراء، ووضعته أمامي وهي تقول:

ـ عصير الريلاكس هذا سينعشك.

تذوقته فكان لذيذًا وهي تحوّم عينيها في وجهي وكأنها تراني للمرة الأولى ثم أردفت قائلة وهي تقرصني من ذراعي:

ـ يا ملعون.. كيف لم أتنبه إلى هذه الوسامة.

ـ أي وسامة؟

ـ هذا الأنف الجميل الأقنى، والشفتان المشهيتان للقبل.

ملأتني عباراتها ليس بالزهو فحسب، بل بالحرج والخجل، فلأول مرة في حياتي أقابل من يكتشف بعض علاماتي الفارقة. هذا الإطراء اللذيذ اختلط بطعم العصير وأعاد توازني لأعبّر عما تجيش به روحي وينعكس بلمعة استثنائية في عيني. قلت لها:

ـ اذا كنت أملك هاتين الصفتين المميزتين فما عساني أن أقول وأنت تحتشدين بكل صفات الجمال والذكاء الحاد، صدقيني لأول وهلة رأيتك فيها عدت مئات السنين إلى الوراء تذكرت شهرزاد. الفرق هو أنك تقدِّمين اللذة على الحكايات.

15

ضجّت الصالة بضحكات أنثوية عاهرة، ووقع أقدام تدخل من البوابة، فنهضت تواري اهتمامها بي إلى حيث الضيوف القادمين.. كانوا رهطًا من الرجال يرتدون بدلات أنيقة غير متكلفة ومن خلفهم نساء وقفن يتخففن من ملاءاتهن بمعاونة الخادمتين المنصوبتين هناك لهذه المهمة. أخذوها على التوالي بقبل على الخدين ساخنة وشرهة، ربما هكذا رأيتها من فرط غيرتي.

تركت لعيني المدهوشتين حرية التجوال، بين الرجال والنساء الذين يتقاسمون هذه الأرائك، وسؤال واحد يرنّ في أذني: هل نحن في الرياض؟ هل ركبت مكوكًا فضائيًا نقلني إلى عالم آخر؟ أم أنني لا زلت منغمسًا في حلم لذيذ؟ أدركت مغزى عبارتها حينما قالت: غدًا ستكون الأجواء مكشوفة أكثر.

رأيتها تلتفّ حولي وأنا مغمور ببهجة لا توازيها بهجة، أرسم بعينيّ وهي مقبلة تفاصيل جسدها وأسبغ عليه من عباراتها القبيحة فيزيد أوار اشتهائي لها. وقفت أمامي وسحبتني من يدي وكأنها تزفني إلى كوشة عريس. أخذتني إلى جمهرة من النساء والرجال يتحلقون حول طاولة زجاجية

مستديرة نهضوا تغمرهم الأريحية للمصافحة قدمتني إليهم بشيء من الخيلاء الغامضة قائلة:

ـ هذا ماجد أستاذ لغة عربية بامتياز.

استشعرت حرارة أيديهم حينما سمعوا أستاذ اللغة العربية. وزادت حفاوتهم بي. جلست متوسطًا بين رجل يناهز الخمسين من العمر يدخن سيجارًا كوبيًا فاخرًا وفتاة ترتدي نظارة مستديرة وتضع مكياجًا خفيفًا. كانت بيضاء بما يعفيها من أي إضافات، ربما تحتاج أكثر إلى حيلة تحدّ من استطالة وجهها لذلك أضافت لونًا داكنًا قليلًا على أطرافه خلطته ببودرة خفيفة. تحمل بين يديها كتابًا تقلّب صفحاته، دونما أي اكتراث للأحاديث المحتدمة بين الجميع. ناصفتني صمتي المستتب بين الجموع الصاخبة. جلست أقلّب بصري شاخصًا أعقد مقارنات عقلية بما يشي به هذا المكان. طاف بي رأسي فيما وراء الزمان والمكان فما الذي يختبئ وراء هذا التخلل الأنثوي بين جمهرة ذكورية يا ترى؟ وأين؟ في مدينة هيئات الأمر بالمعروف التي تشدّ وثاقها بأعين لا تفتر ولا تطرف، في حين أن الأمر لا يُعدّ خلوة في مفهوم الأزهريين؛ فعندما تتنوع وتتكاثر رائحة الخصوبة الذكورية حول الأنثى فهي في أمنة من الشيطان الرجيم، غير مكترثين لآراء علمائنا الذين تجفل قلوبهم من رائحة الأنثى ساعة تهفهف بين الذكور بلا تفرقة أو تمييز بين مفهومي الخلوة والاختلاط، حتى أصبحنا مجتمعًا ذكوريًا بامتياز، والعباءة هي المركبة التي تُقضى بواسطتها أوطار النساء والرجال على

حدٌ سواء. من لا يعرف طبيعة مجتمعنا يخمّن أننا نعيش حفلة تنكرية دائمة وعلى مدار السنة. وهذا أيضًا لا يهم.. المهم في اللحظة الموغلة في التفكر والتدبر بحال هؤلاء القوم انتبه لي أحدهم كان يجلس على مبعدة مني، في الباحة الخارجية، رأيت نظراته الحادة متفرسًا في وجهي عبر النافذة الكبيرة، أبصرته يفز من مكانه بحركة مفتعلة، واستعراض مكشوف، جاء يجرجر قدميه بين الكراسي رافسًا بعضها بلا شعور وأخذني بالأحضان وكأني صديق طفولته، ثم سحبني من يدي وأجلسني مجاورًا لسيدة متوسطة العمر لفتني منها شعرها المنكوش، وبحميمية أخافتني بدأ يضغط على يدي و(تهاني) تداهمني بنظرة ضاحكة وتقترب مني هامسة.. خل في بالك هذا المنافس الوحيد لك (زوجي).

اختلجت عظامي وانكسفت عيني وتثاقل جسدي الملاصق له، تمنيت لو لم أقاربه، وهو يختلس النظرات بعينيه اللوزيتين خلف نظارته المتوكئة على وجنتين متهدلتين وهو يمزّ سيجارته بتثاقل، حتى كاد دخانها المنبعث من منخريه المشعرين يكتم أنفاسي المتهيجة. كل ما يمكنني عمله الجلوس خاملًا بنظرات تائهة وغير متصنعة ولا مرتابة، تمنيت لو أستطيع الوصول إلى قلبي الذي يقرع قفصي الصدري كسجين ملَّ الانتظار وأعصره حتى تتبخر مخاوفي. كان حديثهم حامي الوطيس. ثابرت مجتهدًا بعينين تتسعان لأكثر من دهشة. أن ألتقط شيئًا منه تحرزًا من سؤال مباغت يعرّي جهلي أمامهم. كانت تجلس إلى جواري فتاة ترغي

بأحاديث لا تنتهي محاولة اصطياد عيني المعلقتين بتهاني، متوخية الاستئثار باهتمامي عوض البلاهة المعلّقة بوجهي. من احتفائها بي بدا صوتها يتصاعد حدّة حتى خشيت أن تفلق دماغي بعبارة حادة أو تشقني نصفين، ولسان حالها يقول ما هذا المتخلف؟.. تيبس لساني فلم يسعفني بأدنى عبارة متخاذلة حتى لو كانت بلا لون ولا رائحة ولا طعم، المهم أن تتزحلق من لساني. بدوت عاريًا إلا من الصمت الذي يكسوني بحلّة من الوقار الثلجي. تجلّدت واجمًا أُمعن في اختراقها بعينين غاويتين، راعها اجتياحي الأرعن والصامت لها، ربما أحست بنفضة قوية أو هزّة عارمة أو سخونة محرقة انبعثت من عيني، حتى كأني أسمع صوتها تقول: يا لهذا القروي. أخيرًا أعلنت عن تذمرها محرّرة لسانها من زبد الكلمات المنتفشة أنوثةً مع لعنة كابدت كي تكبح انزلاقها عفوًا فتحررني من هذا الانغلاق؛ سألتني:

- أجيب لك بيرة؟

انتفضت كمن علق بسلك كهربائي عار قائلًا:

- إيه لو سمحت.

طفحت فوق وجهها ابتسامة انتصار رأيته سابحًا في قاع الكأس الذي سكبت فيه البيرة سريعًا واستشرى الزبد فوق حوافّه.

كان الجالس أمامي لا يكل من ممارساته الغبية، يوزع قبلات مجانية كلما مرت به فتاة، ظل زوج تهاني يستمرئ

الضغط براحته على منكبي مثل حلاق باكستاني، كم تجشمت مكوثه ملتصقًا بي.

غمزتني ذات الشعر المنكوش وهي تحني ظهرها تجاهي وبأنفاسها الفائحة برائحة المعسل تهمس في أذني قائلة:

ـ لا تهتم، كن طبيعيًّا.

هذا اللطف خفّف من وطأة غرابتي، وأراحتني قليلًا، أحببت التعبير لها على امتناني لهذه النصيحة، فسألتها عن الكتاب الذي توسّده فخذها، كان بعنوان عريض بالأحمر القاني (أنثى من زمن الحرب)، فلم تتوان لحظة في رفعه سريعًا ووضعه أمامي بافتخار ظاهر «يشر» من عينيها، وهي تعرف بنفسها: هذه أنا رباب، روائية، وهذه روايتي الأخيرة فهل قرأتها؟ اختلج وجهي بعلامات إحراج، التقطتها تهزّها أمامي وكأنها كتاب مقدس تخشى عليه من الدنس وهي تسألني: طيب هل قرأت روايتي الأولى؟ وبما أنني متابع جيد لكل ما يُنشر من أعمال لم أشأ أن أذكر لها أني قرأتها على مضض؛ من أجل تخليص قيمتها المدفوعة، إلا أنها صمتت بانتظار أخافني وكأنها تقرأ ما ران على وجهي من حرج فأجبتها فورًا: نعم قرأتها. كنت كل ما أخشاه حقًا أن تسألني عن رأيي، فإن قلت قرأتها فلن أكذب عليها سأصارحها وأقول: متواضعة جدًا على الرغم مما كُتب عنها من مقالات نقدية وقراءات كلها أشادت بها، بأقلام نقاد انتصبت أقلامهم فور صدورها، خاطرتني نفسي أنها ربما

تطوّرت أدواتها، ولا أخفيكم فقد استشعرت بصيصًا من فخر بجلوسي في حضرة روائية، لذلك ارتمت من لساني عبارة إطراء فادحة رسمت على وجهها حفلة عرس وتباشير فرح، فسحبت قلمًا من حقيبتها الجلدية المنتفخة التي ذكّرتني بحقائب الخبز القديمة، وبسرعة البرق كتبت بخط يشبه نبش الدجاج إهداء قدمته لي مليئًا بالأخطاء؛ فداهمتني هذه الأبيات:

ربابة ربة البيت تصب الخلّ في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

16

لم يبرحني إحساسي بالمهانة وأنا أقدّم شهادة مزوَّرة مثلي مثل كل النقاد الذين صفّقوا وطبّلوا بلا كلل لروايتها أيضًا. ألهذا الحد تستطيع الأنثى حلّ عقال أي لسان تلجمه المبادئ؟ فما بالي تتخطفني غلواء الليلة المسروقة من جسد الرياض الجنائزي وأكذب. بحثت عن مخرج قريب أو حتى عذر يخمد حريق صدري، قلت: ما دامت رواياتها راقت لعدد من النقاد والقرّاء، وكتبوا عنها فليس لرأيي أية قيمة. هذه العبارة استللتها مما بقي لي من أساتذتنا، كان يرددها أستاذ النقد متبرئًا من صفة الناقد التي تسقط جهلًا عليه؛ لأنها لا تتطابق مع واقع حال كثير منهم، أما أنا فأكره هذه المفردة لسبب آخر؛ لأنها تذكّرني بالنساء اللواتي يولين الأدبار دون «نقدي» أجرة المشوار، ربما ثمة تقاطع بين هؤلاء النساء وبين النقاد نأخذه من منظور أن كليهما يحمل حقيبة؛ هن للجرجير والبصل والثوم وهم للأوراق الجاهزة للتجيير (بخربشات) قلم، فلا يهم ما ينقدون أو ما تخطّه أقلامهم عن ربع شاعر أو نصف كاتب أو روائي مزعوم المهم أنهم يقبضون أيضًا، هذا لا يهمني ولا يهمّ أستاذ النقد ولا يهمكم؛ المهم الخلاص من هذه الورطة بأقل التكاليف المجازية، قبل أن تحيط بي الروائية رباب المتلهفة لسماع

مزيد من كلمات الإطراء. تحسّست في نفسي شيئًا من الحرج وهي تعابث أناملها وتخاطر الجميع بعينيها وكأنها مركز الكون أفقدتها الحيلة صوابها، كانت تبتغي إسماعهم عبارتي الإطرائية؛ ما أنقذني منها حديثهم الذي أخذ منحنى أكثر جدية حيث هجروا كوكبها الدري خائضين في فلك آخر. جلست تهزّ عينيها بمواربة خبيثة وهي تخلل أصابعها الناحلة بين خصلات شعرها الملتوية على جبينها وكأنها ساحرة من ساحرات العصر الفيكتوري، تهشّ بها أذيال الحيل الراقدة في رأسها، كي تستعيد دفة الحديث إلى إبداعاتها، تركوها بشيء من النكاية لا أدري ما سببه، وخاضوا في قضية الفقر في العالم العربي في طريقهم حرثوا حقولًا ملغمة بعنوان كبير (الحرية المفقودة في العالم العربي)، وهم يحقنون حلوقهم المتشققة بالأصوات بجرعات من الويسكي المخفف بالثلج لا أدري كيف عثروا على مثل هذه المحرمات؛ وتحديدًا هذا الصنف المرعب من المنكر الأقوى، ثم طفقوا يتحدثون عن تجربة حداثيي الثمانينيات وكيف أجهضت، وامكانية استنهاض همة ليبراليي اليوم لإعادة توحيد الصفوف.انخرطوا في هدير متواصل مزبد وكأننا في معركة حامية الوطيس في برنامج سياسي متلفز وأيديهم لا تكلّ من استعراض بهلوانياتها المكشوفة. جلست محتميًا بصمتي أتابع ذوي الملابس الأنيقة والوجوه اللامعة والأيدي الملساء الندية متشعثة على هم الفقراء والمساكين والمشردين أمثالي، فكّرت أن أتحدث أصالة عن نفسي. حاولت جاهدًا إخراج صوتي من بين ركام الأسئلة فلم أستطع، بحثت عنه فلم أعثر عليه، حتى البيرة الملعونة لا تعينني على إنجاز مهمة البحث

عن بقايا صوت. اكتشفت أن الفقراء والمنكسرين لا صوت لهم، الصوت فقط لمن كسيت حباله الصوتية بمباهج الحياة، فهو يقلبها مرة بين العزف والغناء ومرات بين الرقص والتباهي بغناه وهو يستعرض عالم الفقراء.

بدت لي أحاديثهم مع تقادم الساعات «غرائبيةً» لكنها مسلية أيضًا. بت كمن يشاهد تقنية جديدة محاولًا فك شفرتها؛ ليتحقق له شيء من انتصار يعزّز قناعته بعقله، فأفرغت أذني من كل الوشوشات المحيطة، وشمّرت عن عقلي كي ألتقط ما يتفوهون به. تجرّدت للسماع والتلقي كما كنت في قاعة المحاضرات. تابعت حتى تثاقلت ألسنتهم متغافلين عن الوقت، الذي يتلاشى.. الساعة تشير تقريبًا إلى الثالثة فجرًا، فاقترح أبو بسام الاكتفاء بهذه الحصة من الحديث مطالبًا الجميع بالتوجه إلى الصالة للالتحاق بالآخرين الذين أخذتهم عذوبة الموسيقى والأغاني للاهتزاز والتمايل، دلفنا جميعًا مخلفين وراءنا أكومًا من مخلفاتنا، بما فيها رواية رباب الموقعة.

جلست في زاوية على (صوفا) طويلة فجاءت على أثري رباب كي تمدّ إلي روايتها التي خلفتها مع تلك الأنقاض ثم جلست ملتصقة بي، وعيني تحوم مفتّشة عن تهاني التي اختفت من بيننا فجأة، ثم ظهرت فجأة لا أدري من أي الثقوب، وقد بدلت ملابسها بتنورة قصيرة وبلوزة ناعمة، تنفست الصعداء وارتخت مفاصلي وارتحت قليلًا، وغمرت عيني بالمشاهد التي ربما لن أصادف أجواء مشابهة لها تمنحني هذه المتعة، طوفت بعيني أتابع المسرح الماثل

أمامي، حيث بدأت الفتيات يتراقصن على أغاني تنبعث من الاستريو المنزلي. نهضت رباب تتمايل معهن مفسحة المكان لتهاني التي غمزتني بعينها وهي تتجه نحوي، فجلست تشاطرني المكان الضيق حتى لكأني أرهف سمعي لوجيب قلبها.. استعادت أنفاسها الهاربة، فاستشاطت الفتنة منحدرة من أدنى عبارة تلتقطها من مستودع ذخائرها. هذا هو الجسد الذي نقشته من صوتها على أديم الظلمة. تزحزحت قليلًا أحتويها بحيّز قليل من أحضاني فأحنت رأسها تنثر في أذني عباراتها المغموسة بحرارة لاهبة تقول:

ـ هل اكتشفت؟ هل أعجبك ما رأيت؟ هذا وقتنا الذي نُبحر خلاله خارج إطار الزمان والمكان كأننا نفترش سجادة صلاة من صنعنا.

ـ هذا المكان ساحر بما يكفي لكتابة رواية. قلت لها وأردفت: تدرين؟ سأعنونها بـ (خارج إطار المكان).

ضحكت وهي تمسك بيدي.

17

الحرية والتمرد الطريقان الوحيدان للإبداع، مثل «سجادة الصلاة» للمؤمنين .

أعجبني تشبيهها الرائع وأعجبتني أكثر تقاطيع وجهها الساحر، مرخيًا لها خيوط الكلام مفترشًا وجهها كسجادة صلاة.. أعجبتني عبارتها سجادة صلاة، حتما رقيب الإعلام الذكي سيطلق سراح هذه العبارة.. لأني لا أقصد شيئًا خطيرًا.. المشكلة هنا فيما يمكن كتابته إن أسكنت الرقيب معي، أو جعلته كبوصلة تهديني، ذلك سأنتزعه حتى لا يبقى له أثر في كل ما ستقرؤونه، كأن هذه الأجواء المزحومة بالغرائب تشدّ على يدي للتعجل في كتابة روايتي، فقط لنستمتع بلحظاتنا أولًا ، ولندع الرواية وكتابتها جانبًا. بت مصيخًا سمعي لها بإنصات تام. ألصقت أذني.. أفتش بين عروقها عن علامة فارقة لفتاة استثنائية «يمكن» استثنائية لي؛ لأنها سعودية لم تر عيني مثل أناقتها ووهجها تتحدث بسفور وبإغراء أنيقين، ربما لأني.. لم أقابل في حياتي إلا عينات من فئة بخيتة وصيتة ونصرة ورجاوي وتفانين وأم سليمان وأم فهيد بعباءاتهن الفضفاضة فلا تعلم هل هن مقبلان أم مدبرات، شيء ما يزحف بتثاقل لا يمكن أن تخمن ما

بداخله، أما تهاني فلها من الوهج ما يهزّ الفؤاد، ويشيع الدفء بالمكان، تخالطه بنسمات عطرها الفواح.

كانت الساعة تميل نحو رخاوة الوقت وتهتزّ عقاربها في رقصات غير رتيبة. نظرنا إلينا بإغراق متبادل فسحبتني من يدي بين الراقصين. تسلّلنا من بينهم إلى غرفة قصية، مبتعدين عن الأنظار، نخاتل لذتنا من قبلات ساخنة واحتضان شرس ليس دونها إلا الجدار. لا مناص فبمثل ما تحقق الجدر الرغبة للسلاطين في سجن الجرائم خلفها، فها هي ذي تحقق لنا رغبتنا في إطلاق سراح لذتنا، ونهرّب عبرها مياهنا الذائبة بلزوجة ساخنة، خامرتني أنفاسها المغموسة برائحة المعسل ورائحة أخرى أجهلها بيد أنها مدوخة، فبادرتني تمسح بلسانها زبد الكلام الجاثي فوق لساني، منحتني جسدها الطري كاملًا وتناولت مني ما تطاله بيديها وفمها حتى أفرغنا ما توارى خلف عروقنا الحامية، تلاشى الوقت ونحن سابحان في عرقنا، ثم طفقنا نلتقط ما تناثر من جسدينا نواريه، بينما رائحتنا تفضحنا. خرجنا باتجاه الصالة فكان أبو بسام واقفًا ينقّب بعينيه الممتقعتين بالسواد خلف نظارته الثقيلة نائيًا عن الراقصين والراقصات تجاهنا، رأيناه يقتنص ملامحنا المنهكة ونحن نخرج للتو بأعين ذابلة، كانت نظراته مريعة استشعرت ما يتوارى خلف هذه النظرات الشائنة. نظرات يعتريها التربص، وعينان مسكونتان بالخبث، كأنه استنشق رائحة عرقنا اللزج، تقدمتني تهاني، مرت قريبًا منه فحفته بابتسامة صفراء باهتة، ما لم أحسب له حسابًا هي

رباب التي اندفعت من مكانها تسحب تهاني من يدها إلى الباحة الخلفية، اختفى الصوت أما الصورة ظلت أمامي غير منقوصة، رأيتهما تتعاتبان، رباب تهزّها من كتفيها وتهاني تشيح عنها بوجهها.. تسحبت حتى حاذيت الباب المفضي إليهما فسمعت صوت رباب الكظيم والعتب الشرس جراء الخيانة التي اقترفَتها بحقها، وهي التي ما فتئت مخلصة لحبهما الذي تعاهدتا عليه. كان الصوت كرصاص حارق يخترق جسدي من هول ما أسمع، فتلمست طريقي للهروب. قبل أن يُقذَف بي خارجًا، فالأعين الحانقة المتربصة تتكاثر من حولي تكاد تحدق بي، تقهقرت إلى الوراء باتجاه الباب الخارجي ملتقطًا خطواتي بخفة، مشيت أخبّ نحو سيارتي التي رصفتها بعيدًا عن سياراتهم الفخمة، فلم يهدأ وجيب قلبي وأنفاسي حتى استويت جالسًا أمام مقود سيارتي .

18

تمرّغت ساعة عدت فوق فراشي باستكانة تامة لنوم مستبد، هل نمت لا أدري؟ تحسست أنامل الشمس تدغدغ أصابع قدمي، مترفّقة بي، كأنها جاءت مرسول غرام من تهاني الغاطسة الآن بين أحضان الطاعن في السن، للإنصاف هو ليس كذلك، بيد أن مشاعرها تجاهه انعكست على روحي فأوحت لي بهرمه.. شعره لا يزال يحتفظ ببقايا سواد لم يخاتله بياض الشيب بعد، آآآخ.. كم كانت دافئة وشهيّة كرغيف ساخن تذوب فوقه قطعة زبدة في فم جائع. لم أخرج من غرفتي ذلك اليوم. جلست خاملًا أقرأ رواية رباب متخليًّا عن متعتي بقراءة ما تبقّى من مذكرات (عشت لأروي) لماركيز، الفصل الأخير منها جمده الفصل الأول من رواية رباب (أنثى من زمن الحرب). كان الخط السردي باهتًا تنتظمه أخلاط من مشاعر وخواطر لا يمتّ بعضها إلى بعض بصلة، أحداث مفككة تشبه الخربشات، أراحتني كثيرًا هذه الخربشات مررت عليها سريعًا فاستوعبت كل ما تروم التعبير عنه، الحبيب الذي تتحارب من أجله ثلاث فتيات كل واحدة لديها أسلحة إغراء كافية كي توقع أي شاب في حبالها. الفكرة في مضمونها رائعة لو استثمرتها في إيجاد صراع

أنثوي من أجل رجل، بيد أن رباب لم توفَّق في إشباع الأحداث بمتخيل واقعي منسوج بإحكام. انتهيت من روايتها وطرحتها جانبًا ثم ألويت على مذكرات ماركيز (عشت لأروي) تحدث فيها عن المقال الأول الذي نشره في صحيفة يومية، ذيّله باسم مستعار توخيًّا للسلامة من حنق القراء، هذا الكاتب العظيم لا يفاخر بمقاله الأول، بل يواربه كتهمة تحسب عليه بينما رباب تنشر رواية كاملة ولا تجد أي غضاضة في أن «تشوح» بها بين أعين الآخرين بكل زهو وافتخار. استطعت ليلة البارحة الإفلات من نزقها، حصّنت نفسي من أسئلتها المفاجئة، حتما في لقائنا التالي ستحضر لي جيدًا وستكيل شحنة من الأسئلة الغبية وستطرحها ببلاهة مفرطة من نوع: هل قرأت الرواية؟ ثم ما رأيك بها، وأي شخصية أعجبتك؟ هاه.. قل لي ما رأيك بلغتها..؟ حبكتها..؟ ثم تسحبني إلى تفاصيل متناهية الدقة ستستأثر بي على الأقل كي تبعدني عن تهاني بعدما عرفت طبيعة علاقتنا الحميمية. كانت عيني على الكتاب والأخرى على جوالي، أنتظر اتصال تهاني حتى طرق الليل أزقة الرياض، فكرت أن أبادر بالاتصال، وفعلت بلا طائل، وعند منتصف الليل، اجتاحتني رغبة عارمة في سماع صوتها، أصبحت بالنسبة لي مثل النوبة المفاجئة لا تنفكّ إلا بمداواتها. بت ملتهبًا بحرارة سخّنت جبيني، وأرعشت يدي لم أقاوم.. تجاهلت وصيتها لي بأن تكون هي من سيتصل متى سنحت ظروفها فلم أطق صبرًا فاقترفت مخالفتي لوصيتها، وكان جوّالها مغلقًا. خمنت أنها

تركته على نظام موجود، كرّرت المحاولة حتى بلغ بي اليأس مبلغه، أغلقت جوالي وتركت جسدي للفراش تمور في رأسي الهواجس، وتعيث به الشكوك حتى تثاقلت أجفاني وأطبقت فوق عيني كحراشف سمكة ميتة.

19

قبيل الظهيرة استيقظت بفتور، أبحث في جوالي عن اتصال أو رسالة اعتذار تكون قد بعثَت بها. التقطت سيارتي محوِّمًا قريبًا من دارها، وفي كل مرة أعود أدراجي مخذولًا، ثلاثة أيام مرّت ثقيلة بثوانيها ودقائقها وساعاتها، قطَّعتها بما أقدر عليه؛ تارة بالقراءة وأخرى بمشاهدة بعض البرامج، أحيانًا كنت أصل الليل بالنهار قارئًا نهمًا، حتى تيبست أصابعي من تقليب صفحات الكتب، لم تكن كافية بتسديد حسابات الوقت الذي غرّمني إياه غياب تهاني المفاجئ. في اليوم الرابع اتصلت كأنها ترمي لي بطوق نجاة كي تخرجني من مأزقي، كنت مختنقًا حتى الموت، صرخت بها أين أنتِ؟ حرام عليك، إلا إذا كنت تعبثين بي.

كانت صامتة،حتى نثرت كل لواعجي، ثم نطقت تخبرني أنها أصبحت تواجه محاصرة تامة من أبي بسام، الذي ألفانا خارجين من عزلتنا اللذيذة بشيء من الحنق والضغينة، لذلك بدأ يدسّ أنفه ككلب بوليسي في أدق التفاصيل من حياتها، ففضلت أن تجنبني مشاكله، فيده طائلة وربما يُلحق بي ضررًا، فهو يبتغي منها أن تسلمه قيادها فيعبث بها كيفما يشاء، حتى يدمرها كما فعل مع أخريات،

وهي لن تترك له الفرصة. سألتها : يعني ماذا أصنع؟ وإلى متى؟ قالت :

ـ انتظر بعد أسبوعين سنكون في القاهرة، ضمن وفد رسمي لحضور فعاليات ثقافية، جهّز حالك للسفر، وسنرتب لذلك بهدوء فلا تتعجل.

الفصل الثاني

نيو لوك

1

ساعة وصلنا كنت قد بسطت في رأسي صورة بانورامية جوّية للقاهرة. كانت بمساحات خضراء يشقّها نهر النيل بفرعيه.. تبدّت من شقّ نافذة الطائرة البيضاوية ساكنة ووديعة تتخللها صفرة شمس الأصيل فتخلق منها لوحة إلهية بديعة. فما إن خطت قدماي عتبات صالة الوصول حتى خنقتني مساربها وأصابني شعث القادمين والمسافرين والمستقبلين والمودّعين بالذهول؛ فقد ارتميت في بحر هائج.. الزعيق المتشظي هنا وهناك.. والوجوه القلقة والأعين التي تعلوها الحسرة والأيدي المرتبكة.. انشطرت زغرودة هزّت أرجاء الصالة تبعتها زغاريد أخر، فتأكد لي أنني فعلًا قد ولجت معمعة مدينة مختلفة أكثر مما يشي به الختم الوحيد الذي علم على جوازي نقي الصفحات.. بدت الأشياء تمور أمام عيني.. تتراءى لي صور غريبة.. النساء السافرات والشعور المتهدلة على الأكتاف، والفتيات بالبناطيل الضيّقة ما أنساني فتاة المطار. يالله، للمرة الأولى أرى امرأة ضابطة برتبة نقيب بسيقان حاسرة وأثداء ممتلئة، تأمر الشرطة «طوال الشوارب» فيأتمرون لها صاغرين، تصرخ في وجوههم فيرتعبون. استمتعت بطابور الجوازات الطويل. كانت أمامي فتاة محشوة ببنطلون جينز أزرق تخيلت أنها لو نزعته لهوى ردفها إلى

الأرض، وأشياء أخرى حتمًا ستشطبها الرقابة لو استطردت في توصيفها.

لدن كاونتر الجوازات اختفى جوازي وجلست أنتظر جانبًا قرابة الساعة. لم أفهم حينها تلميحات الضابط الموقر وهو يقول (احنا بالخدمة يا بيه) ترددت هذه العبارة على أكثر من لسان، حتى يئسوا من غفلتي أو بالأحرى غبائي أو عدم معرفتي بأنظمة البلد أو كلها مجتمعة، الشمس تنحسر عن ساق المدينة كالتنانير المنحسرة عن السيقان البيض، وقبل أن يلج الليل في رحم النهار أعادوا لي جوازي بوجوه مقطبة، وألسن محشوة باللعنات.

خرجت أتمطّى بين الزحام والأيدي تتشبث بي لتقديم خدماتها. عند بوابة الخروج اقتنصني أحدهم حاملًا حقيبتي دون أن أطلب منه. استعمرني صمت واهن وهو يجرّني مرغمًا إلى سيارته البيجو التي تعرّت من الصلاحية منذ أمد بعيد. قذف بالحقيبة فوق السلة العلوية وركبت في المرتبة الخلفية.. إلى أين لا أعلم سألني:

- رايح فين؟

قلت بتلكؤ وحيرة:

- إلى فندق الياسمين.

تلوتُ عليه العنوان من ورقة صغيرة كنت أودعتها جيب بنطالي، وكأنني خبير بوسط البلد تحركت السيارة وعيني لا تبرح الزحام الشديد.. هذا المشهد ومشاهد تالية أعادتني إلى

زحام البطحاء خصوصًا يوم الجمعة، فهناك لا مكان سوى للأجساد المحتدمة والروائح العفنة والأدخنة التي تقطع النفس. عبرنا شارع صلاح سالم، إلى حيث وسط القاهرة، وهو مستمر يلوك الحكايات المرفقة بتعليقات سمجة، إلا أني تركته يثرثر متشاغلًا بقاهرة المعز لدين الله الفاطمي أتأملها من النافذة التي حاولت إغلاقها، بلا طائل لتحجر عروتها. كانت الروائح الغريبة والأدخنة التي تغلّف الأفق تخربش رئتي الهشة، وأيدي الباعة والمتسولين وموزعي بطاقات الإعلانات تقتحمني.

خفّف من وطأة هذا الاستقبال الشعث روعة التاريخ الجاثم على المدينة، حتى الوجوه كانت تجترّ التاريخ، وأي شيء محدث لا يعدو مسحة طفيفة لا تواري جراحات الزمن الضارب في عمقها. . قلت في نفسي (يا الله وش اللي جابني). دشّن بداية ثرثرته بحمد الله وسلامة الوصول مثل افتتاحية خطبة، ثم ألحقه بسؤالي عن بلدي. فرح كثيرًا عندما أخبرته فراح يعدّد أقاربه العاملين في السعودية وظروفهم ثم عرج على قضيته المعلقة، الفيزا التي طال انتظاره لها، ومنها فتح بوابة معاناته المادية والفقر المستشري في البلد. ووووو... الخ، وأنا لا أمنحه سوى كلمات مقتضبة بيد أنها تنسكب في أذنيه كالنار في الهشيم، ليبني عليها صروحًا من الحكايات والتعليقات المملة، فقررت أن أوصد فمي حتى ينفتح باب السيارة وأخرج منها سالمًا. لم يملّ أو يكلّ من شروحاته المطولة عن مدينته القاهرة، وكأنه العارف بأدق تفاصيل الأشياء لمجرد معرفته أن هذه زيارتي الأولى

للقاهرة. وبين الفينة والأخرى يقدم عروضه السخية بلا تحفظ، وهو يجوب بسيارته البيجو الشبيهة بسلحفاة سوداء بأقدام أرنب مشاكس طرقات المدينة المصطكة بأكوام السيارات. . أراها من النافذة وكأننا داخل مستودع (تشليح) مكتظ بالسيارات القديمة، حتى مباني وسط البلد التي قلبت بصري بتفاصيلها تشي بالتاريخ المهمل، بدت ملطخة «بالهباب» الأسود ومع ذلك لم تتوار اللمحات الجمالية العريقة. القاهرة رغم التاريخ الضارب الجذور في أعماقها تلقائية في كل شيء. تسامقت واجهات المدينة، فكلما غاصت بنا السيارة عمقها شحبت معالمها وبدت هالة السواد تلبس الأبنية الضخمة، والوجوه المتعرقة تملأ تجاويف الطرقات في ثكنات يسمونها أكشاك.. في طريقنا إلى الفندق الصغير القابع في شارع متفرّع من جامعة الدول العربية تناثرت الأيدي من نافذة السيارة لباعة (مناديل، ورود) وموزعي بروشورات (مطاعم، عقارات، محلات ملابس، كافيهات) أغلقت النافذة بصعوبة وجلست مطأطئ الرأس والسائق لا يكلّ، يقدم عروضه السخية تلميحًا ثم تصريحًا.. تزداد نبرة التصريح كلما اقتربنا من الفندق، فلم أعره اهتمامًا يليق بلسانه المندلق بما يشبه التسول مع الأوصاف المهيبة التي يسبغها علي بكرم منقطع النظير ولساني يعجز عن اقتناء الكلمات المناسبة ناهيك عن التقاطها، ومع ذلك استمر يلهج بكل ما يسعه لسانه، حتى نكاته السمجة لم يعفني منها، كلها مقولبة على مقاس دائرة سهامه التي يقذف به نحوي بلا حياء. هذه صفة أولى لتلقائية المدينة التي أفضت على أهلها بجزء من سماحتها

لحد الهوس بالغرباء وما في حوزتهم. فهل هو طمع الحاجة أم توخي العيش الرخي؟ تذكرت بعض الأمثال المصرية مثل (فتح عينك تاكل ملبن) و(اديها مية تديك طراوة) و(اللي تغلبه العبه) و(الرزق يحب الخفيّة).

هذه الأخيرة «الخفة» أبرز صفات هذا الشعب، الذي يحقنك بكل لحظاته بلا مواربة. وإن ساقك إلى أبعد من تحفظاتك. في البدء أثقلتني شفافية السائق، وأثقلني أكثر لساني الذي لا يُحسن صياغة عبارة مفهومة، فطفقت ألملم شتات أحاديثه منذ أن ركبت وحتى شارفت على وصول محطتي الأخيرة. لم يصمت فتركته يهذر وتشاغلت بما سأستقبله من أيام. فأنا لم أقدم لهذه المدينة للفرجة. كنت محمولًا بغواية أنثى تزاحمني لهفتي إليها، أوقدت في رأسي سعير التطلع.. متى سأراها؟ وكيف؟ ما أراحني أكثر الفتيات القاهريات وهن يعقدن أيديهن بأذرع الشباب، وشلالات الأجسام التي تفقد بينها السحنات، فلا بصمات تسقط سهوًا هنا. كلها تلوكها الأرصفة، فلن تطاردنا هيئات الأمر بالمعروف، ولن يدوِّن ضدنا محضر خلوة غير شرعية، ولن نُقاد إلى غياهب السجون عنوة، ولن نُفصل من أعمالنا وتدور حولنا وشايات الفضائح.. حتمًا هذه المدينة المكان الأمثل لكل العلاقات التي لا تحمل هوية ما. اطمأنت نفسي كثيرًا واستراح خاطري. كل ما أبتغيه في هذه المدينة أن أحظى بمقابلة تهاني أو حبيبتي تهاني، لا أفهم تمامًا عمق العلاقة القلبية التي تجمعني بها، استشعاري القلبي يهتزّ على إيقاع جسدها، فكلما منحتني لذته نطق لساني بعبارات الحب والعشق والهيام، وعندما تتركني ألملم أوصالي المبعثرة لا

تعد كذلك.. في القاهرة تواعدنا على الذوبان، قالت: أريدك أن تعاركني كأسد.. تكشف لي قوتك. فمي مليء بالصراخ المكبوت، كل شياطين الشهوة تسكنني، انفض جسدي والعنهم حتى تطهرني منهم. اسكني أنت لا غيرك.. لم أتجرد لشاب قوي مفتول العضلات يومًا إلا لك، ولن أعود إلا ملتبسة بك.

هذا وحده ما سحبني من أنفي مرغمًا إلى مدينة الضجيج والسفور.. كم هي رشيقة وانسيابية هذه المفردة.. السفور.. سافرت إلى قاهرة المعز؛ لأنها سافرة بلا براقع أو حُجب تستر حقيقتها.. جمالها وقبحها.. تعاقر الجميع.. تضحك منهم ولهم وعليهم.. تراقصهم.. وحتى الصخب تصخَب وتصخِب حياتهم.. أي مدينة تمنحك كل هذا تنزع عن وجهك كل الأقنعة المزيفة.

توسّطنا شارع جامعة الدول العربية فبدا مختلفًا ممتعًا للنظر؛ وبين زحام السيارات واكتظاظ الأجساد سدّت أمامي منافذ الفرجة الكاملة، تلافتيها منهمكًا بقراءة لوحات النيون حتى وقعت عيني على مطعم مندي فاستبشرت خيرًا، ولحسن حظي كان قريبًا من الفندق.. فندق الياسمين في شارع متفرّع من جامعة الدول العربية سأصل إليه سيرًا على الأقدام، وبالرغم من كل ترهات هذا الرجل وتفاهاته فهو يستحق مقابل عناء هذه المعركة الضروس التي خاضها بسيارته المتهالكة ببسالة حتى وصلنا بسلام مبلغًا محرزًا، فأخرجت ورقة من فئة المئة جنيه وناولتها السائق فاستطار فرحًا والتهب لسانه بالكلام. توقف أمام بوابة الفندق فهبط يعينني على

إنزال حقيبتي مصرًّا على إيصالها بنفسه، وهو لا يزال ممطرًا بالكلام يقدم خدماته علّه يظفر بهذا السخاء؛ فماذا لو قلت له: يا سيدي أنا سائق أجرة مثلك؟.. ليتني أخبرته.

2

في الفندق الصغير والأنيق من الداخل مللت الانتظار، هي تعرف موعد وصولي، حسبتها ستصبحني في اليوم التالي، أو تمسيني، خصوصًا أنها هيّأت لي الحجز في هذا الفندق. كل ما فهمته منها أنها ستفرغ لي حالما يسافر زوجها إلى لندن لإجراء فحوصات طبية، وستبقى بمعية رباب. كان اختيارها لهذا الفندق تحديدًا لعدة اعتبارات أهمها: ابتعاده عن أنظار السياح السعوديين، فكل سكانه من أقطار عربية مختلفة، لم أر من بينهم من يوحي بسعوديته وصاحبته سيدة يونانية الأصل قاهرية النشأة، أخلاقها دمثة، تحمل ابتسامة لا تفارق وجهها. على ناصية الفندق الأمامية اصطفت مقاعد خوص، وطاولات صغيرة تكتظ مساء برواد عابرين ومقيمين، رأيت منهم فنانين معروفين من سكان هذا الحي يتخذون لهم زاوية تبعدهم قليلًا عن ضوضاء الشارع، وتقيهم اقتحام المتطفلين. اكتشفت أنها قهوة لا تقدّم خدماتها إلا ليلًا من مشروبات ساخنة وباردة ومعسل، تجلب لهم عبر سرداب ضيق يفضي إلى غرفة الإعداد والتجهيز، وهذا تحديدًا ما أراحني على الرغم من الملل الذي يساورني والانتظار. مر يوم دون فائدة، جوالها مغلق، أرسلت رسالتين وثالثة ورابعة، ثم قررت أن أستثمر الوقت وأنطلق في نزهة

استكشافية أريّض بها قدميّ المتخشبتين من مداومة القعود. في الصباح الباكر خرجت. تناولت إفطاري في المطعم اليوناني الصغير المقابل للفندق ومنه أخذت طريقي إلى المتاحف والأماكن التاريخية، وقبيل العصر عدت منهكًا، وتناولت غدائي في مطعم الحضرمي للمندي. ست ساعات طوفت بها ما بين المتحف والكنيسة المعلقة وجامع عمرو بن العاص المتاخم لها ثم إلى قلعة محمد علي. هذه الجولة تقريبًا كافية حقّقت لي ما كنت أصبو إليه من تسلية مزّقت جزءًا من أوراق الوقت الذي كان يراهنني على لقاء المنتظرة. لم أفكر بتاتًا بزيارة الأهرامات، لم تكن تعني لي هذه الأعجوبة التاريخية شيئًا. تبدت لي هذه الأعجوبة في سحنات وجوه المصريين الكادحين، الذين يمضغون الحصرم بتجلد، ومع ذلك أفواههم معبّأة بالضحك. بلد يغصّ بالبشر المكابدين لشظف العيش، ومع ذلك يبتسمون لكل الغرباء وأيديهم ممتدة باحتضان حميم. قد أكون انتهيت من رحلة الاكتشاف، لم يبق لي سوى المقهى الذي أشارت علي تهاني بزيارته، قالت عنه: إنه مهوى أفئدة المثقفين والمبدعين، توخيت العثور عليه هناك، فعدت بخيبة كبيرة، فالقاهرة تعجّ بالمقاهي، وكل المرتادين مثقفون يتحدثون بالسياسة ويتبادلون النكات السياسية الساخرة، ويقرأون جريدة الأهرام على كركرة ماء «القوزة» الاسم وحده المنقذ لي من هذا الضلال، حتى اسمه تبخّر من رأسي هنا بدوت وكأني أفتش عن إبرة في كومة قش، سريعًا شرعت بتقليب صفحات الأسماء في ذاكرتي الفذة، فعثرت على كلمة ربما تفيدني في صياغة سؤالي. بشيء من الوجل سألت موظف استقبال

الفندق فصحّح لي وأخبرني أنه يقع في شارع طلعت حرب تحديدًا في زقاق متفرع عنه.

في المساء التقطت أقرب سيارة «تكسي» عابرة.معذرة فأنا أستخدم مفردة التكسي لأنها تشي بمعان كثيرة، من أهمها أنك الزبون العربي «السقع» الذي تخضع له أعناق كل تاكسيات المدينة. ركبت في المرتبة الخلفية طالبًا منه الاتجاه فورًا إلى طلعت حرب. أطلق لسيارته العنان تجرش بصوت يصمّ الآذان. . المدينة في هذا الوقت تستعد للسهر، من السحنات التي أفرزها الليل تعلوها السكينة ويسبغها الوقار.. القاهرة تسلخ عن جسدها سغب النهار لتبدو كأم تربّت على أبنائها المكدودين. التقمتنا الشوارع الضيقة المصطكة بالأجساد وعلى ناصية دوار صغير، توقفت السيارة، ودونما أدنى كلمة أعطيته أجرته، ومضيت أقتحم الفراغات باتجاه مكتبة مدبولي القابعة في ركن من ميدان طلعت حرب ولجت مدخلها الصغير. المكتبة لا توحي بسمعتها العالمية، ومن بين ممراتها الضيقة حشرت جسدي محاذرًا الارتطام بكتب رُصّت على الأرض بعناية. اقتنيت كتابًا، أقصد رواية لماركيز بعنوان (ذاكرة غانياتي الحزينات) والبائع من خلفي لا يتركني مصرًّا على خدمتي يبرز أمام عيني كتب السياسة والجنس والفضائح، وكأنه يقدم لي كشفًا جديدًا يستحق (الـ واااااو) الكبيرة، ثم بدأ يستحثني للصعود إلى الدور العلوي، فهناك ما هو أهم، وكأننا أيها السعوديون لا ندخل المكتبات إلا بحثًا عن الممنوع المرغوب، لذلك كان أول ما ابتدرني بالروايات السعودية الفضائحية، ثم كتب السياسة عن السعودية، ثم كتب الجنس، حتى عيل صبره وفقد حيلته

وذهبت محاولاته أدراج الرياح في استمالتي وانتزاعي من صمتي المطبق، ذكّرني المسكين ببائعي الحمام والشروخ في سوق المعيقلية فهو لا يختلف عن بخيتة اللهم إلا في نوع البضاعة؛ فهو يتوخى أن يبيعني كتابًا بمنطق تاجر ماهر، وأنا أبتغي اقتناء كتاب يستحق القراءة، إذن المعادلة تقول: ثمة كتاب تشتريه وآخر تقتنيه، الفرق بينهما أن الكتاب الذي تشتريه مثل أي بضاعة يُعلن عنها في أي قناة تافهة، والكتاب الذي تقتنيه هو الكتاب الذي لا تسمع عنه إلا من مثقف جاد. وحتى أتخلص من «زنّه» المستميت ناولته قيمة الكتاب القيم وعينه تفيض بالحسرة على ما فرط من وقت معي لأخرج فقط بكتاب يتيم. قبل أن أضع قدمي على الرصيف سألته عن مقهى الجوريون فأشار بسبابته بشيء من الحنق ودونما أن ينبس ببنت شفة نحو الشارع المقابل.

3

خرجت أشقّ طريقي بين زحام الأرصفة المنهكة تحت الأقدام. في طريقي سألت أحدهم فقادني إليه. تدحرجت في ممر ضيق أفضى بي إلى باحة واسعة تذكرني بصالات الأعراس القديمة. (هذا هو الجوريون) بفرحة مقتضبة رددت في دخيلة نفسي. التمست الطريق لأقرب طاولة وسط الفناء المعبأ بالدخان ورائحة المعسل. أقلّب بصري في من حولي فوقعت عيني أو بالأحرى اصطادتني ملامح الرجل الجالس أمامي بلحيته الكثّة الممسوسة بالشيب ووجه الذي لوّحته الشمس فاستحال كرغيف محمص، مع خلوه من التجاعيد، مما أكّد لي أنه من أبناء الجزيرة، ومن الطاقية التي ينشبها في رأسه خمّنت أنه يمني، ما لفتني وحرك فضولي أكثر، الدائرة السوداء المتقشرة فوق جبهته، وهذا المعسل الذي لا يبرح شفتيه يمتصه بعدائية مفرطة وكأنه بدخانه يبتغي طرد أشباح تثقل رئتيه. ليس هذا مربط الفرس فكم من متدين يتعاطى المعسل أو الجراك بشيء من الاعتيادية، ولا يرى تعارضه مع كونه مؤمنًا لحد المجاهرة بها أحيانًا. ما أثار استغرابي زجاجة عملاقة كُتب على قرطاستها الصفراء «ستيلا» وضعها النادل توًا على طاولته، فبادرها كمن يلتقط غنيمة سكبها باردة في الكاس وقبل تبخر زبدها، تجرعها

وكأني أسمع قرقرتها في حلقه. ثم هزّ يده بما تبقّى من الكأس بما يعني (بصحتك) وكأنه ينبهني لسوء ما أقترفه بحقه واقتحامي خلوته.. هززت رأسي بمعنى (صحتين على قلبك) فنطق:

- تفضل يالحبيب.

- شكرًا.. شكرًا جزيلًا (قلتها بصوت خفيت).

- إذا ما جزمت عليَّ أجزم عليك.

حمل كأسه الذي غمره ببقايا البيرة وجاء ليكشف بقايا جسده المحشور ببنطلون شيال قصير وتي شيرت أصفر كتب على صدره باللون الأحمر (touch my heart) لم يوارها البالطو الثقيل الذي يبرز قصره. جلس أمامي وفمه يفوح برائحة البيرة وأشياء أخرى كريهة. سريعًا وقبل أن يستوي جالسًا عرّفني بنفسه قائلًا:

- حمد وإن شئت فقل الشيخ حمد (ثم ضحك).. وأنا فعلًا شيخ، هنا شيخ المزاج وهناك شيخ (ثم سكت برهة وأتبع) المزاج أيضًا (قالها وضحك بصوت أعلى) شوف ياخوي.. هناك الواحد مثل الحمار، لا لا الحمار أحسن ليش..؟

تجلدت بسكينتي أستمع متأرجحًا بين الحرج والضحك، تركته يواصل اعترافاته على رصيف مجهول من العمر. قال:

- الحمار يَكد ويُكَد عليه واحنا نكد بس، كل همنا جمع الدراهم وبعدين؟.. بس هنا.. لا تسوي اللي أنت تبي..

الدراهم لها قيمة تبي تصلي صل تبي تسكر اسكر.. يعني أنت مخيّر لا مسيّر.. شفت الفرق؟

فكرت متأملًا ماذا لو كان في صحوه هل سيوغل في أعماقه، ليستخرج أصدافه الثمينة ويعبر بمثل ما عبر به مما يجيش في صدره؟ صدقًا.. أشك.

قدم أمامي شهادة عفوية عما يؤمن به.. ولم يتحلحل لسانه ويبوح به إلا بعدما أزاح مزاليج المحظور بهذه الزجاجات الخضر. رغى بكلام كثير لا يسعني حصره.. ما لفتني منه حالما وقعت عينه على مذكرات ماركيز (عشت لأروي) قدرته الفائقة على استحضار تفاصيل كثير من روايات ماركيز مستطردًا بسرد أحداث رواية ذاكرة غانياتي الحزينات بمجرد أن رأى العنوان كشف لي ذائقته القرائية خصوصًا الروايات العالمية وبالذات المحظور منها، ولديه في مكتبته المصفدة بالأغلال أكثرها، فما أن يسمع بصدور رواية ممنوعة حتى يبحث عن منافذ التوزيع، وقد استدل مثلي على هذا المكان من خلال المواقع «النتنة»، وتعرف على عدد لا يُستهان به من الكتاب والمثقفين العرب، وتربطه بهم علاقات وطيدة، ويعرف بينهم بفقيه المنحرفين أو شيخ الفساق «قالها بتلذذ». هذا ما شدّ من عزيمتي أكثر لمواصلة التعبئة النفسية والذهنية لكتابة رواية، ولكن ما سرّ تعلقه برواية غانياتي الحزينات؟ أخبرني قائلًا: هذه الرواية تصفني جدًا فأنا قريب جدًا من التقاعد ومع ذلك فقلبي لا يزال طريًّا ومتعلقًا بالغانيات الصغيرات.. أبحث عنهن وأدفع لأجلهن ما يرقّق قلوبهن تجاهي.

تحدث ساعة كاملة حتى بدأت الخطوات تدبّ في المكان، توافد الرجال والنساء يسحبون وراءهم الكراسي والطاولات الصغيرة كي يوسعوا دائرة الجلسة التفوا حولنا كالنمل على وجبة دسمة. صار الشيخ حمد يخفق بفرح كذكر بط مرحبًا ومعاتبًا، وسائلًا وطالبًا، وكلام كثير فحواه أنه سيد الطاولات المستديرة. كانت أحاديثهم تشي برغبة عارمة في الثرثرة، بمن فيهم صاحبنا والآخرون من مختلف أصقاع العالم العربي. كنت بينهم أختلج بفرحة تؤرجحها لهفة انتظار وترقب لتهاني التي ستخفق بكعبها العالي قريبًا منا.. وربما ستنضم إلى طاولتنا، أقصد طاولة «فقيه المنحرفين» هذه اللحظة اكتشفت أن المدينة الضاجة بكل المتناقضات قادرة أيضًا على ملء أفواه الناس بالثرثرة.. القاهرة لا تواري حتى عوراتها، ربما هي واثقة تمامًا بقيمها وتاريخها لذلك هي كالأم الرؤوم تفيض على أبنائها بكل ما يعتمل في صدرها وتأخذهم بين جوانحها بلا تمييز، حقًا (أم الدنيا). متأكد تمامًا أن هؤلاء المحتدمين بنقاشات متقاطعة لا رابط بينها سوى الحكي المجاني تتخشب ألسنتهم في بلادهم وتخضع لمعايير اجتماعية ووظيفية صارمة، ربما تتحرك للأكل أكثر منه للكلام.. وفي النهاية وعند الساعة الثانية رفع الجميع جذوعهم الخاوية برؤوس معبّأة بالكحول، نفضوا عن سيقانهم رخاوتها، تعانقت الأيدي، وتداعت الوجوه للقبل استعدادًا للفراق، وصاحبنا الشيخ حمد يتسوّلهم بأن يكملوا جلستهم في شقته القريبة من هنا، جيء بالفاتورة فلم تمتد إليها الأيدي المتعانقة، فقط يد الشيخ حمد استطالت فجأة متخلّلة الأجساد المنتصبة حتى خلتها وصلت مسافة أمتار

لتسحب الفاتورة من يد الجرسون، ودفعها دون أن يتحرك له جفن. آسيت لحاله وصدري يعلو ويهبط حنقًا على هؤلاء الذين لم يكلفوا أنفسهم حتى عبارة مجاملة. . تنحيت جانبًا ثم أخذت طريقي متسللًا تحت غيمة كثيفة من الدخان، وعلى حين غفلة من الجميع تواريت. فاقدًا الأمل في العثور على تهاني.. كاد يتعثر لساني بسؤال الشيخ حمد عنها، فهذا اللفيف من الأصدقاء المنحدرين من كل جهات العالم العربي يشي حقيقة بأنه ذو علاقات واسعة. تركت قدمي لأرصفة طلعت حرب، أستبدل ببقايا الأدخنة العابثة في رئتي هواء ليل القاهرة الآيل للاسترخاء، وعلى مبعدة من المقهى، وقفت على زاوية التقاطع العام باحثًا عن أقرب سيارة أجرة. سمعت صوتًا يطاردني من عقب نافذة سيارة تمرّ بمحاذاتي فألفيته الشيخ حمد بصحبة اثنين من رفقاء السهرة، يأمرني بمرافقتهم. علا صوته بإلحاح فسارعت ملتقطًا عروة الباب أفتحه وألتصق بالرجلين اللذين ذكراني بركاب (الريحة) الذين أقلّهم في مشاوير الصباح والمساء، فهذان البطينان عصراني بينهما، وخنقاني برائحتهما الكريهة.. ينزّ منهما عرق مركب من ثوم وكحول. كم وددت لو همست في أذنه بأن يحاذر قليلًا عند حديثه عن سياسة بلادنا. . أدرك أنه يفضفض بما يعجز عنه لسانه هناك، إلا أن هؤلاء الرفقاء تبخّ ألسنتهم سمًّا زعافًا مخلوطًا بضغينة ومقت قديم، لم ينسهم الزمن إياه، تمنيت أيضًا لو نصحته بالكف عن تبذير الأموال على هؤلاء المرتزقة.

4

شقة واسعة في الدور الثاني عشر في عمارة تطلّ بلكونتها على علمين رئيسيين في القاهرة: النيل والأهرامات، بثلاث صالات مرتّبة بعناية مصبوغة بألوان مختلفة، جدرانها مطلية بالأصفر وكنبات وثيرة بلون الشوكولاته القاتمة على شكل حرف (U) عُلقت على الجدار المقابل شاشة مسطحة، ثمة ثلاث أباجورات قائمة موّزعة بين الأركان وصالة أخرى مجاورة بجلسة عربية بلون تيركوازي في ركنها الأيمن استريو كبير بسماعات أكبر وضعت فوق رفوف للدولاب الخشبي، الذي رُصفت فوقه أنواع من القوارير بأحجام وألوان مختلفة. الصالة المجاورة لها خُصصت للطعام مجهّزة بسفرة خشبية مدهونة بالورنيش البني تميزها أرجلها الكبيرة المشغولة بمنحوتات على شكل دببة صغيرة، هذه الشقة لم تُعد للسكنى الدائمة، فكل محتوياتها تحرّض على المتعة، استشعرنا دفئها وحميميتها فخلعنا ما يثقل كواهلنا من ملابس إضافية، وجلسنا متحررين نمطّ أقدامنا إلى الأمام. برزت إلينا فتاتان ممتلئتا الأرداف نافرتا الأثداء، تتورد وجناتهما بحمرة تغشاها أريحية مفرطة، تضعان القدور والصحون فوق الطاولة ومن خلفهما أم عصام الشغالة، التي قدمت إلينا تزف بين يديها صحنًا عامرًا

بالمكسرات، ثم ألوت إلى الدولاب الصغير أسفل الشاشة التلفزيونية المسطحة واستلت منه قارورتين، الأولى ويسكي والثانية لا أعرفها، أسكنتهما فوق الطاولة ولسانها لا يجفّ من الترحيب، ونصيحة سريعة بأن لا نكثر من الشراب فما تنتظرنا وجبة شهية أعدّتها بنفسها، وكأنها على علم مسبق بضيوف الليل. عاد الشيخ حمد الذي لبس قميصًا قصيرًا وخلع عن رأسه طاقيته لتبدو صلعته السمراء تبرق بلمعة السبوت المعلق على الركن خلفنا.. بشيء من الزهو حدثنا عن هذه الشقة التي ابتاعها قبل عشرين سنة بأربعين ألف جنيه وهي تساوي الآن أكثر من ذلك بكثير، ثم دعانا لتناول عشاء أم عصام الفاخر، بزهو يتفجر من وجهه، أرز ولحم مشوي وسلطات منوعة وصوانٍ مختلفة أعجبني منها الحمام. جلسنا وجلست بجواره الفتاتان وهن تقرّبان لنا الصواني وكأنهما صاحبتا البيت، لم نسأله عنهما، هو بنفسه قدمهن لنا بلذة متناهية ونحن نقلب أبصارنا بلذتي الأكل والفتاتين.. علق الجالس أمامي الذي عرفت أنه من أصول شامية، ويعمل في التجارة ولديه شبكة من محلات بيع الملابس النسائية. قال: الزوجة الأولى ضرورة والأخريات متعة. عقب العشاء الفاخر حضرت رؤوس المعسل، وبدأت قرقعة مياهها مع أحاديثهم وكأنهم يديرون الأسطوانة المشروخة نفسها، لماذا نحمل أكثر من وجه لنصبح منافقين بامتياز؟ لماذا تُدار السلطة في حلقة مقفلة على أناس محدّدين؟ لماذا نحن مستعمرون؟ واقتصاد الخليج العربي يُدار من الخارج. وأسئلة أخرى صدعت رأسي فلم أجد بدًّا من الرحيل بكرامة، فليس لدي ما يشفي غليل هذه الأسئلة المحبطة، فرحلت أجرّ خطواتي

إلى حيث فندقي الصغير بانتظار اتصال تهاني الذي لم يحن أوانه بعد وأمسى مقامي مملًا، وفكرة العودة تراودني. هي قالت: اترك جوالك مفتوحًا، سأتصل بك فور تملصي من التزاماتي، فهل ستتصل؟ هذا السؤال الذي أنتظر إجابته بحق.

5

صيرتني قاهرة المعز لدين الله كائنًا ليليًا بامتياز أصل ليلي مع بواكير صباحي. جئت إليها مسحوبًا بغواية أنثى أذاقتني أولى ملذاتها، وهي التي رصفت لي طريق الغواية حتى انتهيت إلى فندق الياسمين في أحد متفرعات شارع جامعة الدول العربية بأجرة قدرها ثمانون دولارًا، خلال إقامتي لم أبذل من المال سوى أجرة الفندق وأجرة التاكسي وثمن وجبة عشاء خفيفة، أتناولها ببطء «أحبسها» بكأس شاي كشري، لم يعد الوقت يمنحني صفائي ويحقّق لي متعتي. كنت أجوب القاهرة باستكناه كامل للحياة المكتنزة داخلها، فهي المدينة المدثرة بعباءة التاريخ، هذا عرفته، وهي المدينة التي ترقص بجنون هذا رأيته، والمدينة التي تزخر بالمواعظ وهذا أيضًا سمعته. لم يعد لبقائي طائلٌ سوى اللقاء الموعود بتهاني. عند الساعة السابعة مساء وردني اتصال من رقم محلي مجهول، انبعث منه صوت أنثى كسر حدة لهفتي لم يكن صوت تهاني قبل فرزه، سبقتني قائلة:

ـ أنا رباب.. عرفتني..؟

ـ يا الله.. أنا أتيت من أجل تهاني.. وليس رباب.

أخبرتني أنها مبعوثة ؛أي مرسولة حب، وحالما تنتهي تهاني من بعض التزاماتها ستتسرب إلينا خلسة. هذه

الكلمات المقتضبة أعادت إلى روحي المنتزعة منذ صباح اليوم الثامن. لقد مسح عن نفسي كل الأغبرة العالقة، يوم أمس هممت بحمل حقيبتي وأدون اسمي في قائمة الانتظار ثم أقعي في صالة المغادرة حتى يتسنى لي الفوز بمقعد. لقد بلغ بي «الزهق» مبلغه والميزانية المقرّرة لهذه الرحلة أوشكت على النفاد.. بحدود الساعة السابعة تقريبًا اتصلت رباب تستحثني على سرعة المجيء؛ فهي جالسة تنتظرني في مقهى اللوكيشن القريب مني، كنت حينها أقطع المسافة نحوها بكل ما تسعني به قدماي.. الطريق يذوب أمامي ويتمدد، اللعنة.. حتى الطرقات تعاندني، تبتغي اقتصاص حصتها من أعصابي. أخيرًا وصلت بلهاث متقطع، فورًا أطلقت عيني المتفحصة تجوس فقط وجوه النساء، ألفيتها جالسة تتوسط المكان تجرّ مبسم المعسل، مدّت يدها تصافحني وطبعت قبلة استشعرت سخونتها.. تخيّلت هذه القبلة تختطف في مكان عام في الرياض.. حتمًا سنطوق بما عملنا وتلهب جلودنا بسياط كاوية تترك علاماتها على أرواحنا قبل ظهورنا..تلك أول مرة أستشعر فيها انفرادي بأنثى على المكشوف، بلا نوايا مبيتة، تحدثنا بتلقائية، حدثتني عن طبيعة علاقتها بتهاني. كانت بمثابة الرفيق الدائم لها في حلّها وترحالها، فتهاني لها أفضال كثيرة عليها بدءًا من إقحامها فضاء الأدب وانتهاءً بطباعة روايتيها، حتى دنت قريبًا من سدنة الثقافة والأدب، وأصبحت تستعين بهم مخفّفة العبء عن كاهل تهاني، فلا تفوت مناسبة سواء كانت داخلية أو خارجية إلا وتشارك فيها، ثم انتقلت بدفة الحديث عن طبيعة علاقتهما السرية وما أشيع عنهما في بعض الأوساط الأدبية من أنهما مثليتان، فلم

تأبها لكل ما يتردد وتقابلان ذلك بالتهكم والتشبث. لا أدري حقيقة لماذا تفتح لي مظاريف أسرارها، حتى وهي تخبرني بفحوى علاقة خاصة جدًّا. كدت أن أستحلفها أنهما ليستا مثليتين، فقبضت على لساني قبل انزلاقه، كي لا يفتح لي فوهة يصعب علي ردمها، تخيلتني ذكرًا بين أنثيين، طرقت رأسي هواجس كثيرة، وران الوجوم على وجهي؛ فقد آليت على نفسي ألَّا أكون مرتهنًا إلا لتهاني، هذه الأنثى الكاملة في كل شيء تكفيني، لا يهمني من أمرها سوى ما تمنحني إياه من متعة وتشحنني به من رغبة، ألوذ بنفسي أنبش في كل ما تفوه به رباب. المختبر الداخلي لا يتركني لثرثرتها، أصمت قليلًا فتكافحه بما تستطيع من ثرثرة ببعض النكات الماجنة التي تتلقاها ساخنة عبر جوالها، المهم ألا أسكت، وحتى تفكك ما ران على وجهي من تشتت استلت ثلاث روايات من حقيبتها اقتنتها من بائع الرصيف المقابل للوكيشن. بسطتها أمامي بفرح اتخذتها وسيلة لاستفزاز لساني البليد، كي تحثو أمامي ثرثرتها اللامتناهية، وبواسطتها ستقحمني فوضى إبداعها، الحديث الفج عن إبداعها يورّطني، وكأنها توقعني في حفرة دبقة، فسبقتها إلى ذلك، بشيء من التوطئة والتمليح، سكبت كل ما وددت قوله حول روايتها مبيِّنًا لها عيوبها ومواقع الجمال القليلة جدًا، خضعت تحت وطأة النقد الذي لو شاركنا أحد في سماعه لأضجرها وربما أسخطها، ولربما فرّت ولم تعقب. كنت أمامها كمن يتلو سفرًا مقدسًا وهي منكمشة في مكانها تسحب دخان المعسل المنطفئ حتى انتهيت، ولكي تخرج من ورطة النقد الذي لوّن وجهها وأوردها ما لا تحمد عقباه سألتني قائلة:

ـ علمت من تهاني أنك تكدح ليل نهار في سيارة ونيت، فكيف تجد الوقت للقراءة؟

وقطعًا للوقت الذي طال دون بلوج وجه تهاني الخمري كشفت لها عن طريقتي الخاصة في القراءة، فليس كل كتاب يُقرأ بتمعن كامل، فثمة كتب يكفينا منها القراءة السريعة لكثرة ما تحتويه من غثٍّ لا يستحق التوقف عنده، هذه الأحاديث المتشعبة أرخت مفاصلنا قليلًا بما أشاع الدفء بيننا، حتى اتصال تهاني المتأخر الذي تعتذر فيه عن المجيء لم يحرّك سكوننا كثيرًا. ما دفعني للسؤال بشيء من المواربة عن بداياتها الكتابية، فانتهضت تسوّي من جلستها وتستدعي النادل كي يوقد حجر المعسل. كي تحرّض همتها على البوح قليلًا بالمكاشفة. يبدو أن رأي الناقد نكأ جراحها وأثار شجونها، فساقها نحو هذا المنعطف إلى أحاديث وعرة. هذه المكاشفة مناسبة جدًا لتضمينها الرواية التي عنونتها سلفًا بـ (خارج إطار المكان).

من سيرة البطل الأول
تكتب الوهم على أوراق الأسى

لم تكتب رباب يومًا ما شيئًا ذا قيمة، فكل ما كانت تقوم به خربشات ترسلها للصحيفة ولا تُنشر. تعرفت بطريق الصدفة وأثناء تجوالها الليلي بين تحويلات المحررين الهاتفية لمعرفة مآل خاطرتها التي بعثت بها عبر البريد على أحد المحررين. كان الوقت فاترًا بقدر كاف لتدشين مغامرة صغيرة. الصحفي الغضّ بعروق شباب يتلمظ لصوت فتاة رخيم. وكي يحكم وثاقها تمهلها قليلًا كي يبحث عن خاطرتها بين أكوام البريد اليومي ولم ينس بخبرة صياد ماهر أن يملي عليها رقم جواله. وبواسطة هذا الرقم نشرت الخاطرة معدلة كليًّا. في البدء احتجّت وأربد وجهها على هذا التدخل السافر. لم تقتنع بتواضعها الكتابي حتى كاشفها بذلك الشاب الظريف الذي التقط تصويبات المحرر الثقافي المصري (ممدوح) وأرسلها لها بواسطة إيميلها؛ مكتشفة البون الشاسع وأن خاطرتها قد كُتبت من جديد، وعند هذه النقطة الحاسمة تعمّقت علاقة الشاب بها فكان يكفيه منها مقابلة عابرة في (كوفي شوب) واتصال ليلي طويل يريقان خلاله مياههما الساخنة؛ بيد أن المحرر المصري انتابته حالة تذمر خصوصًا لما علم بالعلاقة الناشئة على خلفية كتاباته

للفتاة، فامتنع عنها وأحجم عن مجرد النظر في خربشاتها. توصلا في النهاية إلى حلّ يرضي الأطراف الثلاثة: بأن يتقاضى ممدوح أجرًا مقطوعًا على ما يكتبه لها. ساروا على هذا النحو تقريبًا شهرين حتى تقاطع معهما أبو بسام مسؤول الصفحة الثقافية المؤقت الذي لم يطل مقامه في الصحيفة أكثر من ثلاثة أشهر، وكأن القدر بعث به ليصبح عرّابًا أبديًّا لكاتبة مبتدئة ويرفعها إلى مصاف كاتبات الخمس نجوم، فلو لم يكن له حس كتابي لما شمّ رائحة غريبة مرتابًا فيما تكتب رباب، فهذا الأسلوب المميز ذو رائحة ذكورية لايخرج عن دائرة ممدوح اللغوية والفكرية. وفي مساء وطد له نفسه، استدعى ممدوحًا الذي من ذعره ألقى بكل أوراقه رافعًا يديه إلى الأعلى، معترفًا له بهذه الصفقة الصغيرة، فأمره بالاتصال بها حالًا، وتحويل المكالمة إلى مكتبه، ودون أن يسأل أو يتردد نفّذ الصحفي المسكين الأمر من فوره، ومنذ ذلك الحين ورباب في حوزة أبي بسام دون غيره؛ يعني حصريًا، وحصريًا هذه تشي بمعان مختلفة تمخضت عنها فكرة كتابة رواية. لم تسعها الأرض من الفرحة وهي تسمع بـ (رواية) محاولة إجراءها فوق لسانها (الروائية رباب) ولم تعبأ بما يمكن أن تقدمه، هل كان الثمن باهظًا؟ ما نوعه؟ اسمحوا لي فقد حلفتني رباب بأغلظ الأيمان ألا أخبر به أحدًا وما علي سوى الانصياع لرغبتها.

كيف وصلت رباب إلى تهاني؟ عن طريق أبي بسام أقرب أصدقاء زوجها، في المرة الأولى التي جمعتها بها توسمت فيها أنها ستصبح الصديقة الحفية بها، فهي كانت بحاجة ماسة لصديقة من هذا الوسط المليء بالضباع، ومن

حينه توثقت علاقتهما، وأفضتا لبعضهما بأسرارهما وصارتا لا تفترقان إلا للنوم.

هي لا تنكر أفضال أبي بسام عليها، فعدا هذه الرواية فقد أكرم عليها بإجراء عملية تجميلية (نيو لوك) خلال رحلة سياحية قضوها جميعًا في بيروت. تقول بفرح طفلة تحرر عروستها الجديدة من علبتها: أنا لا يمكن أن أجحد أبا بسام الذي وقف إلى جانبي حتى أصبحت محطّ اهتمام الملتقيات الأدبية.

توجّه إليها دعوات من كل حدب وصوب وليس أمامها سوى اختيار ما يتواءم مع مواقيت أبي بسام. كما حقّق لها الحلقة المفقودة منها وهي ذاتها، حتى باتت راضية عن نفسها، فكم نعتتها مدرستها بالبليدة. وكم ضحك منها الجميع، وهي لا تحير بكلمة نافعة أو إجابة مجدية عندما تسألها. أما في الامتحانات فلا تستطيع حمل عقلها معها، دائمًا تنساه مطويًا في درج التسريحة.

2

بصيغة تقريرية لواقع حالها أتبعته بمشهدية محزنة قلبت رباب روحي رأسًا على عقب. كانت عيناها تترطبان بالدموع. استشعرت أنها تبتغي البكاء، فثمة دمعة تقف عند حدود جفنها الأيمن، لا تريد أن تغمضها خشية سقوطها. اقتربت منها لا إراديًا. شيء ما شدّني إلى الاقتراب فما إن استنشقت رائحتي واستشعرت دفئي، حتى أسدلت رأسها على كتفي. عظامي صارت ترتعش وحتى لحم وجهي يهتز؛ الفتاة التي كنت أتهرب من مجرد إطالة الحديث معها احترامًا لخصوصية علاقتي بتهاني توكئ رأسها على عضدي؛ أحتويها بين جوانحي ويدي اليمنى ترتعش وأنا أرفعها بتوجس فوق مفرق رأسها وأمسّدها مثل عصفورة، بخفة ورشاقة كي لا أفزعها وكأني أضغط بأناملي زر تدشين مشروع البكاء، وفعلًا هذا ما حدث انحلّت صرار مآقيها. ذرفت الدموع، كانت تنهمر بغزارة قرابة النصف ساعة حتى عصرت آخر قطرة فرفعت جذعها المتعرق بحرارة البكاء عن جسدي المتنعم بحرارة جسدها الرخو ترفو مدامعها، وتجفّف وجنتيها وتضع عليهما قليلًا من الماكياج وتحدّد عينيها بقلم مسكرة رفيع، ثم أشارت للجرسون طالبة تغيير المعسل مع فنجانين قهوة قالت:

ـ تصدق ارتحت..

ـ البكاء طهارة للروح..

ـ يمكن أنا ما قلت لك ليش بكيت؟

ـ إذا ما تحبين البوح، أعفيك.

ـ لا أنا اليوم سأنثر ما بنفسي لم أجد من يسمعني. صدقني أنا يمكن ما أعرفك من قبل، بس أنت الإنسان الوحيد اللي ارتحت له.

ـ شكرًا المهم لا تستعجلين.

ـ لا سأستعجل لازم، لأني فايضة جدًا. اسمع سأبدأ من طفولتي.

بصوت البطلة الأولى

رحلت أمي عن وجه الدنيا باكرًا. كنت لحمة حمراء طرية ورحمة بي أو رحمة بحاله لا أدري؛ تزوج بأخرى المهم بلجت عيني على وجه هذه المرأة العبوس التي سحلت كلمة ماما من لساني. كبرت قليلًا وفي حجرها أربعة أطفال تهشّ لهم وتبشّ وتفيض عليهم بدلالها، أما أنا المغضوب عليها منكوشة الشعر، فقد سخّرتني لخدمتها، حتى اسودت مواطئ قدمي وأنا ألهث راكضة لتلبية احتياجاتها، ما بين المطبخ وغرفتها. علّمتني كل المهارات وأنا في السابعة بما في ذلك الطبخ.. أذكر يومًا لا ينمحي من ذاكرتي وأنا أحاول إشعال الفرن لغلي الماء، سمعت انفجارًا طيّرني وأفقدني وعيي، لم أفق إلا بلفائف على وجهي ويدي، وأحمد الله أنها كانت حروقًا بسيطة، لم تعن الشيء الكثير لأبي الواقف بامتثال كامل لأوامرها. تمنيت لو مسح على وجهي الصغير بيديه، أو ربّت على كتفي أو مسّد شعري المحترق. أبعدتني عن الطبخ ليس خوفًا علي، بل خوفًا من أن أحرق المنزل بمن فيه، مكتفية بإسناد مهمة الغسيل والتنظيف. كنت أضع قدْرًا كبيرًا تحت قدمي كي يرفعني إلى حدود صنبور الماء لغسل الأواني.. كبرت وأنا أتحسس هذه القدر المقلوبة بقدمي، تصدق حتى اليوم وأنا أمشي؛ أحس

أني أمشي فوق قدور كبيرة. في التاسعة من عمري تعرفت على فتى ظريف وجهه كأنه الصبح (ابن الجيران) يترصد لي، فكنت إذا خرجت لنشر الغسيل في حوش منزلنا الخلفي أراه يضع مرفقيه على حد الجدار مردفًا وجهه بكفيه يتأملني، فصرت أحرص على الغسيل كي أخرج للالتقاء به، وفي غضون أيام تدبر سلمًا صعد عليه وجلس ممتطيًا الجدار العازل كفرس. كم قلب كياني ذلك الفتى النضر الوجه مليح العينين، به تطرّت حياتي متنعمة لذة لم أكن أفهمها إلا أنها لذيذة، حتى أزِفَ يوم كالح، وهو اليوم الفاصل في حياتي. كانت زوجة أبي قد استبطأتني ذات يوم فخرجت تنادي وأنا غارقة بفيض مشاعر لذيذة تدغدغ قلبي، فلم أنتبه إليها وهي تقف خلفي حتى هزّتني بعنف وسحبتني من شعري وسجنتني في غرفة المعيشة، حتى جاء أبي وحكت له بصوت جمد عروقي من الخوف، وهي تصرخ بعلو حسّها: ستجر علينا العار وستلطخ سمعتنا .

وساعة العصر كنت على موعد مع النحر، كما تُنحر خرفان العيد. سحبتني من شعري إلى الحمام وهناك أضجعتني وهي تجرد ملابسي التحتية، ثم أقبلت المرأة ذات الوشوم الكثيرة في يديها وعلى ذقنها، وبيدها سكين صغيرة كالتي نقطع بها الفاكهة مسدت فرجي وحزّته، لا أدري كيف أصف ذلك الوجع، خلتها من حرارة الألم أنها بترت قدمي من مفصل الورك؛ لأن الخدر مسهما وأنا أصرخ بملء صوتي ولا أحد يرحمني أو ينتشلني من هذه المذبحة. أذكر أنني غبت عن الوعي لم أصح منه إلا ليلًا منهوكة القوى بلا صوت، فهمت فيما بعد أنني تعرّضت لإجراء عملية وحشية

تُسمّى الختان، حتى وأنا في هذه الحالة كانت تأتي إلي وتقذف في وجهي بعض الغيارات وهي تقول: انهضي واغسلي قذارتك وغيِّري ملابسك وملاءتك المتسخة. دفنوا مزقة اللحم المستأصلة في تربة الحديقة الخلفية، فظللت أداوم التمعن فيها حتى أنبتت شجيرة صغيرة، خلتها بذرتي المدفونة، وصرت أرعاها وأتعهدها بعنايتي حتى تسامقت واستطال جذعها. ألوذ بها كلما اجتاحني ذعر، فقد التصقت آثار تلك الليلة الملعونة في ذاكرتي فهي موشومة ليست على جسدي، بل روحي ونفسي وقلبي لا تبرحني، أذكر أول يوم جاءتني فيه الدورة الشهرية لم أحسب لها حسابًا؛ لأني ببساطة لا أعرفها، أفقت من نومي صباحًا وملاءتي مبلّلة بقطرات دم أحمر، فلما رأته سحبتني من شعري وأوسعتني ضربًا ذاك النهار، كنت بين يديها كطير مذبوح، لا أدري لماذا تضربني بهذا الحنق، فهمت منها أنني بلغت بدلالة هذه الدماء، وضربتني على إهمالي. صبيحة ذلك اليوم رأيت شجيرتي تنزف. هذا الارتباط لازمني، فمن يومها متى جاءتني الدورة الملعونة أتحسس ألمًا يسقط على جسدي، ويصيبني رعب، لدرجة أنني أختبئ في مكان من المنزل أنتحب. كبرت واستطال عودي. ويوم تعلمت الكلام لجأت إلى خالتي هربًا من بطشها، وحزني على فراق شجيرتي لا يعادله سوى فرحتي بالتملص من قبضتها، وهناك انفتحت الدنيا لي على مصارعها، ملأت بيت خالتي بأصص زرعتها بنباتات ظلية جميلة، أقنعت بنات خالتي بأن كل شجيرة منتزعة من جسد أنثى، نكشت كل أوراقي التي كنت أحبرها بكلام لا أفهمه قبل النوم. راقت لبنات خالتي، وزودنني ببطاقة إضافية من

التشجيع، حتى صدقت أني كاتبة فذّة لا يشقّ لها غبار، وبدأت بمراسلة الصحف حتى وصلت إلى هذه الحالة. كانت الرواية حلمي؛ لأنها ستكون بمثابة كرسي اعتراف، هناك تصفية حسابات يجب أن تُقضى، تقدّم لي شباب كثر فرفضتهم جميعًا، الرجل بالنسبة إلي لا يستحق أكثر من بصقة، لذلك أمعنت في إذلالهم، متعمدة غوايتهم حد المترقب الأشهى فأتوارى عنهم إلى حيث لا رجعة. أبو بسام استمع إلى حكايتي فطلب مني كتابتها بما يشبه التذكر فكتبت له كل شيء ومنها حاك لي رواية مع كثير من التفاصيل التي نسيتها، وهو الذي نشرها وكتب عنها ثم أوصلني للنقاد، ومن يومها وهو سيدي وأنا رهن إشارته. هي قالت رهن إشارته، فرنّ جرس الجوال، نظرت إليه وهي تغمزني بأن الزم الصمت، فهمت من ارتباكها أنه أبو بسام. انتهت المكالمة وأسقطت الجوال في حقيبتها ونهضت مسرعة وهي تعتذر لي قائلة:

هذا سيدي وتاج رأسي رغمًا عن أنفي، لا أنكر وقفته الجبارة معي. بس أقول لك الصراحة مليت منه الله يخلصني منه. كثرت نزواته وتضاعفت شكوكه ومخاوفه من أن أفلت من بين يديه، فالمريدون أصبحوا كثرًا والمحيطون بي أكثر. وأنا مكتفية بحبيبة قلبي تهاني. ياالله باي نشوفك على خير. غابت عن عيني وهي تعدني برؤية تالية برفقة تهاني مساء الغد، وأنا أعد نفسي بأن أغلق بابها إلى الأبد فمثلها محفوف بالخطر؛ فكم من حرب قامت بسبب امرأة وأنا لست مخلوقًا للمواجهة، فليس لي أسلحة كافية لجندلة الأعداء وسبي نسائهم. في اليومين التاليين تشاغلت بزيارة

الأماكن التي لم أزرها قبلًا، لا أخفيكم أن حكايات رباب باتت تشاغلني، وصورتها تعبر أمامي بدأت الصور تنثال في رأسي تترى وهي جالسة باحتضان كامل لتهاني في أكثر من مكان خلال الأيام الفائتة، مما أثار السؤال الذي لا أحبه: هل هما مثليتان؟

1

أيقنت أن النيل منحة مقدسة لقاطني هذه الأرض، فلولاه لزهقت الأرواح وتكدست العقول بالأسى والقلوب بالبؤس؛ لذلك كلما حاول الملل التسلل إليَّ بغية اقتحامي، أطلق قدمي باتجاهه، كي يغسل هواؤه كل عوالق المدينة المعبّأة بالضجيج، وبناياتها التي غضنها التاريخ وتلحفتها عباءات العصور الغابرة.. في اللحظة التي كانت عيني تتفرس ملامح العشاق ينهلون من النيل أرواح العشاق الغابرين اتصلت بي تهاني. كان صوتها مثل شهقة المفاجأة، ودهشة أوقفت حركة الكون، صوتها غسل عن قلبي كل توجساته، لم تترك فرصة للتعبير عن جيشان صدري. سألتني عن مكاني، ثم طلبت مني التعجل بالمجيء إلى الشيراتون، وقبل أن أسألها عن رفقاء ليلتها أغلقت السماعة، وهواجسي لا تبرحني وصورة أبي بسام تنازعني وهدتي، وسريعًا أوقفت أقرب تاكسي انطلق بي إليهم، كان على مرمى قريب جدًا مني. دقائق تُعدّ بأنفاس اللهفة حتى مثلت بينهم، هذا هو أبو بسام يطلق أولى شرارات عينه الشانئة، وهو يتفرّسني بخبث، لم يمد يده للمصافحة. وقف الجميع استعدادًا لتبادل الأيدي، ورباب بإيعاز من تهاني تقدمني إليهم. كان زوجها حفيًا بي؛ لذلك راح يسألني عن سر غيابي، وأنا أجيبه

بلهاث متقطع، وعيني منغمسة بعيني تهاني. قبل ارتخاء عظامي المشدودة، تمهلت كي أعيد ضبط أنفاسي. اقترح أبو بسام تغيير المكان وكان مجيئي قد شرد استقراره وأفسد مزاجه واستئثاره بتهاني. مشينا خارجًا زرافات نحاذي نهر النيل بهوائه الليلي المهفهف لاطمًا وجوهنا. كانت رائحة الويسكي تنتشر من فم أبي بسام، أراحتني بقدر ما أقلقتني.. أحيانًا السكران يسالم حتى خصومه، دعوت الله أن لا تأخذه صعقة هواء منعش تعيده إلى سطح الحياة، وأن يظل تحت الأقبية، فلا يفيق ويحمّلني من عنته ما لا يطيق قلبي الكسير. ألا يكفي هذا العازل الظرفي الذي يحرمني من الاقتراب منها؟ زوج تهاني مختلف تمامًا، فمه مملوء بالأحاديث، أحاديث مقنّنة؛ غير عشوائية، أخاله أحيانًا يقرأ من كتاب، مشى إلى جواري ممسكًا بمعصمي كأب يخشى على ابنه من الضياع. المتقدمون أوقفوا سيارتي أجرة، ركبت وأنا لا أعلم أين وجهتنا.. ركبنا السيارة متلاصقين ثلاثتنا في الخلف أنا والزوج الكريم وتهاني، بينما اللئيم اضطر إلى الركوب في المرتبة الأمامية وكان هذا انتصاري الأول عليه. أما رباب فكانت بمعية الآخرين الذين لا أعرفهم فاستقلوا السيارة الأخرى. مشت السيارة حتى خيّل لي أننا فوق قطعة حديدية تحملها أربع عجلات فترحّمت على ونيتي. انطلقت بنا بهدير متواصل وعيني لا تبرح تهاني ببنطالها الجينزي اللاصق وقوامها الممشوق، مسلمًا نفسي وأذني مرتهنة لزوجها الكريم حتى شارفنا ضجيج الحسين.. اجتزنا الحواجز المؤدية إلى باحة الحسين بانسيابية تامة وبمهارة السائق الذي خلناه يعبئ سيارته بوقود الكلام.. لذلك لم يصمت مستمرًّا

سماجات أبي بسام وهو يراوغ ازدحامات القاهرة الليلية.كانت مبادرة السائق رجل الأمن بمبلغ محترم دسّه في يده قمينة بتحية ملكية نستحقها بجدارة وهو يصيح بعلو حسّه:

ـ وسع يا جدع سيب العربية تفوت بس ما تعوقش.

هبطنا من السيارة. ومن خلفي تهاني ورباب تخطو صوبنا نازلة من السيارة الأخرى بصحبة رجل وفتاتين.

ولجنا باحة الحسين نمرّن أقدامنا على مراوغة الأجساد التي غصّت بها، وعيناي تذرعان قامة تهاني. دمائي متلهفة لكرياتها البيضاء والحمراء وحتى السوداء، لم أسأل عن السيدتين الأخريين لسبب بسيط هو أنهن غير سعوديات فواحدة مصرية والأخرى لبنانية. عرّفتني رباب سريعًا على الرجل ذي اللحية الكثة، خلته من تقاسيم وجهه الغريبة يهوديًا لا أدري لماذا؟ قالت هذا (ناشري) عرفت السبب.. صفة ناشر تقابلها صفة لؤم من نوع ما.

تمهلت قليلًا بانتظار مواكبتنا حتى انتظم عقدنا، متخذين طريقنا نحو فوهات القهاوي المتراصفة أمام ساحة الحسين، عابرين أمام الكراسي والطاولات الخشبية الممتدة بنظام تتخطفنا أيدي القهوجية بغية كسب زبائن (سقع) دفيعة، وأنا أتخطف بعيني ملامح رباب الملتصقة بأبي بسام كهرة في موسم تزاوج. يدها الأخرى تحتضن نسخة من روايتها، وملفًا بداخله أوراق كثة خمّنت أنها مسودة رواية قادمة.. من عينيها الراقصتين وأذنيها المشنفتين على كل الأصوات تفرزها جيدًا بانتظار من يناديها بالاسم مثل فتاة استعراض للتوقيع

على روايتها، أو صوت يفرقع بين باعة الكتب المتجولين منادِيًا: ما تفوتش رواية الملايين؛ لنكتشف أن المعني هو روايتها لا غير، أما نحن فبقينا خارج هذه الدائرة الضيقة جدًا التي تريد أن تحبس أنفاسنا داخلها.

لم نعد قادرين على تلافي اضطرام الأصوات المشتعلة على إيقاعات مقاهي الحسين الضاجة. كنا قد تدرعنا بالصمت لمواجهة نزق توسلات «الجرسونات»... الباعة... المتسولين، باتت أعيننا تحلّق حول منصة قصية في قهوة (أبو مازن) المتوسطة بين المقاهي... بحثًا عن مقاعد مرتفعة ووثيرة تكشف لنا بجلاء كل الداخلين والخارجين من الحسين، وحالة استوائهم بين مكعبات الطاولات الصغيرة. كانت المنصة المتاخمة لنا مشغولة بثلاث فتيات يداعبن مباسم المعسل بين شفاههن، خمنت أنهن كويتيات قال أبو بسام مقترحًا:

ـ ما رأيكم لو جلسنا هناك إلى جوار الخليجيات.

علق الناشر البغيض بلكنته العراقية قائلًا:

ـ يا سيدي.. خليجيات: كويتيات سعوديات سواء، المهم الدم يحن.

فبزغت من بين شفتيه ابتسامة شرهة ارتسمت على وجهه مع هالة حمراء قانية على وجنتيه، ثم صاح بعلو صوته بـ (اللمبي) الجرسون خفيف الظل مشيرًا له بطرف سبابة يده اليمنى إلى المكان، التقطها بسرعة، هازًّا رأسه وهو يقول:

ـ خد لفه وارجع، هم حيمشوا.

لا أدري لماذا ناصبته العداء مجانًا.. هكذا من انطباع أولي.. فهل سيكون خادعًا.. تمنيت أن لا.. لأني كرهته وانتهيت.. أطلقنا أقدامنا والجين في أزقة الحسين الغاصة بالباعة وأدخنة المعسل، غير عابئين بأيدي الأطفال الصغيرة الممتدة كأقحوانات في وجوهنا، متسوّلة لقمة عيشها بعبارات يكسوها الحزن والانكسار، حفاة الأقدام بملابس رثة ومتفحمة من طول تقلبهم بين الأرصفة ومكوثهم على الإسفلت، لا يردعهم صراخ الباعة وتهزيء الجرسونات.

هؤلاء الصغار يتوسمون الزائر الأول للحسين بأعين متحرية، ينتظرون يده تندس في جيبه لاستخراج بضع جنيهات ذابلة: منهم صبي لا يملّ التسول لكنه لذيذ وخفيف الظل يعرض علينا بتخابث قائلًا:

ـ والنبي جنيه وأجوزك أمي.

أفسدْت عليه تخابثه أقدام الصغار الجرداء بوجوههم المعفّرة بالفاقة. تكاثرت الأيدي الممتدة ومن خلفها سيقان عارية ووجوه فتيات بضة. سحبتنا من أنوفنا إلى بهرجة الحياة المترعة بكل المتناقضات، انحدرنا خلفها، ذائبين في تلافيف الأزقة المحشوة بالضوء والبخور والأقدام المتراخية، عبرنا ممرات الأزقة الضيقة المكدسة بالمحلات الصغيرة المعبأة بكل شيء ممكن يخطر على بالك، ألوان، أضواء تبهر الأعين، روائح مختلطة، أذواق متباينة، وجوه من مختلف الأعمار والأجناس. ما إن خرجنا منها حتى طوّقتنا الأيدي بأصوات مبحوحة ولاغطة، من أطفال ونساء ورجال وعجائز تتابع خطواتنا حتى اخترقنا زقاق قهوة الفيشاوي

الشبيه بسرداب مكتظ بالزبائن، والروائح الخانقة، والمتفرجين والباعة. علق الناشر الأريب قائلًا:

ـ والله من حق نجيب محفوظ عليهم أن يصنعوا له تمثالًا ينصَّب في مقدمة قهوة الفيشاوي.

اهتز وجه رباب فرحًا وجسدها طربًا، وكأنها المعنية بنجيب محفوظ لا غير بابتسامة بدأت تكبر كفقاعة صابون عجزت عن مداراتها حتى تبخرت، رفع اللمبي عقيرته فانداح صوته في آذاننا كأزيز رصاص مناديًا بقوله:

ـ يا حج المكان فِضِي احجز هو لك؟

لملمنا خطواتنا ملتفين مئة وثمانين درجة باتجاهه نحشر أجسادنا المنهكة والمترنحة بين الممرات الضيقة حتى انتهينا بعسر إلى مستقرنا. استوينا فوق كراسٍ خشبية صغيرة من نوع منقرض لكنها متينة.

ظلت أعين البائع المتجول تحوم فوق رؤوسنا كدبابير، وأيدي المتسولين تقطرنا وصاحبنا المفوّه الذي تحدث بأسى عن فقراء العالم العربي يهشهم كما يهش الذباب عن وجهه.. تكاثرت حولنا الأيدي من متسولين وراقصين ومغنين لا يحقرون أصواتهم المتواضعة جدًا فلا نلقي لهم بالًا، عدا الباعة المتجولين؛ انتصب فوق رؤوسنا بائع كتب يرصفها أرتالًا بين يديه بلا تعب أو كلل، طفقت رباب تتفحصها باحثة عن روايتيها، سأله رفيقنا الناشر:

ـ كيف تحصلون على الكتب؟

ـ فأجابه البائع بلا ريبة أو خشية:

ـ من الناشرين.

علق الناشر الموقر قائلًا :

ـ طبعًا هؤلاء الناشرون لصوص يطبعونها دون الرجوع إلى ناشريها الأصليين، ولا أحد يحاسبهم.

علّق أبو بسام الذي استعاد للتو شيئًا من توازنه بدلالة انحلال عقدة لسانه :

ـ هذه مشكلة عالمنا المتخلف، فالفقر والبطالة تفعل أكثر من ذلك.

بدأ يخالجني صوت آخر يحرّضني على البوح كمشارك في القضية، ولساني لا يطاوعني. كنت سأقول: «لولا مخافة طردي من جنتهم»: إنك أيها الناشر الموقر أكبر لص؛ لأنك تصادر حقوق المؤلف إلى الأبد، وكأنك تنعم عليه فقط بشرف النشر مستغلًا طموحاته المتواضعة. أما أبو بسام فبماذا عساني أردّ عليه وهو يترنح كراقصة. فجأة اعتلى وجه رباب حنق تقطّب له جبينها؛ لأنها وجدت كل روايات صويحباتها البنات عداها، فقالت بما يشبه الطرد:

ـ خلاص ما نبي.

أخيرًا رحل البائع دون فائدة مرجوة، هذه الفرجة التي تركها بائع الكتب سمحت لبائع السبح بالعبور إلينا، شاخصًا فوق رؤوسنا تتقدمه ذراعه الممتدة بأرتال السبح المطعمة بالأصداف، والأحجار الكريمة والزمرد من الحجم المتوسط. اصطادنا بمداهمة عاجلة مع فيض إغراءات مسبوغة بنكتة حاضرة يغمسها بمواصفات هذه السبحة وتميزها عن غيرها، وإن اختياره دليل على مهارة وحنكة، يا

لهذه الأعين التي تراوغ أجساد الفتيات السارحات بكسل ساعة الليل المترصد لنا بغواياته. واحد منا وقف خلفنا بلا بصيره وبصره معلق بإحداهن، كانت قد انتبذت لها مكانًا يسمح لها بمبادلته النظرات اقتنصت ملمحًا منها، فأغرقته ببياضها الحليبي وفتنتها الساحرة وطولها الفارع هذا التراسل الحر أنساني تهاني احترامًا لزوجها المحترم جدًا.

أبو بسام ظل يفاوض البائع، شاحذًا همته في استعراض معلوماته عن السبح وأنواعها والبائع لا يخالفه في شيء؛ فقلت في نفسي: والله ما شاء الله يعرف بكل شيء، هذا تحديدًا ذكّرني بضيف برنامج صباح السعودية اليومي الذي لا يمانع في الإجابة عن كل شيء، مثل ساحر الطربوش، أخيرًا فرز أبو بسام من بينهن واحدة مطعمة بالفيروز والعاج والفضة وأشياء أخرى أجهلها سائلًا:

ـ هذه أحلى ما عندك؟

ضحك البائع المبحوح الصوت، المنهك جرّاء تطوافه الليلي الطويل بحثًا عن لقمة عيشه قائلًا:

ـ اهه أنت دلواتي غلبتني والله كنت حا اولك خد دي، بس خفت انك كنت حاطط عينك على اللي ابليها بس أهوه انت طلعت داهية مسيحة، يالله احنا نتعلم منك ..

وعلى غير المتوقع اقتنى مجموعة من السبح بعددنا، ووزعها علينا، فكان حجم الخرز ولونه معادلًا لمقامنا عنده، فكان نصيبي ذات الخرز الصغير التي قيمتها أربعون جنيهًا، وكم تمنيت لو استبدلها لي بكتاب ولكن.!

كانت الأجساد الوثيرة بالصحة قد ملأت أعين

الرجال، وعيني لا تروغ عن تهاني أحاول غواية الاقتراب فلربما أظفر بليلة أغسل بها جفاف قلبي، وأحرّر رأسي من كل هذا الضجيج ومن رباب التي اختارت مقعدًا إلى جانبي حد الالتصاق، وصارت تنفث من مبسم المعسل دخانًا أبيض. أدري أن عيني تخدعني وأنا محفوف بالبشرات البيض لأرى الدخان الخارج من أفواههن ثلجيًّا أيضًا. غمزتني تهاني وهي تنهض ثم انحدرت باتجاه الأزقة الضيقة، وبعد برهة متقدة بالخوف واللهفة، نهضت ومشيت بالاتجاه المعاكس وقريبًا من قهوة الفيشاوي. قابلتها. أخذتني من يدي وكأنها ترتكب حالة اختطاف، جذبتني صاعدة بي إلى قهوة علوية، تكاد تخلو من المرتادين وهناك تناولنا اكسجين الحياة بلمسات طرية اجتثت رهق الأيام الفائتة معيدة صياغتي، ساعة كاملة. أعادت ترميمي مؤقتًا، لتودعني على موعد ساخن في الغد.

2

في مساء اليوم التالي طرق جوالي اتصال تهاني، ودون مقدمات سألتني عن وجهتي هذه الليلة، قلت وقلبي ينتفض فرحًا:

ـ بصراحة لم أقرّر.

قالت:

ـ إذن نسهر معًا، فما رأيك أن نلتقي في ماريوت الزمالك ومنه نقرّر أين سنقضي سهرتنا؟

كان اتصالها مثل حلم أعادني إلى لذة مكالماتنا المسروقة ليلًا.. تمنيت لو تريثت معي قليلًا حتى ترمّم ما بقي لي من روح.. صدقًا لا أدري كيف أفسر تعلقي بها ولهفتي إليها هل هو حب، لا.. لا أعتقد. كنت طردت هذه الفكرة؛ لأن ما نشأ بيننا منذ البداية عقل وجسد فما بالي أردد (روح) وهل تعني الروح التعلق الذي يفضي إلى الحب؟ لا يمكنني الجزم. بصراحة حتى الآن، هويتها عندي مرتبكة.. متزوجة من رجل مسن، ومتعلقة بي، ومرتبطة بأنثى وملاحقة من قبل ثلة ذكور أولهم وأعتاهم أبو بسام، هذا لوحده لعنة مقيمة، كرهته من الوهلة الأولى، رأيت كيف يستشري الخبث من

عينيه، لن أمنح قلبي لمغامرة غير مأمونة، يكفيني ما أجتزه من لذة الجسد ومتعة القلب. اتصالها جاء في التوقيت المناسب جدًّا، فقد انتهيت للتو من قراءة رواية ذاكرة غانياتي الحزينات، التي ابتعتها بتحفيز طاغ من قبل الشيخ حمد «شيخ الفسقة» وكما عوّدت نفسي عقب إنهاء أي كتاب؛ فورًا أكافئ نفسي بمتعة، وكانت تهاني متعتي المنتظرة التي لم تكن في الحسبان. بخفة نهضت ولبست بنطال جينز وقميصًا أبيض مقلمًا بخطوطٍ زرق ناعمة. عقفت أكمامه إلى الخلف، وكي أمعن في ترتيب مظهري نفشت شعري بجل، وعلقت خيطًا أسود ينتهي بدلاية على شكل قرن وعل انتقيته من باعة الحسين المتجولين. ورشقت جسدي بعطر ابتعته من بائع بسطة أراه يوميًّا لا يتزحزح عن مكانه جاثيًا على رصيف من أرصفة جامعة الدول العربية.. ذكّرني ببخيتة وتعاطفت معه وبدون مفاصلة اخترت هذا العطر مجهول النسب. دخلت الفندق ذا التاريخ المجيد، أجلت بصري في الزوايا الجانبية من البهو فلم تقع عيني عليها، أجريت اتصالًا عاجلًا فأخبرتني أنها جالسة برفقة رباب في السرادق الشعبي الواقع في حديقة الفندق الخلفية. هرولت نحو الأسفل أقفز فوق العتبات بخفة، لأجدهما تعلقان بين شفاههما مباسم المعسل مع كأسي بيرة «هنكن»، استقبلتني تهاني بقبلتين ساخنتين على الخدين أحرجتني وسحبتني من يدي وهي تفرغ الكرسي من حقيبتها الملقاة وسطه وهي تقول:

ـ هاه.. اجلس وأخبرني ما رأيك بما سمعته من رباب؟

ـ وهل أخبرتك؟

ـ هي لا تخفي عني شيئًا بتاتًا (تقول هذا وهي تمسك بيد رباب الممتدة فوق زجاج الطاولة المستديرة).

هاجستني نفسي أن هاتين اللبوتين سيتناولنني كمضغة سائغة، ولكن من أجل الورد (ينسقي العليق).

ـ طيب. أنت قرأت رواية رباب بصدق، ما رأيك بها.

تسألني وهي تعرف أني أعلم أنها رواية منحولة ليس لرباب منها سوى الاسم، قلت بتردد:

ـ جيدة.

ـ بس جيدة، صدقني كل كاتبة تتمنى لو كتبت مثلها.

هنا استشعرت رباب ارتباكًا طفر مع حمرة صبغت وجنتيها. انبرت تهاني للدفاع عن حبيبتها رباب محرِّرة إياها من هذا الحرج. تحدثت بإسهاب عن قضايا السرقات الأدبية، ثم راحت بتشف تعدّد أسماء كثيرة كتبت من أجلهم أو أجلهن نصوصٌ كثيرة إما بغواية الجسد أو إغراء المال، حتى أحسست بالغثيان الذي أصابني بنوبة إحباط مفاجئة فطلبت منها التوقف، وهي تصرّ على إكمال القائمة، وحتى أحرّر نفسي من مسؤولية هذه التهم توسلت إليهما أن نغير المكان، وفي الطريق نكمل حديثنا. نهضنا ورأسي يضجّ بكل الاحتمالات المستجدة بشيء من المفاجأة. فقد سمعنا كثيرًا عن السرقات الأدبية عدا الكاتب المستعار، فهذه جديدة علي

وثقيلة أيضًا، لا يمكن أن أترك لهما الحبل على الغارب، يعيشان برأسي فسادًا، فرأسي لم يعد يحتمل كل هذه الترهات، فلا يمكن أن أمسي باكتشاف أني كنت مغشوشًا بقراءات روايات مزورة. مرقت أنصال الأسئلة رأسي وهما تمارسان ضغينتهما وحسدهما النسائي ضد الآخرين، حتى تتساوى الرؤوس، طبعًا لا يمكن أن يتشابه الجميع في الظروف والتجربة، فلرباب تجربة خاصة قد لا تتكرر، ولكن هل يعقل أن وراء كل روائية عظيمة مأساة أعظم؟!

3

مشينا راجلين نحاذي نهر النيل الناعم وهو يلقي على القلوب السلام والسكينة. تنعكس على صفحته الرائقة إضاءات القوارب الشراعية الراسية، مع هواء عليل ورطب يخامر القلوب فينعشها. آذاننا مشنفة على حانات الليل ومراقصه التي تنبعث منها أنغام الموسيقى تكمل لوحة ليل النيل. كانت تهاني تلتئم على رباب وتتخللها جسدًا يناصفها كل شيء حتى الخطوات وأنا أسير إلى جانبهما، كربَّان يتوسط قاربًا صغيرًا، حتى انتهينا إلى زلفات مطعم السرايا القريب من الفندق، كانت عيناي تتأرجحان مع انعكاسات النيون على صفحة النيل الساكن، هذا المنظر الخلاب حرَّرني من ارتباطي بهما، سارع نحونا أحد النادلين يفسح لنا مكانًا أشارت إليه تهاني بسبابتها، في أقصى ركن ليس دوننا إلا الجدار، طلبتا المعسل واكتفيت بكأس عصير بارد، بدأت فقرات الحفل المرافق للعشاء، فاندست رباب بما يثير شبهاتي التي كنت أشتتها من رأسي بين أحضان تهاني. رأيتهما مغموستين بلذة المعسل واستئناسهما بدفء جسديهما، فلم يعد لي مكان، هذا المشهد جرح رجولتي؛ فآثرت الرحيل على البقاء، نهضت أدفع بالكرسي المجاور وأنا أقول:

ـ معذرة أنا لم أنم جيدًا هذا اليوم، سأذهب.

استفقت أخيرًا لهذا التحول الأخير في طبيعة علاقتنا، لماذا سحبتني من أنفي مادامت محظية بمؤانسة رباب، هل كانت تفاضل بيننا، أم تستخدمنا؟ كنت أخمّن واهمًا أنها ستقتادني مغتبطة إلى جناحها في الشيراتون نلتقط ثمار جسدينا ونهصرها باشتهاء. أيقنت أني تعرضت لخديعة أنثى متمرسة وقبل أن أولي وأتركهما لبعضهما، ذكّرتني تهاني بموعد الليلة القادمة، بصحبة الفريق كاملًا مع غمزة تشي بمواعدة خاصة شتّتت أفكاري وأراحتني قليلًا. ودعت المرأتين الغاطستين بدفئهما، ونفساهما تتوقان إلى شيء كانت تتجاذبه أعينهما.

رحلت ورأسي تعصف به ألف فكرة وفكرة، قلت: ما اكتشفته الليلة مناسب جدًا لكتابة رواية، ولكن هذه الرواية تحتاج إلى تحر وبحث عميقين وأدلة وبراهين، لذلك سأؤجلها لحينها ريثما تتوافر لي المعلومات وأتقصّى عنها جيدًا.. في البدء سأدرس واقع الحال وأوافيكم برواية تليق بكم وبحجم الفضيحة. تذكرت كلام رباب ليلة اعترفت لي بأنها لم تعد تجد وقتًا كافيًا للقراءة فمشروعاتها الكتابية مسروقة، ولكن ستخصص مستقبلًا وقتًا لها من بين مشاغلها الكثيرة ومواعيدها التي لا تنتهي. حدثتني نفسي أنها لو قرأت رواية يومًا ما فستكتب رواية. ثم استرجعت كيف زاد التصاقها بي حينما اكتشفت مهاراتي اللغوية، ثم فجأة طمرت هذه الأفكار بسؤال نسجه الموقف الذي كان بيننا.. ماذا كانتا تنويانه؟ هل كانتا تتقصدان الإيقاع بي فيما كنت أطرده عن رأسي؟ لا أعلم، ربما سأكتشف ذلك لاحقًا!

4

التقينا على موعد، كانت رباب تقبض بيدها الملف البلاستيكي الغاص بالأوراق، وقبل أن نلج ملهى البلو نايل دسَّته في إبطي مازحة وهي تقول: خلي بالك منه فبداخله وليدي الثالث. عندما نخرج ستفهم كل شيء.

فهمت المغزى مباشرة. فقد توخت الفكاك من أبي بسام والخلاص منه حالما عثرت على بديل؛ الذي هو أنا طبعًا، لذلك أفاضت علي بأحزانها كمتسول للرحمة والعطف، حتمًا زودتها تهاني بمعلومات وافية عني.. لهذا استدرجتني إلى المقهى بانفراد.. على علم سابق وترتيب مع تهاني.. يا لهذا اللؤم الأنثوي، هذا ما شحذ همتي الفضولية للاطلاع على خربشاتها كي أصفعها بحكم مستعجل يقتصّ لي منها، تناوبتني أكثر من فكرة أهمها الثمن الذي سأتقاضاه، ربما هي تعرف ماذا ستقدم بيد أني لا أعرف كيف آخذ، وهذه مشكلتي الأزلية؛ لأني لا أرى الأشياء إلا من خلال زواياها الطبيعية، ولا أستطيع رؤيتها على شكل دوائر، سأتركني لظروف هذه السهرة العجائبية. في ملهى «بلونايل» ربما تكشف لي بعض التفاصيل المعينة على اتخاذ القرار النهائي بشأنها. أصبحنا لا نرى وجوهنا إلا بانعكاسات الألون الزرقاء والوردية الغازية الناعمة، وكعادته

ابتدرنا مضيفنا المثقف والفيلسوف أبو بسام عراب رباب ذو الشعر الشائب بزجاجة ويسكي فاخر وراح يعبّ منها الكأس تلو الآخر، وكأنه منقطع في صحراء ليس له منها سوى هذا النوع من المشروب.. لم نكن نعلم أنه بانتظار ضيوف، حتى انضمت إلينا فتاتان شقراوان، بدا شقارهن اصطناعيًا بشكل مثير للضحك، فليس فيهن من مسحة جمال تشفع لهن سوى نحول أجسادهن، ربما لو ملئت من كؤوس صاحبنا لرأيتهن من جميلات هوليود، ولكن هذا الأخير لم يقصر معهن وقام بدوره الفحولي جيدًا، راقصهن حتى تداخلت في عينيه الأمور وتجلّت له غرفة نومه بان ذلك من طريقة مراقصته لهن الماجنة، ثم شرعت رباب تسكب في حلقها من هذه الكؤوس الملونة وتلحقها بقطع السلمون، تزدردها ازدرادًا كي تحصن حنجرتها من التقيح ومعدتها من التقرح، انكببت على ضوء شمعة الطاولة المستديرة التي تضمنا أقرأ أجزاء من روايتها على أنغام أغنية نبيل شعيل بلكنته المصرية الفجة، فلم تتركني، بل أخذتني من ذراعي تشدني إليها، نهضت بقدمين متخاذلتين وعين تهاني لا تبرحنا. داخل الحلبة الصغيرة تمايلنا على أغاني ذكرى راقصتني بعين ذابلة، وبصوت متكسر أخبرتني لمن يؤول هذا الملهى، وحكايته مع زوجته التي قتلها من أجل الحب والغيرة قالت:

- تدري من تكون؟

اكتفيت بنظرات والهة متأملة وعظامي فاترة لا تكاد تحملني فلا أريد إفساد لحظة متعة التصاقي بها. المهم أكملت قائلة:

ـ هي صاحبة الصوت الذي نرقص على عذوبته، بس تدري والله قصتهم تصلح رواية، تقدر؟

لم أحرّك لساني كي لا أنزلق بورطة، فأرخت رأسها فوق منكبي هامسة بغواية:

ـ تقدر تكتبها؟ سأزودك بكل الحكاية، ستسمعها مني حتى تنتهي؛ أقصد ننتهي من كتابتها، وإلا أقولك خلينا ننتهي من اللي أعطيتك إياها بصراحة؛ أنا صرت لا أثق بأبي بسام.

في لحظة ثملة صار أبو بسام يترنح وهو يراقص إحدى فتياته بعهر فاضح تصاعدت جلبته، ثم شرع بفك أزرار بلوزة الفتاة ولسان حاله يقول كلكن من صنف واحد، والفتاة تتمنع بلطف قائلة:

ـ لا مش هنا.

حاولت تنبيهه إلى أنهما لا يزالان في مكان عام، وهو يصرّ على طلبه، انبرينا إليه نعيده إلى آخر ما بقي من وعيه، ويداه متشبثتان ببلوزة الفتاة، أفلتناها منه بصعوبة مع مراعاة سلامتها من التمزق، لكنه أهوى بهما كي يفك حزام بنطلونه ويفكّ أزراره، انتبهت إليه فأمسكت بيده وأنا أقول بلغة يحبها:

ـ أقسمت عليك بمن تحب ألا تفعلها.

أعجبته هذه الجملة فاندمج مع لغة المسلسلات التاريخية، قائلًا بصوت مترنح:

ـ عليك اللعنة يا قبيصة، دعني أفعلها، فاليوم خمر

وغدًا خمر وبعد بكرا خمر. اغرب عن وجهي يا هذا دعني.......

هربت الفتاة منزوية بذعر إلى مقعدها. كانت رباب وتهاني تضحكان بشيء من التشفي والمقت.. أخيرًا نجحنا.. أعدناه كطير منتوف إلى مكانه وعيناه تقطران بالحنق، فبدأ يوجّه لعناته نحوي ويسألني:

ـ أنت من أنت.. يا أخي وش تبي.. شكلك مدزوز علينا.. ياخي قلي تعرفنا نعرفك؟

انبعث صوته المنطفئ فرجَّ المكان، فهذه فرصته السانحة التي أيقظت خلايا رأسه الميتة، رشقني بكل أنواع الشتائم. كان ماهرًا في توقيت اصطيادي، وماهرًا في التسديد، رباب تحاول تهدئته وتواسيني بغمزات مشبعة بالحرج، وتهاني ملتزمة الصمت مشيحة بوجهها نحو النهر، للمرة الأولى أستشعر هذا الصغار، هذه اللحظة نسفت كل الجسور التي بنيتها حتى لا أقع في هوة المهانة، كم كنت أنأى بنفسي عن زملاء الدراسة الموسرين لأحفظ كرامتي وماء وجهي فلا أدلقه تحت نير الحاجة. بدوت أمام نفسي ممتلئًا بالثقوب، تتسرب منها كل الأشياء السيئة، ومقامي بينهم يعني مزيدًا من الثقوب وربما الشقوق. فليس أمام عيني سوى طريق واحد فقط بعدما تعبّأت روحي بالقرف والاشمئزاز منهم ومن نفسي ومن تهاني تحديدًا، لأجدني أنحدر عبر السلالم الخشبية وأشقّ طريقي نحو أرصفة النيل الرطبة. كم كنت أتوق للتطواف بين شوارع القاهرة وأزقّتها،

أن أحصي أنفاس البشر، كم بدت لي القاهرة موادعة كطفل ينام على سرير هزاز. كنت فقيرًا إلى يد حانية تمسح هزيمتي وترمّم قلبي المكلوم. وصلت إلى جسر قصر النيل أغرق عيني بالمدينة الموشاة بالضوء. غمست روحي بهوائها المنعش، لم يعد بيني وبينها حجاب، صارت توشوشني، تمنحني ذاتها. تبدّت لي القوارب أسنة، والسفن العابرة أضابير. والقاهرة رجلًا ذا شكيمة لا ترحم ولا تقهر نهارًا.. وأنثى راقصة مكتنزة بالغواية ليلًا. وقفت مثل متبتل في محراب صلاة، حتى سكن الضجيج داخلي وعاد لي صوت العقل، فأنا لست إلا عابرًا؛ رقمًا هامشيًا في حياتها، فماذا أبتغي منها؟ هذا السؤال أحالني إلى هدف تفرعت أغصانه في رأسي، واربته بخبث.. الرواية المحتملة.. نعم هذا هو، إذن ما الذي أدنف روحي؟هل فعلًا كنت واقعًا في حبها؟ مستحيل؛ هذا الالتقاء الأنثوي المفخخ بالاشتهاء والتوق لا يعني حبًا، الحب مختلف تمامًا،فهو برائحة ومذاق سامَّين يوردان حياض الموت.. أن تحب يعني أنك بلا قدر خاص بك، لتبدو خارج رهانات المستقبل، فأنت معقود بنفثة سحرية تفقدك وجودك على أديم الحياة، روحك.. عقلك.. أنفاسك.. قلبك وحتى جسدك، محتبسة بالحبيبة تديرها من برجها العاجي.. هذه الحالات لا تشبه ارتباطي بتهاني البتة، إذن ماذا تعني؟ ربما حالة من الانعطاف المؤقت، أو الانحصار في خانة أنثى، فماذا لو لم تكن هي؟ حتما سنتعاطى الحياة بالطريقة ذاتها أي لا استثنائية.

كأني استعدت بقايا وعيي المفقود.. تذكرت ملف رباب الذي نسيته مرميًّا فوق الطاولة، ذاك الذي أسمته «وليدي القادم» حمدت الله أني لم أتورط به. وإمعانًا في بتر كل ما يصلني بهؤلاء الاستثنائيين، سحبت جوالي مستخرجًا شريحة فودا فون وألقيتها في النهر، الذي يدفن العشاق فيه أسرارهم.

5

عندما تبتلع رؤوسنا الصغيرة كل التفاصيل.. كل المشاهد من حولنا تصبح حتى أدق الأشياء وأحقرها مؤذية كالإبر الدقيقة الناعمة، هذا ما حدث تمامًا ليلة البارحة.. كانت تهاني مؤذية بصمتها.. مؤذية بخَوَرِهَا.. مؤذية حتى في وجهها الذي تبدّى لي في لحظة كقطعة رخام باردة، قررت طردها للأبد، ما يجب فعله الآن ترتيب حقائب العودة. الملابس ملقاة في كل زاوية من الغرفة، كل قطعة برائحة، تحمل تراثًا من الحكايات والصخب تمنيت لو استطعت التقاطها مغمض العين، أحسّها تنهش رأسي كذئب جائع ست ساعات تجميعية أحالتني إلى موجة عارمة من الصراخ تمنيت أيضًا لو أن الذاكرة تكتب بقلم رصاص أو بطباشير المدارس القديمة، لمسحت تفاصيل الكون من رأسي، كم هي الخطوط السوداء والتعاريج التي لوّثت بياض جمجمتي، فهي تعبث به كقوافل نمل تعلن الهجرة إلى ثكناتها، مخلّفة وراءها دمارًا وحشيًا، هل تتصف النساء بصفات النمل الأبيض، راودتني هذه الفكرة ربما جرّاء كثرة ما يخلفنه في قلوبنا من ثقوب صغيرة بلا نهايات وما يتركنه من فوضى، ليتني أهتدي إلى عتمة تعيد إليَّ بصيرتي، كنت قبلًا، ساعة أعود من مشاوير الكد اليومي ألج غرفتي وأغمس رأسي في

ماء دافئ يذوّب صدأ الضجيج ويتسرب من رأسي كالزيت الطيار، أحسه يتبخر من أذني فلا أعود محملًا بأعباء شخوصي وأحداثها، أطفئ كل الإضاءات وأغلق كل النوافذ فلا يبقى سوى بصيص نور ضئيل ينبعث من ضوء القمر وشعلة الشمعة المرتجفة، لحظتها يتمثل لي الحلم يتأرجح ما بين النور والنار،ليتني أفعلها اليوم. كنت قبل تهاني أرسم الأنثى على مقاسي، وبقدر حاجتي إليها أخلع عن جسدي كل الزوائد، ومن شعلة القادح أتلمس لذتي، أسكبها على ملامح أنثى، أستلها أحيانًا من مسلسل أو حتى مشهد من فيلم، أستحضرها، فأشعل لها شمعتين نصبتهما على عرشين من الشمعدان الموضوع على رف صغير في زاوية من الغرفة، أشعلهما بهدوء وصمت وتأمل، ثم أعمد إلى زيت عطري فوّاح أسكبه فوق جسدي وأمرّره على مساماتي بعناية فائقة حتى يكتسب لمعة الضوء وأنا مستلق برفاهية ملك كمم أفواه رعيته؛ لأشرع في تشكيل مهرتي أنظر إليها كبتلة تتعشق لإقحوانة، حتى عثرت على تهاني فبت أفتش عن خلية عسل خارج نطاق المكان والصورة والشمعدان، لم يعد لي مذاق أناني، بت أعتني بي لها، أداري لهفتي كي لا تندلق لغيرها كم كنت استثنائيًا مستمتعًا حقيقيًا، مكتملًا بملذاتي بلا حرية، فحريتي أصبحت معها. أذكر يوم لقائنا الأول؛ يومها كنت أنشّ برائحة التوق المنتفشة، استعدادًا لقطف الصرخة من فمها المعفّر برضاب الرغبة. كان المطر الأول كاسرًا ليبس الأرض المجدبة. فتلاحقت أمطارنا. كنت أرانا نهرول، نلاحق جسدينا كمزاليج سجان تتقاحم وتنفلت عن بعضها ثم تعود.

في القاهرة بتّ مرتهنًا لمواعيدها أرمق قبعة وتد الساعة البطيء الذي سيعلن عن مواقيت اللذة المنتظرة، أراها فينهمر التوق بعنفوان أم تحتضن جنينها بعد ولادة مرة، أهبها كلي، مستحضرًا كل الملذات المؤجلة من أيام فائتة. معها كنت طيرًا مستعادًا إلى عشه، هي وحدها رسمت لي فضاء خارج حدود الإسفلت الذي كنت أطرقه بعنت ليل نهار، طيرتني في فضاء تزاول رسمه كل حين، تذوبها الفراشات النامية فوق صدري بلون قوس قزح، كانت تتوسدني منصتة لاختلاجات جسدي المتواصلة حتى أشمر عن لهفتي، باشتهاء عاقل؛ هذا الاشتهاء العاقل جدًا يستحضر مزاجه الخاص جدًّا، سابقًا؛ أعني أول تعارفنا ؛ كنت أرسمها كحالة اشتهاء، كانت اللغة جسدها حتى أصل للحظة التي لا تنسب إلى الزمن، معها أحس أنني أتكون مخلوقًا جنسيًّا بفرادة، لساني لا يعود للكلام المجاني ولا همزة وصل إلى المعدة، بل هو أكبر فاصلة حسية مرتبطة بخلية الشبق الكبرى إليها، فيه أهزّ قوائم خيولها المسرجة، علمتني لذة الرذائل، أجرت على لساني كل الشتائم العاهرة، كاشفة لي مكمن اللذة فيها.

الآن انتهيت من ترتيب حقائبي بذاكرة مشتعلة تصلني بها، فهل أحرقها مثلما تحرق الصور القديمة بعد تفحصها؟ علي أن أفكر كيف الخلاص منها؛ فمثلها مسكون بالمطبات والمزالق الوعرة. استلقيت فوق السرير أستكمل ما بدأته من رواية حفلة التيس لماريو بارغاس يوسا. حتى هذه الرواية عززت لدي رغبتي في الانقلاب، كيف لا أعلم! عندما أعود سأخبركم.

الفصل الثالث

حسابات جديدة

1

عدت من القاهرة مغموسًا بهموم اجتاحتني وحالة انكسار أدنفت روحي. هبطت الطائرة تقريبًا عند الساعة التاسعة ليلًا، عيني يحتلها غبش النوم، كل ما أذكره من ساعة وصولي أني التصقت مباشرة بوجوه رفقاء المهنة، المنتظرين لدن بوابة صالة الوصول؛ لالتقاط العائدين قبل أن تتفتح أعينهم على سيارات الليموزين الفارهة. كان الشاب بسبحته التي اكتسبت رائحة عرقه المختلط برائحة أعقاب السجائر يترصد بعين متلمظة، فكنت له بالمرصاد. اقتنصته قبل أن يرتد إليه بصره فيشيح عينه مخافة مفاصلته بأجرة التوصيل، ولكي أكسر شوكة هواجسه نقدته خمسين ريالًا مقدمًا طالبًا منه التزام الصمت وعدم إيقاظي فيما لو دهمني النوم حتى وصولنا عتبة باب بيتنا. لم يكن السائق بحاجة لتوصيف مطول، فبخبرة زميل المهنة أعطيته وصفًا دقيقًا بعبارة مقتضبة. أرخيت جسدي على المرتبة الخلفية وعيني التي يخامرها ضباب كثيف ساهمة تذرع الطريق الذي أحفظه عن ظهر قلب، أظنني غفوت بدلالة اقتحامنا وسط الرياض سريعًا. كانت واجمة بما يكفي لسحل جزء من صخب القاهرة من رأسي، النوم المنتظر سيتمم تفريغه من بقايا الضجيج. وصلنا ودون أن ينبس ببنت شفة هبطت من السيارة

مدلدلًا حقيبتي، أجرجر قدميَّ بتثاقل، لم أكلف نفسي عناء إلقاء نظرة كسولة وخاملة على سيارتي الونيت الرابضة لصق الجدار وفوق رصيف المنزل. كنت جاحدًا، فللمرة الأولى أخون عشقي لمصدر عيشي ورغيفي، بمعنى لم أعد درويشي الهوى كما كنت، فتنكري لمصدر رغيفي خيانة.. محمود درويش الذي أحفظ قصائده عن ظهر قلب، أولًا: لأنه شاعر غربة الفؤاد والحنين، وثانيًا: لأنه درويش مثلي هو بالاسم وأنا بالصفة. علمني أن الوطن يعادل الرغيف الساخن، فقصيدته أحنّ لخبز أمي اختصرت كل القصائد على الأقل بالنسبة لي، بالرغم مني كنت ساعة أرددها تغرورق عيناي بالدموع.. هذا المساء ذاكرتي ولساني تخشّبا، أبديا مدى عجزي وهواني.. عجزت عن مقاومة البكاء؛ حيث بدأ الدمع يتكاثف كسحب ثقال لتنهمر عيناي بوابل من دموع. لأول مرة منذ ردح طويل لم أبك.. هذا البكاء المفاجئ جاء فجأة مثل غصة أو شهقة عارضة، تركت لروحي سجيتها وجسدي المترع بالتعب أتمطى فوق السرير بحالة استئناس كامل للسرير الذي انفصلت عنه أسبوعًا وكأني أفقد شيئًا من جسدي وروحي، فكرت أن هذا البكاء هو بكاء السرير الملوع من الفقد. هذه النتيجة أراحتني قليلًا وحركت شجون الحنين ترطبت لها روحي، فأخذ لساني بشيء من الثقل يغمغم حتى انفتل مرتلًا أرجوزتي اليومية.. أحن لخبز أمي.. ثم أغمضت جفني المتجحمين، وفي رأسي فكرة واحدة هي المسافة والزمن الممتدان ما بين لقمة العيش اليومية وطموحاتي التي لا أفتأ أكبتها. سبع سنوات ثقال زاحمتني فيها الهموم داخل قمرة الونيت، ثارت اليوم بين جوانحي،

رأيت كيف تنثر النقود كأوراق حمامات ملوثة.. كأني عدت من تغريبة طويلة حرّفت ملامحي، وحفرت بعض التجاويف في وجهي. . ذاك الثقل الذي سقط كنيزك عبر رحلة قصيرة في العمر طويلة في التجربة أجرى أنهارًا كادت تكبدني ما جمعته خلال سنوات الكد، كنت مغمورًا حتى الغرق بالأنثى المولعة برائحتي، تقاربني اللذة وأراهنها على غواية كاملة بتسليم مطلق، لو لم تكن محفوفة بملاحقة الذكور من حولها لانضويت تحت أجنحتها بسكينة ووداعة بلا ريبة. الحمد لله أن أبا بسام العربيد كان صنارة قدرية اجتذبتني من عمق هاوية. الحمد لله كررتها مرات، هذه الضارة النافعة. رائحة الحنين تتضوع من بين شراشف السرير، وقبل أن تستأنس روحي بهذه الرائحة همزت زر تشغيل المسجل الساكن على الكوميدينو عن يميني فانبعث الصوت الذي يؤكد لي هويتي يغني بزفرات صوت مارسيل خليفة باهتزازات عوده الحالمة والمعذبة.. أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي ولمسة أمي.. وتكبر فيَّ الطفولة يومًا على صدر أمي وأعشق عمري؛ لأني إذا مت أخجل من دمع أمي.

فنمت على أنغامها كالممسوس وأنا أردد لعشّ انتظارك لعش انتظارك.

2

نهضت أمسح عن وجهي بقايا الخيبة التي تصيدتني فلم تفلح ونزلت من سريري الذي رأيتني وسطه كالمعلق في السماء؛ والأرض أخالها بعيدة عن متناول قدمي، لا أعي كم من الساعات انسحقت تحت وطأة شخيري. صحوت بثلث عين وثلث عظام وثلث همة باختلاف ما كنت أستشعره سابقًا، فما كان يحدث معي كالحلم، أصحو وكأنني غائص في جوف حفرة، هذا الشعور كان يمنحني الأمن لإحساسي أنني داخل ثكنة لا يبصرني فيها أحد، عدا هذا اليوم فقدماي تتدليان متأرجحتين، أسقطتهما وكأنني أقفز ببراشوت ممددًا ساقيَّ انتظارًا لملامسة قدمي الأرض.

تسحبت وفي رأسي فكرة واحدة لا تبرحني هي روايتي، لا يكفي تدوين بعض المشاهد أو كتابة قصاصات منها. لا أريدها مفككة وبشخصيات غير واضحة المعالم؛ لذا علي الانتظار قليلًا لاختبار ملاءمة ما دوّنته في مفكرتي الصغيرة، ولكن هل ستفي بمتطلبات نص طويل؟ أفتقر إلى حياة طبيعية لا تصطنع خلف الأبواب والحانات، فماذا عساي أكتب؟ دورت الفكرة برأسي مرة تهاجسني بكتابة (سيرة ونيت): يعني أن أكتب كل الأحداث التي تمرّ علي، ومرة أجد رغبة ملحة في الكتابة عن الشخصيات التي أقلّها

بونيتي يوميًا؛ فقط يكفيني تحريك لساني قليلًا مع الركاب لينثروا بتلقائية كل أوصابهم. هنا انبثقت فكرة تضمين الرواية معاناة الناس الطبيعيين الذين لم تلونهم المادة وتعبث بهم نزواتهم. ومع أني لا أبتغي أن أكون روائيًا استثنائيًا، فإن ما يدور في خلدي هو الغوص في صميم المجتمع، لكشف ما توارى خلف الجدران المنسية من أبناء التراب الذين تلطخوا بوحله؛ لذا سأكتب من واقعي، فأنا أقابل يوميًا عشرات من الناس المثيرين لفضول أسئلتي، فهم كافون ليعبئوا روايتي بما يفيض من الدموع والعذابات. قررت أن أبحث عنهم وأجدّد عهدي بهم؛ لأدوّن كل ما سيتفوهون به عن ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، لن أفوت متعة الحكي معهم، وفي المساء سأقوم بتدوين ما خزنته ذاكرتي، سأفرزهم بعناية.. سأهز إليهم بكل أسئلتي المعلقة بجذع دماغي، فهؤلاء الناس الطبيعيون بامتياز صادقون بامتياز، من بين هؤلاء الناس الذين تقاطعوا مع حياتي ثلاث شخصيات محددة، ألقت بظلالها لم تنقشع من ذاكرتي، تاركة بصماتها التي لا تزال طازجة، هؤلاء الأبطال الحقيقيون، لم يستسلموا لوحشية مدينتهم التي تلبس واجهات زجاجية كامرأة تتزين بعدسات لاصقة، هؤلاء هم (الطقاقة بخيتة أعني ضاربة الدف، والبدوي بداح ذو الوجه المجدور الملقب بالخرش، وصلاح المدني) كل واحد منهم مشحون بحكايات طبيعية، سأوقع أحداثها وفق ما يعن لي من مصادفاتهم، سأشكل منهم مادتها الطبيعية وعصارتها الحقيقية، ولن أكشف لهم عما أنوي القيام به، تصوروا معي لو أخبرتهم فكيف ستكون ردود أفعالهم؟ هل سيرقصون فرحًا أم ستربد وجوههم وتزبد

أفواههم بكلمات نابية وأيديهم بتهديدات حازمة؟ (حقيقة) لا أدري؛ علمًا بأني لا أجيد لعبة الاحتيال ولا أتقن استخدام كلمة (طززززز) تلك التي يفجرها بعضهم بلا مبالاة في وجوه الناس كعلكة باردة تنفخ بمزاج عال جدًا وبأعصاب مثلجة.أعلم أني من اليوم سأقود نفسي إلى عالم مجنون، قد أقاد عقبه إلى مستشفى شهار، فما يرتادني الآن جنوني. الكتابة التي لا تعني لي ترفًا بل حياة، ألبسها كمعطف شتائي، مثل عباءة بداح الوبرية الملصقة ببدنه صيفًا وشتاءً. وكحمولة بخيتة التي تؤلم كاهلي وأنا أسقطها في صندوق الونيت، وكأوراق صلاح المدني التي تلوّنت حوافها حتى أصبحت بلون باطن يده من طول مقامها بين أصابعه.. هؤلاء لم أسأل عنهم يومًا ما بما يحقّق لي فائدة معلوماتية تروي فضولي، حيث لم يكن لي فضول، بل على العكس كنت أوارب لساني كي لا تتحرك أرواحهم الملبدة بالوجع فتنزف بالمعاناة. واليوم سأقتحمهم بفضول متربص، فمعنى أني سأتخذهم أبطالًا لروايتي.. أن أبذل وقتي لهم فقط، سألتصق بهم كالعجين داخل التنور حتى يتورموا بحكاياتهم الساخنة فألتقطها قبل أن تحترق. سألتقط حتى ما تخلّفه أحذيتهم. هؤلاء المنسيون يؤثثون أكثر من رواية حتمًا ستبدأ الرواية من مأزق المدينة التي تورطوا بها بلا حول ولا طول. أعلم جيدًا أنني لن أكون كالكاتبة الأمريكية «هارييت ستو» في روايتها كوخ العم توم حيث جعلت من قضية تحرير العبيد قضية مقدسة، ولن تجسد شخصية بخيتة قضية عالمية تحرّك قلوب العالم لأناس يقبعون في مجاهل منسية؛ أحياء عشوائية من مخلفات الزمن المستنكر. كل ما أتوخاه كتابة رواية للقارئ

فقط لا مكان فيها للنقاد الذين لا يعجبهم سوى ما تخطّه أنامل العذارى، أدرك كأي عاقل حصيف دوافع كل انحناءة ذكورية لأي عصارة تدخل ضمن دائرة الأنثى، حتى وهن يتلفعن بعباءة الحشمة فلا ضير، ما دمن يصهرن زيوت بشراتهن ليكتبن نصًا، ويضغطن بأقلامهن وأقلام أخر، ويذوبن مهجهن وهن في حالة انتشاء تتقطر منها حكاياتهن؛ لذلك تكون قراءتهن شهيّة والتقاطع معهن لذيذ، فما بالك بالتداخل معهن؟ أقصد نصوصهن حتى لا تأخذكم الظنون بعيدًا. أنا سأكتب عن بخيتة المرأة المصبوغة خِلْقِيًّا بالسواد، لن تكون شهية بما يكفي لجرجرة غوايات الباحثين عن روايات فضائحية.. المهم أن أرسل عيني في إثرهم وأرهف سمعي لبوحهم قبل قلمي. لتكن البداية من (الخرش الشيخ بداح).

3

عند الساعة الواحدة ظهرًا، وقت غداء رفقاء الكد من أبناء الطرقات والمشاوير، حملني ونيتي كرهًا إلى خيمة سائقي الونشات والسطحات. كانت طرقات الرياض تتبخر عوادم السيارات، وتتجشأ كربات الازدحام، الرياض لم تعد مدينة مثلى للإقامة، ومع ذلك ينحدر إليها الغاوون من كل حدب وصوب. من غرب الرياض اتجهت نحو الشرق مستلمًا طريق مكة أو خريص سابقًا، ومنه ركبت الدائري الشرقي حتى انتهيت إلى خيمة السطحات الشراعية المنصوبة وما بين المخرجين (14) و(15) لم يتغير شيء. هذه سطحاتهم تصطف قريبًا من الخيمة، الفارق بين زيارتي هذه وزياراتي السابقة أنني اليوم مدفوع بقوة التطلع لشخصيتي الأولى (العم بداح). ولجت عليهم خيمتهم وهم يهشّون الذباب انتظارًا لغدائهم المتأخر على غير العادة. حمدت الله أني وصلت في الوقت المناسب وهم يتلوون من قبضة الجوع الذي قرص بطونهم، وشرد النوم من أعينهم ساعة القيلولة، كان بداح متمددًا كعادته في ركن الخيمة ككلب حراسة. ينشق جيبه عن أحراش شعر أبيض، عندما يملّ مضطجعه أو يهاجمه الذباب الشرس، يرفع جذعه، يطرد غبش الملل بقصيدة، يتبعها بآهة طويلة قائلًا: آآآآه يا وطفا. منها تبدأ حكاياته المشتعلة مع

تنباكه ذي الرائحة النفّاذة. أمعاؤهم تقرقر بين الفينة والأخرى، فلو صمت (الشيخ بداح الخرش) لتحامقوا على بعضهم بسمج القول وتفاهة الكلام. ولو امتد بهم الوقت لطالت حكايته مع وطفا، هذه الحكاية التي لم تكن قبلًا تنخز عواطفي المنسية هي التي رشحته بطلًا من أبطال روايتي. حينما يهمّ بداح بتلاوة حكايته يرخي صوته قليلًا، كأنه يزيح ستارة عن مشهد حي أمام هيبة العشق. يبدأ حديثه عنها بصوت هادئ ورقراق، وكلما مرّ على اسم وطفا المفقودة انتشى طربًا واهتزّ لحم وجهه راقصًا، لا تواري بهجته كل التجاعيد وندوب الجدري التي تملؤه حتى كادت أن تواري عينه اليسرى، إضافة إلى هالة من الخطوط الغائرة، ليبدو وجهه شبيهًا بصورة فضائية لمدينة الرياض. يتلمس ندوبه بأطراف أصابعه وكأنه يعدّها، أو أنه يستحضر بها وطفا، فكل حفيرة صغيرة هي من علاماتها، رسمتها في وجهه كلوحة سريالية. وسأنقل لكم حكاية «صلبيته»، ولكن بصياغة تناسب هيبة روايته، مع إضافات بلاغية تقرّب الصورة وتؤكد المعنى.

من سيرة البطل الثاني
الميت الحي

صحراء جرداء على حدود شمالية نائية، وفتاة لم يستشعر جسدها الدفء قط، حرمت عقب موت أمها بسنوات قلائل العطف مع حاجتها الماسّة لاستشعار طفولتها، بين أحضان صحراء قاسية تشكّلت ابنة للعراء والمجهول والرياح التي تقلّبها كحبات رمل صغيرة. تركها أبوها للخيام السود تحت أعين نساء القبيلة، أغضى عنها متشاغلًا بالسعي خلف لقمة العيش، ناقلًا منتجات أبناء الصحراء من ودك وصوف وأقط إلى القرى المتناثرة على حافات الصحراء، يقايض بها بحسب متطلبات أصحابها، وعندما يؤوب إليهم يقسمون له حصته جرّاء الجهد. عملية التسويق تضطره التنقل الدائم بين بدو الصحراء وهم بينهم سواء، هذه المهنة اختارته عنوة؛ فليس أمثل منها لمن هو مثله بلا رعية من أغنام أو إبل؛ جائبًا الصحراء، متنقلًا بين البوادي يبيع ويشتري، ولا ينسى نصيب النساء من غلته، حتى عرف جلعود بجلّاب الحريم. ترك فلذة كبده تجدف بقدميها الصغيرتين بين بيوت الشعر بشعرها المنكوش، ككتلة زعفران، تلفح وجهها الحليبي شمس القائلة فيتورد بحمرة قانية، وتعيث الرياح بعينيها الكحيلتين. يوم ارتفعت عن الأرض فجأة واشتد عودها وبرز

نهداها، وجدت ما تشاغل به يومها متنقلة بين البيوت، تفلي الشعور وتسرحها وتصبّ عليها الزيت، وتداوي الجروح بأعشاب كان يجلبها أبوها الذي علّمها شيئًا من مهنة التطبيب، فغداة يؤوب من تطوافه بين فيافي صحراء الشمال برمالها السافية، يستلّ من بين أخبية الخرجين الملقيين على ظهر حماره صرارًا ملونة يفكها وينثرها أمامها، حفنات من أعشاب التقطها بعناية، يفرزها جيدًا بحسب فوائدها، ثم يعلمها كيف تغليها وتقطرها، وكيف تستخدمها. وفي ذات غياب رأت (وطفا) أن الشمس تغطس بكآبة لامست شغاف قلبها وأكمدته.. كانت تقف أمام المدى غارسة قدميها في قعر الرمال تتابع وقع خطوات الغروب الكسيح. بما لم تستطع تأويله امتد هذا الحزن الجارح أشهرًا وسنوات على غياب أبيها الذي لم يعد منذ غياب قرص الشمس الأخيرة، وعلى وجنتيها دمعتان لامعتان. استطال عودها أصبحت ببشرة صافية كالبلور وبياض يشتعل حمرة لا يقاربه سوى لون شفق المغيب، هذه الشمس التي اشتقت لها منها معنى للحزن، ولونت وجهها بلون مشع، أما وجوه بقية بنات القبيلة فقد لوّحتها الشمس، وصبغتها بلون حبوب القمح المجروش.

أصبحت وطفا غواية شباب القبيلة ومهوى أفئدتهم على الرغم من تحذيرات الكبار لهم بأنها محرمة عليهم بعرف القبائل، كفاكهة آدم المحرمة التي أخرجته من الجنة وأهوت به في أسفل سافلين. لم تشأ وطفا بنت جلاب الحريم (جلعود) البحث عن سر النفور وفض مكمن السر الذي طالما طرق رأسها، حتى اختلت بإحدى صويحباتها ذات ليلة سمر، في ساعة خاملة من ليلية تمور فيها السكينة وتجتبيها

الوداعة وسألتها ببراءة ملائكية، بعد إلحاح واجترار السؤال أكثر من مرة، أفضت صويحبتها لها بأنها ليست من القبائل المعروفة، ثم زادت بأنها صلبية.. لم تفهم وطفا المغزى، بل تغلّقت أمامها دروب الفهم فاستزادتها، فزادت حديثًا كشف لها حقيقة واحدة أنها ليست مثلهن، فهي ملحقة بوضاعة إجبارية لا يشرّف أي رجل الارتباط بها، فكرت أنها ربما تكون من بنات الجن التي تزوجهن أبوها في هذه الصحراء الموغلة بالأسرار. المهم في الأمر أنها عرفت موقعها من بين بنات القبيلة، لم تع أنها مضمرة في ضغينة قريناتها؛ لأنها أجملهن وأحسنهن خلقة. فهمت فحوى نصيحة قرينتها، فلم تعد ترمي بسهام النظر إلى شباب القبيلة الذين يتمنون نظرة عابرة منها، يقتعدون الرجوم مترصدين لها في ذهابها ورواحها. كانوا يقيسون حتى مقاس وطأتها على الرمال، ويستنشقون رائحة الخزامى المتضوّعة من بين أثوابها، وأعينهم تذرع المسافات التي تصلهم بها، وكأن الصحراء اللامتناهية العمق تكوّرت بين يديها فلا يرونها إلا هي، بأقمارها وشموسها ورياحها وحتى أمطارها، ويوم توارت عن الأعين وخبت رائحتها، نهشتهم الشكوك، واجتالتهم الهواجس، وامتلأت ألسنتهم بالمزاعم. لم يخطر على قلوبهم البتة أنها استدلّت على الشيخ بداح الذي امتلأ جسده بالندوب وتقرّح جلده وتفزّر لحمه جراء الجدري الذي داهمه فأقصوه بعيدًا عنهم؛ تركوه يواجه قدره للذئاب وهوام الأرض، في خيمة نصبوها له على عجل يئن من الحمى والوجع. لم تنس زوجته مزنة بنت شيخ القبيلة الشيخ عامر؛ أن تترك إلى جانبه قربة ماء وإناء يغصّ بعبيط تمر التصق به

خشاش الأرض، لم ينتبهوا إلى ما كان يعتمل ويستقر في جنان وطفا ذات الستة عشر ربيعًا حتى اختفت مختلسة إليه الطريق ساعة ضحى لم تحم فيها الشمس، بجرابها الذي تقلده متنها، حتى وصلت إليه وهو في الرمق الأخير من الحياة. رفعت عن جسده الغطاء الوبري الثقيل؛ لتجد القوارض الصغيرة تتغذى على الندوب المتقيحة. انبرت إليه سريعًا بلا تؤدة، شقّت عن جسده بقايا أثوابه الملتصقة بجسده الناحل، وأوقدت نارًا بين ثلاث أثاف كبيرة، ووضعت فوقها الإناء الذي منه عبيط التمر وضعت فيه بعض أعشابها وشيئًا من التمر وغمرته بالماء وتركته يغلي، ثم راحت تستجمع الرماد من بين أطلال الخيام. رطّبت خرقة اقتطعتها من عصابتها ومسحت بها جسده برفق وأزالت عنه رؤوس النمل الأسود والخنافس والجعول المتيبسة على ندوب جسده، وبقطعة أخرى نشفته، طهرته منها تمامًا ثم تركته قليلًا في العراء حتى تكويه الشمس بحرارتها، ريثما تعد له حفرة صغيرة بطول جسده قريبًا منه. عادت إليه تحمل منقوع التمر والأعشاب المغلي، وجعلت تقطر في حلقه حتى تبلّل جوفه، ثم سحبته نحو الحفرة القريبة وأسقطته داخلها ودفنت جسده بالرماد. تنفست الصعداء والعرق ينزّ من بين أركان جسدها الأهيف. أنهت المرحلة الأولى من رحلة العلاج، وجلست بمحاذاته تعدّ خلطاتها بروية، والنار الموقدة لا تنطفئ. في اليوم الأول ليس منه سوى النفس، وفي اليوم الثاني عاوده الأنين فأخرجته من حفرة الرماد، وفي الثالث صار يسعل وفي الرابع أصبح يحرك أعضاءه حتى انكفأ على شقه الأيمن فابتدرته تستر عورته ببعض الثياب

وهي ترقأ حلقه المتشقق بالسعال الناشف بعلاجاتها، وتمسح على ندوبه ببعض المطهرات العشبية. في اليوم السادس تشققت عينه كطير يفقس من بيضته فيمتلئ بغشاء مخاطي أصفر اللون. نهضت إليه تسند رأسه على فخذها، تمسح الغمص من عينيه وتزيل غبش صفاره عنهما. أخذت الرؤية تتسع على الكون باستدارة وجه فتاة، أبرزته خطوط الكحل في عينيها، اتسعت الرؤية فغشيته الحياة وبدأت همته تزداد، ولونه الحائل يعود إليه وفي اليوم السابع استشرت الحياة، ونهض ماشيًا بنصف عافية يشدّ أزره بعصا غليظة اجتزّتها له من شجرة أثل. مرّر المرآة المشروخة أمامه كي يتعرف على سحنته الفائضة بندوب حمراء، مشط شعره المنهال على كتفيه ثم عقصه غدائر. حذرته أن يمس جسده الماء حتى تندمل جراحه وتجفّ ندوبه. في أيام قلائل صار يطعم الزاد ويمضغ شواء اللحم الذي تعده له ولا يعلم من أين تأتي به. استكمل وسامته البادية من أنفه المسلول وعينيه البراقتين بصفاء تام، وبياض غرته التي كان النساء يجدن فيها مأوى لنظراتهن الشرهة. وقبل أن يتمّ الهلال بدرًا عزم الرحيل إلى قبيلته. في الطريق عرجا على قرية زراعية صغيرة، وهناك عقد على وطفا ودخل بها في ليلتها، وفي صباح اليوم التالي شدّ من أزره ومضى صوب مضارب قبيلته، يواجه قدره المحتوم والجًا تاريخًا منقوشًا بالمعاناة من الأعين الشانئة المنتصبة نحوها كسهام تتأهب للانطلاق. لم يَأْبَهَا بحرارة الصدور الفائحة بالمقت، مضيا يبصمان الطريق بين المضارب ممسكًا بذراع وطفا أمام الوجوه الحائرة والمبهوتة غير مصدقة ما ترى، فالشيخ بداح في قرارة أنفسهم في عداد الموتى ووطفا

الصلبية التي توارت عن القرية في عداد المفقودين وها هما الآن بعافيتهما ينضح وجهاهما بالبشر والسكينة. دخل الشيخ بدّاح على زوجته مزنة بلوم وعتاب فنازعته الشكوى وصبت صوتها مولولة. امتد الصوت حتى انسكب في آذان الرجال قبل النساء، واخترق قلوب الشباب المتعطشة لوطفا، قال لها بصوت مرتعد:

- تركتني للسباع والضباع.. وهي غامرت بنفسها.. لم تخف من عدوى الموت.. وطفا أعطتني عمرًا جديدًا.. فما بقي مني لها وتأمر على روحي.

هذه العبارات وضعت النقطة الأخيرة في تطلعات الشباب للوصول إلى وطفا، فلم يعد بمقدورهم بعد اليوم التربص لها ومعاكستها بمعسول الكلام، والوعود الكاذبة، ولم تعد مجازًا بل حقيقة ماثلة، مرّرها بداح بين أيديهم حالما خرج من شقّ زوجته مزنة وهي تندب عثرتها في زوجها، متمنية موته قبل أن يلحق بشرف القبيلة هذا العار. من جهتهم لم يتوان الشباب عن إبداء ضغينتهم وحسدهم وهم يرون بداحًا يتسرب إلى خيمة الصلبية ساعة تغفو الأعين ويتعالى نباح الكلاب ويشعّ القمر بوشاح ضوئه الكامل، ذات ليلة ساكنة إلا من حرارة أنفاسهما الدافئة باغته الشيخ عامر، مقتحمًا عليه خيمته المتطرفة، ففزع وهو يراه مسدلًا رأسه بين أحضانها تضفّر شعره جدائل. فدعاه للحاق به إلى داره وخرج سريعًا وعيناه تفيضان من الغيظ وأنفاسه تهدر حنقًا؛ وهناك طلب منه تطليقها فورًا أو تطليق ابنته مزنة قائلًا:

- وطفا الصلبية وإلا مزنة الشريفة؟

- بس يا طويل العمر وطفا لقحانة وأنت تعرف مزنة ما عطاني الله منها عيال.

كانت مفاجأة قاهرة ألجمت لسان الشيخ، اتسعت منها حدقتاه وبتلكؤ قال:

- خلاص نخليها عند وحدة من الحريم حتى تولد، بس هاه أنت ما تقرب لها.

وبمنتهى التسليم والعجز صمت بداح وطال صمته، وكلف الشيخ عامر الشباب بمراقبتهما. بات بداح يمرّر قدميه قريبًا منها، ويخاتل الأعين ويلج إليها. وقبل بزوغ الفجر الأول يرتدي أثوابه ويرحل. تنبه إليه الشباب فنقلوا الخبر سريعًا إلى الشيخ عامر الذي يتمهل حتى الصباح ليهجم عليه في شقه المعزول. هدر معه بكلام كثير انتقل مع سكون الليل حتى تناهى إلى وطفا، فهمت فحواه فهو الوعيد والتهديد. في الصباح لم يعثر عليها؛ خيمتها تصفر بها الريح، فتنادى القوم بخبر فرارها. تهلّل وجه مزنة بالبشر واستقر وجيب قلبها، وانفرجت أساريرها، وتغضّن وجه بداح المليء بآثار الجدري، وصار مكفهرًا بلون الرماد الذي كانت تدفنه به، رأى الأشياء تذوي من حوله، وسهام حادة تنطلق من لسان مزنة المبتهجة وكأنها تذر الملح على الجراح. ثورت عظامه المرتجفة بالأسى فقام إلى وتد ساحبًا عباءته الوبرية، وضعها فوق متنه، في قاع الليل الذي لا يزال يجتر لواعج بقايا الشتاء، أيقظ غنمه من سباتها، وهشّها أمامه صوب الجنوب سارحًا بها بين البراري والخيام، وعينه تذرع المسافات

وتقايس الأبعاد والأحجام. اقترب من البيوت مرهفًا سمعه إلى أصوات النساء. اندس بين الرعاة؛ جانبًا الصحراء بأغنامه، ليس له هادٍ ولا أنيس سوى النجوم المتلألئة، فهي بوصلته إلى وطفا التي ترعى هذه النجوم وترعاها. وطفا لمعت في قلبه كالشعرى اليمانية ألمع النجوم وأشدّها توهجًا، يراها قريبة منه، وشديدة الشبه بوطفا، لذلك غرس عقارب بوصلته صوبها، وضعها نصب عينه ومشى متجهًا نحو الجنوب الشرقي. كان الليل قد بدأ ينحسر عن كاهل الأفق. لم يبق من النجوم سوى سهيل المشع بوداعة كابتسامة طفل يتنعم بين جوانح أمه، منحته هذه الابتسامة البريئة سكينة أدفأت قلبه، طاردة عنه بعض همومه. في هذه اللحظة تجاذبته أمنيات حادة كرؤوس المسامير لو أنه لم يعد إلى ربعه، أو نازل دونها كل الرافضين لاقترانه بها، تمنّى لو وقف وقفة الكبش (نجم القطب) الذي لم يحل دون حبه لإحدى بنات نعش أي شيء بما في ذلك والدها الرافض له فقتله وولى بها لاجئًا إلى (الحوزتين)، فما باله تيبس كصنم عتيق نحتته رياح الشمال العاتية؟ أرهف سمعه لحكمة النجوم، كانت توشوش له بما يشدّ من أزره في مواصلة السير. أيقن أنها لا تزال حيّة ترزق، من صوتها المنبعث من داخله، ورائحتها المتضوعة من بين أثوابه. انتصب فوق رجم ميممًا بوجهه المليء بالندوب الطرية قبالة الشعرى، فهبّت ريح رطبة دغدغت مهجته، فانحدر منها يلملم شتات أغنامه ومضى. يتمتم بصوت متعجرف (مالي حياة بدونك يا وطفا).

كانت الأرض قد اكتست بالحشائش والأعشاب، تتضوع منها رائحة الخزامى عقب سنة كريمة بأمطار الشتاء،

فلا غرو في مثل هذا الفصل الربيعي الزاهي بالمروج الخضراء أن تتدفق القبائل إلى هذه المشاتي، ناصبة خيامها قريبًا من الكثبان الرملية. . يعبر قريبًا منها متخذًا من الجواديل طريقًا له بما يصله من فضول الرعاة، تاركًا لحماره قيادة الحلال مسنِّدا نحو الطريق الذي تختطه البهائم بأظلافها ومناسمها وبعورها، يتناهى إلى سمعه دندنة نجر يقرع من بعيد فتعبث برأسه رائحة الطمأنينة وتنشي روحه لفنجان الكيف.. هذا كاف ليطلق صفيرًا متقطعًا تستجيب له أغنامه فتربض في مراحها الفسيح، متحلّقة حول القائد الحمار، يتجه صعدًا نحو الخيمة التي تومض نارها، هذا الوقت من المغيب يبدّد الملامح، فلا دليل سوى تقاسيم الصوت ليتعرف بعضهم إلى بعض. يلج معلنًا عن نفسه بأنه «طرقي»، يجلس بين يدي مضيفه وليس منه سوى لمعة العين ووجه بدت ندوبه كحب الرمان اليابس، مستعدًا لكل الأسئلة المحتملة، والمضيف يقريه ويؤمنه متحينًا الفرصة لسماع ما في جعبة الطرقي الغريب الذي نهش الجدري وجهه من حكايات يقطع بها وتيرة الليل الممل. فالضيف للبدوي بمثابة كنز معبأ بالمعادن الثمينة، والأسرار الدفينة، ليس منها الذهب فقط ومعرفة الرجال كنوز، وبداح كنز بما تفيض ذاكرته بغريب الحكايات وجميل القصائد، ارتخت أطراف المضيف بنصف وجه تلونه النار بحمرتها، لا يفتأ بين الفينة والأخرى كلما تضاءلت ألسنتها يغذيها بالسمر، لتتمازج برودة نسائم الربيع الرطبة مع الدفء المشبع بالحكايات، ولم يحرم بداح مضيفه من ممارسة فضوله فمنحه متعة السمر بغريب حكاياته وجميل أشعاره، المضيف شبه مستلق يضبط

أنفاسه على كل كلمة يلتقطها قبل أن تنزل بعيدة عن أذنه يقلبها في رأسه ثم يسأل عن فحواها. أخيرًا استوى بداح مقتربًا إلى الشيخ المضيف وبصوت جهور ورتيب قصّ حكاية الفتاة الصلبية التي أحبها شيخ القبيلة، وتزوجها ضاربًا بأعراف قبيلته عرض الحائط، ثم حبلت منه، ولكي تأمن على نفسها وجنينها من بطش الشانئين فرّت بليل، ولم تعد. انتفض الشيخ من مكانه كالمقروص وبأنفاس نافرة، معربًا عن موقف صارم تجاه البدوي الخائن لافظًا من لسانه عبارات أقلها لعنات جاشت من صدره كشواظ نار حارقة. صمت قليلًا وأحنى رأسه إلى الأرض ينكت بعصاه حواف النار المُحاطة بالحصى. نهض بداح ينفض بقايا الدفء المتشبث بجسده مستقبلًا نسائم ليل الربيع البارد، لم يسمع أو ربما تغافل عن مضيفه وهو يدعوه للنوم في المضافة. انحدر بخيبة كبيرة إلى حيث أغنامه الراقدة وقريبًا منها افترش فراء كان يسدله على ظهر الحمار متوسدًا حفنة من الرمل الرطب. اضطجع على ظهره، نظر إلى المدى فبدا له مغارة سوداء كالحة، في مثل هذه الحالة يعود إلى نافذته «سماء الليل» المشعة بنجوم تتلألأ في بروجها كحفلة عروس، لا تليق إلا بوطفا. كانت نسائم الهواء الرطب العليل تنقل لمسامعه أدق تفاصيل الكون، حتى النجوم تبوح بأسرارها، أرخى جفنيه الساهدين، وقبلما ينداح به زورق الأحلام في بحار النوم اللجي تناهى إلى أذنيه همهمات، أخذت تعلو ثم تهبط، حتى تفاقم الشجار، وتحدد مصدره بشكل دقيق، تدحرجت إليه من خيمة المضيف عبارات فحواها ملاحاة وعتب بينه وبين زوجته، انقلب على شقه الأيمن علّه يلتقط

اسم وطفا من بين أكوام الصوت المتذمر، فما هي إلا برهة محسوبة في ساعة الصحراء، فجأة خرج الشيخ حاملًا بندقيته ودونما إبطاء اتجه إلى رعية بداح وأطلق على إحدها عيارًا ناريًا، ثم عاد صاعدًا إلى خيمته، بخبرته البدوية، لم يفزع بداح أو يتحرك للحيلولة دون مبتغاه، مشى خلفه الهوينى حتى دلف إلى خيمته، أقعى بداح بخوفه ملتصقًا بها يلتقط ما يتفوهان به، كانت أنفاسهما حارة والحديث يخرج من أنوف تصفر بالشنآن، وأصوات جرشها العناد سمعهما يتعاندان:

ـ ثورت بغنمه، وإن ما عطيتيني أبذبح الضيف.

ـ اذبحه.. هذا ضيفك.

سمعهما يتعاركان وهي تدفعه عنها، وهو يحاول رفع أثوابها واقتحامها بشهوة تامة بلهاث ساخن فلم يتمكن منها، ثم نهض يحمل بندقيته قائلًا بأنفاس متقطعة:

ـ طيب.. تشوفين عز الله اللي ذبحته وأنت السبب.

امتلأ قلب بداح بالرعب ونضح جبينه بعرق بارد.. فهو أمام عزيمة البدوي كبش فداء شهوة ليلة لم تكتمل، يعلم أن البدوي لن يحول دونه شيء في سبيل الظفر بنزوته. وقبل أن يبرز إليه مشتطًا توارى خلف البيت. رآه ينحدر باحثًا عنه فاقتحم بداح البيت متفحصًا بعينيه المستوحشتين مخدع المرأة، ومن ضوء سراج واهن تبين المشتهاة المتمنعة، ألفاها تتدثر بغطاء ثقيل، نبس بصوت واهن على مرمى قريب فتنبهت إليه.. قالت:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.. من أنت؟

ـ أنا ضيفكم اللي طلع رجلك يذبحه.. وداخل على الله ثم عليك.

ضحكت وأشارت عليه بالجلوس في زاوية في خيمة الضيوف ولا يبرحها، وإن داهمه النوم فلينم حتى الصباح، فامتثل لها وعادت إليه سكينته، خرج متسحبًا واندس في المكان الذي أشارت به عليه، وأذناه مشنفتان على وقع خطوات المضيف، بأنفاس متحشرجة. سمعه يدخل عليها وتسأل:

ـ عسى ما ذبحت الضيف وفضحتنا بين العربان؟

ـ ما لقيته، أظنه عرف بسالفتنا وشرد.

ـ أجل تراه بحمايتي.. وأفداك اللي تبيه.

سمعهما يتعاركان ولكن بأنفاس متخمة بالشهوة، وأصوات متقطعة أعادت إليه روحه المختطفة من الجزع.

ها هي ذي الصحراء المسكونة بالغواية تستضعف وحدته، فأدرك هوانه عليها، فكلها ملبوسة بالأرواح المستشرة، والأهوال تزهق الأرواح لحاجات دونية. وتعتق أنفاسًا لحقائر الأمور وصغائرها، معادلة صعبة لم يدرك ويلاتها حتى ساح هائمًا في فلوات متصحّرة. استشعر أنامل النوم تداعب أجفانه عقب ما سكنت عظامه من رعدات الموت المحتوم، فنام ولم يصح إلا ساعة اقتحمت الشمس مداخل بيت الشعر، وتناوشته بسخونتها. كان الشيخ يوري ناره استعدادًا لحمس قهوته المرة.. نهض من فراشه فرحب به المضيف بوجه مشرق وابتسامة رضا.. لم تند من ثغره له أدنى كلمة حتى صلى ركعتي الصبح، ثم جلس إلى جانبه يرتشف

القهوة بصمت، والشيخ يتلمس كلمة اعتذار عما بدر منه ليلة البارحة. وكي يختصر بداح عليه عناء هذه المهمة، نهض بعدما ارتشف الفنجان الأول مستأذنًا بالرحيل. لفّ عباءته على جسده وأقحم قدميه بنعليه باستنفار كامل لمواصلة المسير، وقبل أن يشيح بوجهه عنه قال له الشيخ المضيف:

ـ السموحة يا وجه الخير.. واستر ما واجهت.. وتراني عوضتك بعشرة طليان عن اللي صوبتها أمس.

ـ ما صار إلا الخير. وما راح إلا الشر. وما قصرت.. في أمان الله.

انتهت هذه العبارات الرتيبة وكأنها مستلّة من قاموس جاهز، ثم مضى يهش على غنمه وينتزع حماره من مراح الكسل.

مرّ باختبار الصحراء الأول المقترن بعشوائية الموت، فالموت الذي تجرع ويلات انتظاره تحت سخونة حمى الجدري، أتاه خطفًا، دون انتظار، وبلا جريرة مغتفرة. لم يتغير شيء فهو يعرف مكنونات الصحراء وطقوسها وقوانينها، مستقبلًا كل ما تخفيه من مفاجآت ومتناقضات، المختلف هنا أنه أضحى مجرّدًا من عصبته موطنًا نفسه على مواجهة تقلباتها بنفس راضية وقلب رابط الجأش. سرح غنمه غير عابئ «بحوافها» «ونطلانها» المتربصين لكل لحظة سكون، صار يحاذر الابتعاد عن «المرحان» القريبة من الخيام فلا يبيتن الليل أو يهجع إلا قريبًا من مراقد الماشية، فمتى تعرض لغارة ليلية فسيكون مشمولًا بحماية القوم.

بدأت روحه تتهيج لمنظر الأرض المكسوة بالحشائش

الخضراء والنباتات الرقيقة الناعمة المتراقصة بغنج على إيقاعات الهواء الساجي. والخراف منكبّة تتغذى على أطايب فصل الربيع. مما رمّم روحه المتشققة غوصه في بطن الصحراء، وابتعاده عن حدود قبيلته التي لم تكسبه أدنى امتداد يصله بها، حتى سحنته بدأت تتشكل لتأخذ ندوب الجدري مكانها الطبيعي على صفحة وجهه فلم يسلم منها سوى عينيه. عرف بين الرعيان حين يمرّ بهم بـ(الخرش) أراحته هذه التسمية قليلًا من عبء اسمه الذي يعيده إلى جذوره، وقبيلته التي استنكرت رغبته وتجهّمت له وناصبته العداء لمجرد أنه اقترن بواهبته الحياة وأجمل خلق الله وطفا. نسي الليالي التي انصرمت، فلم يعد الوقت يمثّل له أهمية تُذكر. كان اهتمامه منصبًا على الطريق الذي يصله بها، وكيف بخبرته البدوية يتحايل على الحنشل والنطلان. مع كل الأهوال التي تعصف به، لم يتراخ لحظة، بل جدّ وسعى حثيثًا للعثور عليها، ناذرًا لها حتى الرمق الأخير من روحه، فالحياة بدونها موت بطيء لا معنى لها. كان ينام أول الليل ويصحو عند الفجر، يصلي صلاته ويوقد ناره ويرتشف قهوة مع كسرة رغيف يابسة ثم ينطلق بغنمه، لا يتوقف حتى ساعة الظهيرة، حين تتوسط الشمس كبد السماء. كثيرًا ما يسوق غنمه وفق تنوعات الحشائش والأشجار. فهو يعرف المنطقة التي يجوسها من رمالها وكثبانها وجبالها، وساعة تخلّت الأرض عن دمامتها وتخلصت من كلاحة الجبال وتوشحت بلون حمرة قانية أدرك أنه يلج صحراء القصيم ومراعيها. مكث بين ربوعها مدة أطول، يقتات عيشه من غنمه، يبيع ويشتري من نتاجها. وفي ليلة سوداء بلا قمر أغار عليه

(نطلان) نهبوا حلاله، فلم يبقوا له سوى الحمار، بقي مجردًا لا ماشية ولا مال. . أفلس تمامًا وصار يضرب أخماسًا بأسداس باحثًا عن حيلة تخرجه من مأزقه. مشى مع طلوع الفجر الأول، يترقب بين المضارب يفتش عن غنمه بين الرعيان فهو يعرفها مثلما يعرف أصابعه العشرة بوسومها، مشى حتى غابت الشمس وزحف الليل يجرجر عباءته السوداء خلفه، يطغى على الكون بهيبته وجلاله، فقرّر أن يبيت قريبًا من مضارب بدو كرام، رأوه منعزلًا بحماره، فأرسلوا له خادمهم يستطلع أمره فدعاه لخيمة الشيخ الذي استقبله وأجلسه إلى جواره، مستمعًا بإنصات إلى بداح وهو يخبره عما تعرّض له من نهب وبات خالي الوفاض. لم يتحرك للشيخ جفن مكتفيًا بقوله: يعوض الله عليك. تناول معه عشاءه، وطلب منه المبيت عنده، اعتذر له بداح عن قبول هذه الدعوة الكريمة، وطالبًا أن يتركه يخرج لبراح البر يتدبر أمره على مهل فهو لم ينس بعد حكايته مع شيخ البدو الذي نوى قتلة لتحصيل لذته. نام بداح إلى جانب حماره. لا يقدِّر كم نام ليفيق على صوت ثغاء غنم تقترب منه، تلفت يمينًا وشمالًا، يخترق سدف الظلمة حتى تراءت له أزوالها ومن خلفها ظلال إنسان يهشّها بعصا طويلة، من فرحته قفز يتلمس طريقه إليها، مستقبلًا إياها بأحضان لاهثة كأطفال صغار ولسانه لا يتوقف عن الشكر لله، دونما إمعان نظر إلى وجه جالبها. شكره متشاغلًا بتلمس (وسومهن) فالتحقت عينه سريعًا بضوء خاطف من نار توقد قريبًا منه، قال لنفسه (وش هالنار اللي تقيد بها السرعة) أطلق الغنم وراح بخطوات وئيدة يمشي على حذر صوب النار، ثمة رجل جالس قريبًا

منها، فدنا منه حتى وافاه فأفزعه ما يرى، لم يكن رجلًا كما خمّن بل امرأة جالسة تلمع النار في وجهها، فروَّعه جمالها وعيناها القادحتان ببريق غريب، فتاة بيضاء وكحيلة العينين، تلف وجهها بلثام كلما ارتخى أشرق محياها بسحر غريب. غرست عصاها الغليظة بباطن الأرض، اقترب منها مرتعدًا. قالت: اجلس يا بداح.

فاستبد به الفزع وغشى قلبه الارتياب، فشل في مداراة تجلده، غرابة الموقف وتعرفها عليه أقوى من احتمال التصديق. تابعت كلامها قائلة:

ـ هذي غنمك وصلتك، واللي يغفل عن حلاله يضيع. هذه الصحراء ملوكها الأقوياء .

أجابها مرتبكًا:

ـ صدقت يا بنت الأجواد، بس أنت إنس وإلا جن؟

قالت:

ـ لا أنا إنسية بس الجن الخبثاء ما يتركون الناس.

جلس وجبينه ينضح عرقًا من الخوف، فالبدوي لا يخيفه شيء أكثر من الجن والمجانين والمجذومين والذئاب، فما بالك لو صارت جنية. قال لها:

ـ ما فهمت!

قالت:

ـ شف وراك ولا تطول.

مدَّ نظره نحوها فلم يبصر إلا وميض نار يمرّ أمامه خطفًا. قال لها: أرى نارًا تقترب وتبتعد.

قالت:

ـ ايه.. هذا هو..

ـ وهذا وش يبي منك؟

سألها وهو يرتجف بحياء رجولي. قالت:

ـ هذا (سِيسْران) جني خبيث، طلبني للزواج أكثر من مرة وعييت، وصار يلاحقني بالفلاة.

سألها بارتباك:

ـ أنت من أي عرب وش اسمك؟

قالت:

ـ أنا اسمي شنيشل، تركت دياري من زمن بعيد، وصرت بنت هالصحراء.

ـ سألها:

ـ ما تخافين؟

قالت: ما أخاف ومعي هذا الخبيث، فهو حارسي الأمين ولعنتي المقيمة

سألها بتعجب:

ـ ما فهمت؟

أجابته ضاحكة:

ـ هو يعشقني. عجز عني. استرضاني بكل شيء، بس

أنا ما أبيه. وهو يحاول يسكنني بس عجز عني ما تشوف أنا متلطمة بهذه، بهالغلالة. لو تركتها وطاحت يمكن يقدر. محاذرة التسلل من أنفي. ولو فكيت تعويذتي كان داخلني من أي جهة يبي .

فكشفت عن ذراعها وأرته وشومًا كثيرة. وهي تقول:

ـ شف ها الوشم، وشمته بنفسي من نار الجن، حتى أحرمهم مني، بس هالملعون يقدر لو أحرقه فهو من عفاريتهم، ولو سواها سهل عليه كل شيء لثامي يطيحه الهواء وتعويذتي يبلى خيطها.

قال وهو مزدحم بالرعب.

ـ طيب لو طلبت أن تكشفي عن وجهك.

سألته:

ـ ليش؟

قال:

ـ أبي أشوف سرّ تعلق هالجني بك.

قالت:

ـ ممكن أكشف لك بس انتبه لي زين ماني مطولة؛ وتبي تحس فيه حولك.

قال مذعورًا:

ـ أجل نؤجلها، أخاف عليك منه.

سريعًا حسرت له عن وجهها، فتعالت ألسنة اللهب وسطعت على صفحة وجهها. أبصر فيه جمالًا لم تر عينه مثله قط، واستطار لهيب النار يرتفع ويهبط، وطنين في أذنه وغبار

يتطاير حتى أعادت اللثام فهدأ كل شيء، قال لها مذهولًا والخوف يتملكه وأنت أين تسكنين؟

قالت:

- ديرتي الصحراء، هالأيام أسكن حول ها الديار مع أنهم يضايقونني، ويرمونني بالحصيان.

- وش مجبرك؟

ارحلي.

- شف.. أنا أعرف إن الحنشل يخططون لغزوهم، وهذولا الناس ما لي عليهم طريق وأنا ودي أساعدهم.

- طيب ليش ما تعلمينهم؟

- لو قربت منهم لأطلقوا علي النار.

- أعلمهم أنا؟

- إذا تقدر ويسمعون لك اطلب منهم على الأقل يجهزون، ويعدون عدتهم أما أنا ماني مبعدة عنهم متى احتجت إلي فأنا في مثل ها الوقت ابصير جالسة حول هالنار.

ثم نهضت تنفض الحشائش الصغيرة العالقة بأثوابها، تسحب عصاها، مشت بخطوات واسعة واختفت، ابتلعتها الظلمة فتعالى شهيق النار، وكأنها تصعد إلى السماء، حتى خمدت، أحس أنها ليست نار إنس، تراوده الشكوك في أمرها. عاد بداح إلى أغنامه يفكر بوعده لها، فهل سيفي لها ويخبر القوم بعلم غيبي؟ كانت السماء قد بدأت تتخضب بالأبيض وصوت مؤذن الفجر يصدح، صلى حيث هو

جالس، ولما انتشرت الشمس، اتجه إلى الشيخ المسترخي على متكئه يهشّ النوم من عينه، جلس محاذيًا له، وقبل أن يسأله الشيخ عن أحواله أعلمه برجوع غنمه، رفع الشيخ جسده المسترخي مستغربًا وهو يقول:

ـ ما خبرنا النهابة يرجّعون حلال الناس!

قال بشيء من الحيرة كيف يقنعه:

ـ كلامك صحيح يا طويل العمر، بس لو علمت بحكايتي لاستغربت أكثر.

هزّ رأسه وهو يستعد لسماع السر فقال له:

ـ الذي أرجع حلالي هي نفسها بنت الصحراء حول مضاربكم.

ـ لا تقول ثعلة.

ـ هي اسمها شنيشل وأنتم سميتموها ثعلة.

ـ أيه هذه مسكونة، نطردها وتعود.

قال له بتحفز:

ـ يا شيخ هذه أعقل العاقلين، والله اعلم إنها مخاوية.

سمع الشيخ كلمة مخاوية فصارت يده التي تحمل الفنجان تهتز وهو يتعوذ من الشيطان، قال بداح متابعًا أكمل:

ـ لا يا شيخ هي ما تخوف ولو تدري وش علمتني لاستغربت أكثر!

كأن الشيخ لا يريد استكمال الحديث عن المرأة وعلى مضض قال:

ـ هاه وش قالت لك؟

أجابه سريعًا:

ـ يا شيخ.. علمتني عن غزو قريب جايكم.

كان الشيخ إلى التكذيب أقرب فقال:

ـ اتركها عنك هذه مجنونة، وبعدين أنت تقول هي اللي ردت حلالك وش أدراك أنها هي اللي نهبتها ثم رجعتها لك.

لم يفكر بداح على هذا النحو؛ بل كان مأخوذًا بما رآه منها. حار في أمرها وجلس الليالي ينتظر نارها، فلم يرها حتى صبحهم غزاة يريدون نهب حلال الناس، فبرزت شنيشل تركض كفرس جموح، تكرّ عليهم بعصاها الطويلة المنتهية برمح تشق بطون الرجال وتطرحهم صرعى.. قاتلت ببسالة وشكيمة لا يقوى عليها الرجال فكانت عن ألف رجل. وشيخ القبيلة جالس في خيمته مذهولًا مما يرى، حتى انتهت المعركة بانتصار شباب القبيلة تقودهم شنيشل، فكان الانتصار انتصارها، أخرست ألسنة القوم وبهتت وجوههم، فلم يعثر الشيخ على عبارة مناسبة يقابلها بها، ويمسح بها كل ما مسّها من أذى على أيدي غلمانهم، سوى «بشته المقصب» الذي خلعه من على متنه ووضعه فوق كتفيها. في ليلة تالية أقام حفل انتصار دام ثلاثة أيام على شرفها. أكل القوم ورقصوا وتسامر الشباب وهم يتغنون باسم هذه الفارسة النجلاء وجمالها الذي خلب ألبابهم. وفي الليلة الثالثة خطب الشيخ الناس خطابًا طويلًا عما أبلت هذه الفتاة من بلاء حسن، فلولاها لما استطاعوا ردّ الغزاة ولأصبحوا على بساط الفقر عالة يتكففون الناس، صور ما سيلحق بقبيلتهم

من ضعة وبؤس، فالقبيلة تُقاس بقدر ما تملك من إبل وأغنام وإلا صارت همَلًا بين القبائل، وهذه المرأة التي عرفوا اسمها الحقيقي (شنيشل) دون إضافات تذكر، لها الفضل بما آلت إليه أحوالهم، لذلك وقبل أن ينهي الشيخ خطبته العصماء طلب على الملأ خطبتها لابنه. كانت ساكنة تستمع بجمود، لم تنبس شنيشل بكلمة تذكر، حتى أنهى الشيخ خطبته وجلس ودارت القهوة بين الجميع، حينئذ أحنت شنيشل رأسها نحو الشيخ تهمس في أذنه قائلة:

ـ يا شيخ أنا قمت بواجبي، أما الخطبة فاعفني منها ستجد لولدك خيرًا مني، من بنات القبيلة.

ردّ الشيخ بشيء من التصميم قائلًا:

ـ لن أجد خيرًا منك. أنت من الليلة بنتنا.

سكتت شنيشل وهي تتفرس بلهب النار المتقدة الزافرة بعلو، آخذة بالتصاعد لتطال ألسنتها سقف الخيمة، والرجال ينظرون بأفواه فاغرة فاقدي الحيلة، عاجزين عن إخمادها، فصارت تقفز من مكان إلى مكان حتى أتت على الخيمة كلها، فخرج الرجال هاربين بجلودهم من نار تتلظى لم يروا مثلها قط. فلم تخب حتى التهمت الخيمة وأصبحت بما فيها هشيمًا تذروه الرياح. وعينا الشيخ المفجوعتان المذعورتان المستريبتان لا تبرحان عيني شنيشل. التي تراجعت ببطء إلى الوراء حتى غاصت في جوف الظلمة، لم يفطن لها أحد وهي تلوذ بالفرار.

كان بداح يشاهد بصمت، فلم يشاركهم إخماد النار المشتعلة، تسحّب خارجًا ببطء. افترش عباءته قريبًا من

غنمه، وقبل أن يغمض جفناه أبصر بصيص نار تلمع في المدى البعيد، وتذكر ما كانت تقوله شنيشل، فزّ من رقاده يشتت خموله، انحدر تجاهها، فألفاها كما توقع قابعة أمام النار صامتة، في عينيها حزن. جلس وهو يكسر أعوادًا يابسة وسألها:

ـ شنيشل، وش صار؟

بصوت مبحوح يغالبه الحزن قالت:

ـ هذا (سِيسْران) ولو ما حرق البيت يمكن يضرّ الشيخ والا ولده.. ضرر أهون من ضرر.

ـ يعني حاجر عليك، أي واحد يقترب منك يقتله؟

ـ وأكثر.. هذا طايش. ويسوّي أي شيء، تعرف أنا ما قاتلت معهم إلا بقوته هو قاتل ومجموعة من الجن. فأول ما وصل الغزاة قام (سِيسْران) ومن معه خطفوا أبصارهم وأنا أحصدهم برمحي.

ـ طيب أنت هالحين تبين ترحلين؟

أنا بنت الصحراء أبدور على أهلي، يمكن أقدر أتخلص من (سِيسْران). هالخبيث يكشف لي كل خبايا الصحراء والناس الا اللي يعرفه عن أهلي ومساكنهم.

لم يقتنع بداح تمامًا.. فثمة أسرار تكتمها عنه، وإلا كيف وحدها ومن بين نساء العالمين ترى الجن والعفاريت وتألفهم ويألفونها. قال بداح مترددًا:

ـ لا أظن أن هذا هو السبب بس، وإلا كيف هزمت الرجال.. شفناك تقاتلين بقوة ألف رجل؟

صمتت شنيشل قليلًا، وكأنها تدبر أمرًا ثم نطقت قائلة:

ـ ما تصدقني لو قلت لك، أو يمكن تخاف مني.

ـ لا قولي ما أخاف بإذن الله. أنا مررت بأهوال وشفت اللي ما تصدقه العين ولا يدخل العقل.

قالت:

ـ طيب اسمع:

ـ أنا بنت رجل يقال له سليمان من قبيلة معروفة ومن أم اسمها شنار.. لا تستغرب هذا الاسم ابعلمك وش القصة.

اتسعت حدقتا بداح بين مصدق ومكذب.. فهمت ما يفكر به وقالت:

ـ أدري أنك بين مصدق ومكذب بس لا تقاطعني حتى أنتهي..اسمع:

أبي سليمان كان جمّالًا يقطع الصحراء من جنوبها حتى أقصى شمالها ومن غربها حتى أقصى شرقها طلبًا للرزق. ذات ليلة وبينما هو يستدفئ بناره سمع صوت مستغيث: يا وجه الخير أنقذني.. الذيب الذيب، فأمعن أبي النظر، فإذ بذئب يطارد صاحب الصوت الذي لا يستبينه، فسحب بندقيته من خرجه فصوبه نحو الذئب وأطلق عليه النار فأرداه قتيلًا، تلفّت إلى الجهات فلم ير المطارد المستغيث فعاد إلى ناره وفي رأسه شبهة، وما هي الا برهة حتى بزغ إليه من الظلمة رجل فارع الطول أبيض، بأردان طويلة ليس عليه أثر السفر، نظيف الثياب حسن المظهر. وقف يستأذن

بالجلوس فأذن له، جلس لا يفصله عن أبي سوى المتكأ، قدّم له القهوة فلم يتناولها مما حرك الشكوك تجاهه. شكر أبي على صنيعه معه وأراد أن يردّ إليه معروفه، قال له الرجل:

ـ أنت أنقذتني وأريد أن أرد هذا الدين.

لم ير أبي هذا الكلام سوى عادة عربية معروفة، إن قبلها فهي له وإن ردّها فلا ملامة عليه، إلا أن الرجل ألحّ عليه، ووعده بما يغنيه بقية حياته عن حياة الترحال وركوب الخطر.. فكر أبي مليًّا في الأمر فسأله:

ـ أين دياركم؟

فأشار الرجل إلى الجهة بسبابته، فكانت على الطريق ذاته الذي سيسلكه، في الصباح وافق أبي. وفرح الرجل قائلًا:

ـ طيب أنا سأسبقك، ربما سألتقيك في الطريق.

وقبل أن يجيبه أبي بشيء.. قام من مكانه وتلاشى فجأة في الظلام. وكما وعد وافاه في الطريق ليلًا على الهيئة نفسها، لم يتغير من سحنته شيء، الغريب في الأمر والمثير للقلق أنه لا يظهر له إلا ليلًا. وصل أبي ديار الرجل مع غروب الشمس، فاستقبله رجل قاد بعيره ممسكًا بالخطام، حتى أوصله إلى رجال مجتمعين بوجوه بيضاء ولحى طويلة مهذبة، يلتفون على نار كبيرة تنير وجوههم. جلس أبي إلى جانب الرجل الطويل، حتى لكأنه تمثال مصبوب من فضة نقية، التفت إليه وشكره على صنيعه مع ابنه، فلولاه لأكله الذئب، رأى قطة تتهادى بينهم وتقفز في حجر الشيخ، كانت

تنظر إلى أبي من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه وكأنها تتعرف عليه، ثم مدّت عنقها نحو الشيخ وكأنها تهمس له في أذنه أو هي كذلك، ثم قفزت تتمطى قريبًا من أبي، دارت حوله دورتين واختفت، تحدث الشيخ قائلًا:

- لا أدري بماذا نكافئك؟ ولكن ليس أجمل من النسب ففيه قربى، وحسن وصال.. ونحن نريدك بيننا.

الزواج.. هذا ما لم يخطر على بال أبي، وكان يلتمس الاعتذار عن هذه المنحة الكريمة، فكّر أن يخبرهم عن زوجته التي تنتظر عودته محملًا بالأرزاق، ولكن كيف وهو لا يزال يتوجس منهم خيفة، وقبل أن يفوه بكلمة بزغت إليهم فتاة أضاءت ما حولهم، ببياض وجهها واستدارته.. مشت نحوهم تتكسر ليونة ورقة، تفوح من بين أعطافها رائحة زكية، جلست في الزاوية المحاذية لأبي. والشيخ يقول:

- هذه زوجتك شنار.

أغرقته بجمالها فتبددت الكلمات من لسانه، وتبخرت، فسأله الشيخ:

- نقول على بركة الله؟

هزَّ أبي رأسه بلا كلمة تذكر، وفي الليلة نفسها دخل بها، فأرته ما لم يره من قبل، وأذاقته ما لم يذقه في حياته، ومنحته جسدًا لا يفتر، وهو لا يكلّ، وكأنه أصبح بقوة مئة رجل، سنتان من الزمان وأنجبتني أمي، لا أدري كيف أصبحت أراها ولا أراها، ما أصاب أبي بالكمد، أنها لم تعد تمنحه لذته، يراها جالسة، فما أن يدخل حتى تتوارى لا يدري أين أو كيف، وفي قرارته أن هؤلاء القوم

ليسوا بشرًا.. لم تعد تمنحه ملذاته التي أنسته نفسه وزوجته وأبناءه، وفي صبيحة يوم لم تشرق شمسه صحونا فلم نجد ديارنا، سوى هوام الأرض ودوابها تعيث من حولنا، وكأن الأرض لم تسكن البتة. أبي تحقّق من السر، فزوجته شنار وأهلها جان، لكن السر الذي لم يستطع معرفته: لماذا رحلوا وتركونا؟ حملني أبي عائدًا بي إلى ديارهم.. فتفتحت على الحياة بينهم. . الأمر الذي لم يرحني ساعة. ارتفعت عن الأرض قليلًا وعرفت طريقي بين الأحياء، صرت أذهب إلى أماكن أعثر فيها على صبية وفتيات ألعب معهم، أماكن يجهلها الناس، ذات مرة وبعد لأي في البحث عني عثر علي في أحد هذه الأمكنة التي يسمونها خرابات، رأوني ألعب، منفردة ليس من حولي أحد، مما حرّك شكوك زوجة أبي وضربتني ضربًا مبرحًا، ما أنبت مخاوفها أنني لم أبك أو أتحسس منها، بل كنت أضحك، فاستقر في روعها أنني مجنونة. في الخرابات تعرفت على (سِيشْران) وكبرت معه ومع حقيقتهم المزعومة بجنوني، عجزوا عن إمساكي بين أربعة جدران، كنت أتسلل منها بطريقة لا يعرفونها بمعاونة (سِيشْران)، كنت أراني ألج بين شقوق الجدران ومن أعقاب الأبواب الموصدة، لم يكفوا بل أذاقوني صنوف العذاب، أقلها وصمي بالعته والجنون، حتى مللت منهم وضقت ذرعًا بملاحقة الصبية لي وتجريدي من ملابسي، فقررت الرحيل باحثة عن أهل أمي، رحلت مع (سِيشْران) الخبيث، الذي وعدني بأخذي إلى أمي، عارضًا علي الاقتران، وبما أني مخلوقة من طبيعة مختلفة ؛مكونة من طين الإنس ونار الجن فلن أكرر غلطة أبي واقترن بطبيعة

مغايرة، قررت البحث عن مخلوق يشبهني عله يعيدني إلى صورتي الطبيعية. هذه كل حكايتي.

أخرجت من جرابها المعلق على متنها قلادة وهي تقول:

ـ خذ هذه، علقها على رقبتك. الجن وحدهم يعرفونها فيمتنعون عن إيذائك. وبها ستتبع الأثر وتقرأ الطالع.

ـ وأنت؟

ـ لا تخف، تعليقتي معي.

ـ لا.. أنا أقصد ألا تستدلين على أهلك؟

ضحكت وهي تمسك لثامها بكفها اليمنى المنقوشة.. قالت:

ـ لو كان الأمر بيدي لعثرت عليهم الآن.. ولكن كيف الخلاص من هذا الحارس الملعون الذي يباعد بيني وبينهم.. ثم إن خشيتي من أن يطال أبي مكروه ألزمتني الاصطبار..

ـ وهل سيطول بحثك؟

ـ أرجو ألا تطول ملاحقة سيسران لي. أما أنت فهذه التعويذة ستحميك من الجن والإنس.

تنفس الجمر بألسنة لهب متصاعدة، فتلاشت الغولة شنيشل.

أحس بداح بثقل أهوى برأسه إلى الأرض. وراح يغط في نوم سحيق بشخير ممطوط .

مع إشراقة شمس الفجر الأول عند بدايات الصباح الباكر نهض يتلمس تعليقته ليتأكد مما حدث له ليلة البارحة..

لم يكن حلمًا بل حقيقة.. من أصابعه التي تتلمس التعويذة الجلدية بخيط من فرو خروف أجعد. ومن الأحداث التي مرّت به تترى ورآها بأم عينه.. هشّ على غنمة سارحًا بها وعيناه تجوبان الأرجاء، فرآها منتصبة بشموخ مثل ثمثال خرافي تهفهف عباءتها فوق ثلمة جبل، تمسك بيدها اليمنى رمحها الغائص بين الحجارة الصغيرة.. تلوح له تلويحة الوداع الأخير.

لوّح لها ثم أعاد يده متحسسًا تعويذته.. التي آمن بها دليلًا وهاديًا له في دروب الحياة الوعرة.. فهي سلاحه السحري الوحيد.. وعليه أن يتشبث بها دونما تفريط.. وإلا ستداهمه النوائب ويهلك في عرض المفازات. ومن يومه وهو يخفيها عن الأعين بخيط رقيق معلق على رقبته. خشية أن يراها أحد من الناس، حتمًا سيمرّ على أقوام من ساكني الديار النجدية فلو رأوها لأنكروها عليه.. وربما نالوه بشيء من العذاب.. فهي باعتقادهم ضرب من الشرك مخرج من الملة. فمنذ أن علق تعويذتها اتسعت عينه على رؤية للكون لما هو أبعد من الرؤية، لا يمرّ به إنسان إلا يخاطره قلبه كاشفًا ما يحيكه من أمر، ويقرأ خطوط الوجوه.. تتحدث له أكثر من الألسن، ينظر إلى الأرض دون أن يمسها بيده فيعرف أنواع الأقدام التي داستها قبله، لا يمرّ به سائل إلا ويجد عنده إجابة شافية حتى تناقلت أخباره الصحراء وأصبح محظيًا بينهم، فكم من جمال ضالّة أعادها إلى ذويها، عدا «المطلوبين» في ثارات ودماء، فيتعفف عن الخوض بها، كي لا يورط نفسه في أمر يعافه على الرغم من معرفة أماكن اختبائهم. لم يكن كغيره من القصاصين الذين يفتقرون إلى دربة لازمة بالتعرف على آثار أقدام الناس أولًا ونسبتها إلى

أبناء العشيرة ثم تتسع إلى غيرهم، هذا الصفة ممنوحة له دون غيره. منها تعرف على وجوه العشائر، كل قبيلة تتمنى مقامه بينها، ويعتذر لهم بأنه وهب نفسه للصحراء التي يعرف ذراتها كما يعرف بشراتهم وتعرفه أكثر من غيره.

تعرفت عليه الوديان والسهوب قبل المدن. كان يغشى الأراضي التي يرعى بها فتعرض عليه ماشية الرعيان فيكشف ما بها من أمراض وعلل دون أن يجسّها، فبعضها يمنع عليها الرعي في أماكن معينة لطبيعة النباتات فيها، وأخرى يطلب الحجر عليها وسقيها من ماء بعض النباتات بعد غليه، هذه مهارة لا يتقنها سواه، إضافة إلى عشبة كان يلتقطها من بعض البراري التي يعبرها، فقد اكتشف أن الشاة التي تتأخر عن شهرها الثاني بعد السنة وتأكل من هذه العشبة تلقح من أقرب ذكر؛ لذلك تتكاثر شياهه وأغنامه سريعًا، فيبيع منها ما يفيض عن مؤنة الرعي والصحراء التي يقطعها. اكتشف بعد إلحاح في الطلب أن العشبة لها مفعول سحري لزيادة خصوبة الرجال، فقد خلف وراءه قبل ردح من الزمن رجلًا عقيمًا أسقاه من ماء هذه العشبة، فعلم من بعض القوافل أن الرجل ينتظر مولوده البكر. يسمونه وجه الخير الذي تتناقل أخباره.

يصل الديار فيتراكض خلفه الصبية مغتبطين بمقدمه، يتناولون ما يهاديهم به من مزودته التي لا تخلو يومًا من الأقط والتمر فيطمئنون له ويتحلقون حوله، فيتسابق نحوه الكبار يتجاذبونه كي يلفيهم في بيوتهم ويحظون بتقديم واجب الضيافة له، فلا يتردد من الإجابة يسامرهم بقصائده التي تستلقي على لسانه طواعية حسب الحال، قد يطلب منه أن

يترنم بصوت حداء، يمطه فيخترق سكون الليل،يسكن الآذان المتحسسة لكل هسهسة منقولة على مركبة الهواء الرخي، فتطرب له الأفئدة، وبالرغم من استئناسه بهم فهو لا ينصاع لكل الإغراءات التي تقدم له بالمكوث مدة أطول من الثلاثة أيام، بما في ذلك تزويجه من إحدى فتيات القوم، فيرفض بشدة وليس في عينه وروحه سوى وطفا بلونها الشمسي ترقص أمامه كلسان لهب دافئ، لا يغفو حتى يستحضرها. ويفيق وكأنه ينهض من بين أحضانها، لذا فهي حاضرة معه أينما حلّ وارتحل، وكأنه يلحفها عباءته الوبرية التي لا ينزعها عن بدنه صيفًا وشتاء.

قادته خطواته إلى مشارف المدينة البعيدة المنشودة. . دخل يرعى أغنامه فيها تائهًا بين شوارعها وأزقتها وليس في عينه سوى وطفا. باع واشترى وشاهد المدينة تكبر، وخطوات وطفا يراها على قارعة الطرق الرملية، لا تلبث أن تحرثها أقدام أغنامه وكأنها تواريها عنه، حتى رُصفت المدينة بالإسمنت وسُفلتت بالقار، توارت إلى حيث لا عودة، ومع ذلك لم يفقد الأمل. بيد أن التعويذة لم تمنحه صفاءه بالعثور على وطفا... وكلما حاول وعصر ذهنه لها ضاعت من عينه رسوم كل الأشياء، وتثاقل إلى الأرض وأصيب بوعكة تلزمه الأرض أحيانًا يومين متتابعين؛ ليقرر الإقلاع عن استخدامها في أغراضه الشخصية، فهي ملك للناس لا غير.

1

هذا هو بداح الخرش الذي هجر مضاربه قبل خمسين سنة قاطعًا الفيافي والقفار بحثًا عن زوجته أو معشوقته وطفا. صادف في طريقه الإنس والجن. توثّقت صلاته بالحاضرة والبادية. باع واشترى. علمته مفاجآت الصحرء النوم على حذر والصحو أيضًا على حذر، يحمل هواجسه وارتياباته معه، من غارات سراق الليل وحنشل النهار. لا يبيت إلا قريبًا من مضارب البدو حتى متى غشيتهم غارة بقي إلى صفوفهم يغنم من غنمهم. ويأمن بأمنهم.

حكايات بداح تستحق رواية كاملة. جلست أتفرّس في وجهه ورأسي يعتلج بسؤال واحد مفاده: كيف استوعب لغة المدينة. لن أستعجل الإجابة عليه، سأتركه لحينه، سأترك له منصة الحكي، وساعة يعن له الكلام سيخبرني. دخل موصل المطعم بصحن الغداء المغلف بطبقتين من القصدير؛ فخرست الأصوات وأسئلتي تجأر في رأسي. يبدو أنني استمرأت الفضول واقتحام خصوصيات الناس، حتى لم أعد أطيق صبرًا. أمام الصحن الستيل المغمور بالأرز ولحم المندي التزم بداح الصمت كعادته، مدّ يده المرقشة يأكل وهو يحدجني بنظرات مستريبة. شرع يلتهم الطعام بثلاثة أضراس خلفية وكأن على رأسه الطير، صار لا يحرك فمه إلا

لازدراد قطع اللحم ولقيمات الأرز الكبيرة التي يكوّرها بيده بعناية ثم يسقطها في حلقه كحية تبلع ولا تعلك.. تركناه ورحنا نغمس لقيماتنا بالتعليقات الفاجرة أحيانًا، و(أبو طفشة) كبير سواقين السطحات بحوله البائن، لم يتركني دون أن يسألني عن سر غيبتي، لم ينثن حتى تأكد من عدم جدوى سؤاله وتشبثي بصمتي.

هؤلاء الكادحون بأثوابهم الرثة وشعورهم المشعثة لايصدقون أن مثلي يسافر إلى القاهرة، فهذا يعني أنني أحلم، وسيتناولونني بالتهكم والسخرية، لذلك التزمت الطريق الآمن، وهو أن أكون ملتزمًا الصمت، حتى انتهى بداح من لعق الصحن ومصمصة أصابعه ومسح يده بطرف ثوبه وعباءته. بادره أحدهم بكأس شاي يفضله بداح «خادرًا» ومسكَّرًا، التقطه وهو يرطب طرف سيجارته التنباك التي أشعلها وأغمض عينيه وهو يمزّها بتلذذ طاغ، كانت الشمس قد مالت عن كبد السماء وانكسرت أشعتها وتمددت ظلال الجدران، عندها نهض من مكانه ينفض عباءته استعدادًا للانصراف. قلت في نفسي: هذه فرصة مناسبة للتفرد به، فسارعت إلى سيارتي وتبعته، ومن النافذة صحت به.. دعوته للركوب معي لتوصيله، فلم يكذب خبرًا، بلمح البصر افترش بجسده المترهل المرتبة الأمامية، وركبته ترتطم (بالقير)، آلمته فقال وهو يفركها براحة يده:

ـ الروماتوزم ذبحني ياخوك..

فصار كلما أبعدها قليلًا لا تلبث أن تسقط كرة أخرى. كنت أتوخى منه البوح المفرط بالتفاصيل المملة.. يكفيني منه

الهذر فقط، فذاكرتي الضوئية تلتقط المعلومات والصور دون حاجتي إلى تكلف استرجاعها. سألته عن نفسه مستزيدًا من حكاياته، اختلط سؤالي بصوت المؤذن القريب منا فضرب بعصاه (طبلون) الونيت بعنف يأمرني بالتوقف للصلاة، هذه الحركة لو بدرت من غيره لقذفت به من الشباك.. نبهّني إلى الأذان.. فتح نوافذ مخي، كيف كنت قبلًا أصم، لا أسمع لعجيج أصوات المآذن التي تعبئ أحياء الرياض، وتنفجر في خمس أوقات منضبطة في آن واحد، كيف لم أكن أعبأ بهديرها ولم تكن تعني لي شيئًا؟ هل كان صوت الونيت الكريه يغطي على كل شيء؟ وبسببه تعودت قضاء صلاتي الفائتة قبيل أن آوي إلى فراشي. . في كل ليلة وبعد آخر صلاة أمدّ يد الضراعة إلى الله بأن يسامحني ويعفو عني والله أرحم الراحمين. أوقفت سيارتي في «البراح» المتسع أمام بوابة المسجد الرئيسة فكنا من أوائل الداخلين إلى المسجد، لم يسبقنا سوى الباكستانيين والهنود الذين يتحينون فرصة الابتراد في المسجد مستحلين الأجنحة اليمنى واليسرى منه، قريبًا من المكيفات الجانبية. جلس بداح برائحته العطنة في روضته وأنا ملتصق على الجدار الخلفي بانتظار ممل وعلى أحرّ من الجمر أتفحص بعيني الأبواب توسمًا في الإمام القادم. تذكرت شيئًا وهو أنني لم أر بداحًا يدخل دورات المياه ليتوضأ، أذكر أنني ساعة دخلت خيمة السطحات ألفيته نائمًا، لم يصح إلا على جلبة حضوري ظانًا أنني أحمل صحن الغداء. دخل أخيرًا الإمام فغمرتني فرحة كبيرة وأنا أراه يخبّ نحو المحراب ويده تهتز ممسكة بعقب مسواك كبير يفرك به أسنانه بشدة وكأنه يحرثها، تخيلت أنني لو

فركت أسناني بمثل طريقته لسقطت الواحدة تلو الأخرى.. المهم أنه جاء فتطلقت حبال وجهي المكترب. ذكرني هذا الإمام بنظرات إمام جامع حارتنا المستبد بكل القرارات، وقد هزم كل الخصوم المناوئين له، المتآمرين على طرده، كان لدودًا لا يشقّ له غبار في المماراة والجدل وقد بلغ من نفوذه أن أسكن زوجتيه في البيتين بيت الإمام وبيت المؤذن وجعل ابنه الصغير الذي لم يبلغ الحلم المؤذن المعتمد للمسجد، وهذا الصغير يؤم الناس متى تغيّب أبوه وما أكثر غياباته بحجج لا تُعد ولا تُحصى، ولا أحد يستطيع مخاصمته، وقد بلغ به الأمر أنه سخَّر المسجد لحاجاته الخاصة متخذًا غرفات المسجد مستودعات خاصة به. واضعًا كباش العيد في غرفة خارجية كانت مكتبة ملحقة بالمسجد إبان المدّ الصحوي، وفي صباح العيد نحر باسم الله في حوش المسجد وعلق ذبائحه على أعمدة السرداق الذي كان يُنصب للنساء في شهر رمضان المبارك، ما أثار ضغينة المصلّين وزاد حنقهم، فلم يعد أحد من جماعة المسجد قادرًا على مقارعة لسانه السليط، الشبيه بمشرط حاد، والجاهز بكل الحجج والبراهين من الكتاب والسُّنة، في الوقت الذي يتهالك الشباب بسعي حثيث ولهاث مستميت للحصول على وظيفة إمام أو حتى مؤذن، خصوصًا مع توافر خدمات البنغاليين الذين أصبحوا يتولون بعض المسؤولية مقابل مبالغ زهيدة تنقد لهم مطلع كل شهر مع أجرة غسيل السيارات. وهذا لا يهمني، فللبيت رب يحميه، هذا واحد ممن زهدوني بالصلاة جماعة، مع أن أبي في صورة معاكسة تمامًا، فهو إمام لمسجد صغير، وبراتب شهري قليل، ومع

ذلك لم أره يتغيب عن وقت من الأوقات؛ إذن لماذا لم أقتد بأبي وأداوم على الصلاة؟ فكّرت في ذلك كثيرًا، وتوصلت إلى نتيجة واحدة، مفادها أن أبي من رعيل لا يتكرر، والذين يمثلون الدين اليوم من أمثال هذا الشاب اللجوج الذين احتكروا الدين، ووضعوه في حيِّز الذقن والثوب القصير، لا يحفزون بتاتاً على التواصل مع الله بحرية، فكأنهم الأوصياء الذين يملكون صكوك الغفران، ومفاتيح الجنان. انظروا كيف قادني مسواك الإمام المتجهم الوجه لكل ما سبق. ظلت عيناي لا تتزحزحان عن بدّاح القابع في الصف الأول بزفره. أتأمل كيف ينهض بعباءته متوكئًا على عصاه الغليظة وكأنه خيمة وبرية تشيد توًّا. تقدم الإمام واصطف المصلون منتظمين في ثلاثة صفوف طويلة، جلّهم من العمالة الوافدة والجوالات لا تكفّ (مخترشة) بنغمات أغان متنوعة؛ ماجد المهندس ومحمد عبده والحلاني وهيفا وهبي، وأنغام هندية وأخرى غربية؛ فلما قضيت الصلاة نهض بداح من فوره صارخًا بصوته الأجش المبحوح يقول: (والله إن اليهود والنصارى أجلّ منكم وأكرم؛ ذولاك يحطون أجراس وأنتم أغاني يا دافع البلاء) خرجت مستشريًا بالضحك، وهو لا يزال منهمرًا بغيظه مشتعلًا غضبًا ركبت «الونيت» أنتظره وقلبي طرب لما تفوه به بداح. انصرمت نصف ساعة بملل، وعيناي ساهمتان على المرآة العاكسة، حتى قدم يتوكأ على عصاه، وكأنه يجرّ بساط الأرض من تحته، فتح الباب وركب ببطء قاتل.

2

لم أعد أطيق فساد مزاج بداح، قلما رأيته مهادنًا. دائمًا ما يحمل وجهًا عبوسًا تزيد دمامته تجاعيد الشيخوخة، وندوب الجدري التي لوّحتها أشعة الشمس الحامية، فبدت كحبوب دوار الشمس؛ في أيام قلائل استأنس بي خصوصًا عندما علم أنني مقطوع من شجرة وليس لي من دنياي إلا عجوز وشيخ يستحضران الحياة كما يستحضران الموت.. تركت له نفسي في ساعات معلومة. ما يفسد مزاجي ويبدِّد ألفتنا حنقه الدائم وشتائمه التي لا تنضب من لسانه. ذات يوم قررت أن أنأى به بعيدًا عن ضوضاء المدينة إلى الصحراء علها تغسل سخام روحه الملتاثة.. وتعيد صياغة وجهه المربد. تذكرت أنني لم أبدِّل زيت سيارتي منذ قرابة الشهر، إذن ستكون فرصة سانحة أن أضرب عصفورين بحجر واحد. اتجهت إليه عصرًا في مكمنه. ألفيته طريح خيمة السطحات. جلست لصق رأسه الذي لم يبدُ منه سوى عين يحوم فوقها ذباب أزرق له طنين مفزع فسألته:

ـ عم بداح ما رأيك لو طلعنا للبر؟ أزاح شماغه عن وجهه وقد تسلقت وجهه فرحة أضحكت عينيه وشاغبت حاجبيه الكثيفين وانفرجت أساريره وقال:

ـ أجل وش تنتظر.. انهج؟

في طريقنا ابتعت أربع علب زيت ورأسي يمور بفكرة واحدة، هي أن يتجلى بداح بمزاج عال، من مشهد صحراء مترامية الأطراف، فتعيد إليه تاريخ المعاناة، ويفضي بكل ما يخص وطفا من حكايات. حتمًا رائحة القهوة ستفكّ عقدة لسانه وسيتحدث وكأنه يُوحى إليه. انطلقت لا ألوي على شيء، مصوبًا عنق «ونيتي» تجاه شمال الرياض، وقريبًا من مستنقع ماء من بقايا الأمطار الفائتة توقفنا، وبسرعة خاطفة ألقيت بالبساط على الأرض، وجلس بدّاح ثم رفعت مقدمة السيارة فوق تلة صغيرة وبدأت بفك الصرة تاركًا الزيت يسيح على الأرض، تذكرت الشيخ المرح الذي يصوّر حال فتاتنا السعودية عاملة في محل غيار زيوت، متهكمًا بها وهي قابعة أسفل السيارة تفك (صرة) تسريب الزيت. نسي الشيخ «حفظه الله» أن السيارة مركبة مثلها مثل الجمل والخيل، والمرأة قديمًا كانت تعلفها وتشربها وتمتطيها، وليست هذه مشكلة بحدّ ذاتها، بل المشكلة أنه كان يفكر بالمقلوب، وإلا كيف يخطر على قلبه أن المرأة ستقبل على مهن لم يقبل عليها شبابنا بعد؟! متناسيًا فقه الواقع الذي دندن عليه بعضهم ردحًا من الزمن، فلم يجد واقعًا يقبله بحجة أن الفقه هو الفقه ولا يحتاج إلى وضعه في إطار زمني، ولكني عذرت له خفة دمه. انتهيت من ربط الصرة وصببت الزيت ثم أحكمت غلق غطاء المكينة ورأسي يمور بفكرة عمل المرأة في ورش إصلاح السيارات. أنزلت عدة الطبخ (المعاميل) وبدأت بتجهيز القهوة والشاي. أخذت الدلة بالفوران فوق (الدافور) الصغير وبداح ثمل برائحتها وعينه تلمع بفرحة غامرة، قرّبتها إليه أسكب له فنجان القهوة الأول وأنا أسأله مستزيدًا من سيرته

المحيرة طامعًا بمعرفة المزيد عن يوم وصوله للرياض، كيف عاش، وقضى أيامه ولياليه منتقلًا من شساعة الصحراء، وعربها، وهوائها، وشمسها، وليلها ونهارها إلى مضايق المدينة المغلقة؟

وأمام إغواء هذه القهوة الخولانية العجيبة انطلق لسانه يحدثني بما لم أسمعه قبلًا من حكاياته:

من سيرة البطل الثاني
تغريبة القلب المهجور

قطع الصحراء طولًا من شمالها إلى جنوبها متتبعًا آثار الراجلين من دكادك الأرض وعطن الدواب، ومن الجيف التي تعاورتها أكوام الدود وأرتال الذباب. باتت الصحراء له كتابًا مفتوحًا يقرأ أسرارها بحذق، ويفكّ طلاسمها الخافية. تعويذة شنيشل حشدت الكون أمامه، كل شيء أصبح متحركًا، حتى الهسهسة الصغيرة تصدر من حشرة حقيرة تلتقطها أذناه. اكتسى وجهه بلون حجارتها قرمزية اللون مع ندوب وجهه التي صارت بلون حبات عباد الشمس، وعباءته التي تلونت بلون رمالها. يمشي خلف ماشيته كرجم متحرك. أرواح الصحراء دانت له مسالمة بهوامها وسباعها، وساعة يصدح بهجينية من صوت يتكسر عذوبة وكمدًا؛ تجاوبه الرياح بمعزوفاتها، مستكملة مشهدية اللحن بإيقاع رتيب، وكأنه يبثّها شكواه فتربت على كتفيه بسحابة عابرة تعصر ماءها عاجلًا وتقشع. اكتشف عبر رحلة البحث المعنى الحقيقي للانفراد الكوني والتجرد المعنوي بلا مطامع أو أهواء، مكتفيًا بالقليل الذي تهبه إياه صحراؤه الرؤوم من غزال شذّ عن قبيلته أو أرنب تخاذلت قدماه عن الاختباء.

ذات صباح أفاق فلم يعثر على بقايا اللحم من صيد أمس، هذا ما لم يحدث قبلًا، شك أن في الأمر سرًّا، والتخمينات تلوب رأسه، فليس في ريعان الليل الكالح سوى الضباع والثعالب والذئاب والكلاب الباطشة، فمتى وصلت إليه فستنقض على أحد الخراف بلا مقاومة. تكررت السرقة أكثر من مرة، فخشي على أغنامه من سطوة جوعها، فقام بلف بقايا اللحم بخرقة توسّدها ونام، وقبيل تشتت النجوم من قبة السماء السوداء تلمست أذناه لهاثًا يقترب منه. لهاث حار بحرارة جوع وأنفاس هادرة ففزّ من مرقده ليدافع عن نفسه؛ ليرى عيني ذئب لامعتين يرسم المدى حدود أذنيه، فَهِمَ مطلبه فورًا، فسحب قطعة اللحم من تحت فروة الصوف وقدّمها إليه، فما إن رآه الذئب حتى دنا منه بوداعة مستلمًا قطعة اللحم بعين شاكرة، أقعى يمزقها بتلذذ ويزدردها سريعًا. تركه بداح بعدما استكان جنانه، تركه ليوقد ناره «المترمدة» ويضع إلى جانبها دلة القهوة. انتهى منها ثم أدى الصلاة وجلس يتلذذ بدفء النار ومذاق القهوة، وطرفه لا يبرح الذئب الذي بسط ذراعيه يتلمظ ببقايا اللحم المنغرز بين أسنانه. مستشعرًا ألفته المثيرة للعجب والخوف معًا، من يثق بطمأنينة السرحان سوى فاقد للبصيرة؟ بدأت الشمس تذرع الأفق بأشعتها الباهتة، فنفض بداح التراخي عن كاهله ومضى يوقظ أغنامه وحماره ليواصل رحلة البحث والمصير، وهو يرقب الذئب من طرف خفي، وكأن الذئب يستشعر مكنونات بداح، فرفع رأسه نحو السماء بعواء طويل، كأنه

يعلن عن حضوره. نشرت الشمس خيمتها على ظهر الكون فطفق بداح يدسّ عدته في الخرج ذي الجيوب ويضعه فوق ظهر الحمار وينادي بلغة تفهمها ماشيته لتبدأ المسير، مشت ومن خلفها الحمار نحو الشجيرات الطرية تستفتح بها شهيتها الصباحية، والذئب يجرّ الخطى وراء بداح كلما توقف بداح لحاجة ما، تسمّر في مكانه. اصطاد وأكل وقسم له حصته، في الليلة الأولى نام بداح بنصف عين يرقب السرحان، وأصبح على عواء الذئب في الساعة التي تعوّد الإفاقة فيها، ومنذ ذاك اليوم أدرج الذئب إلى قافلته، لا يغيب عنه لحظة واحدة، فيقسم له حصته اليومية من الصيد حتى بات أقرب إليه من رعيته وأسلمه قيادها، ما أن تند إحداها عن القطيع حتى يسابقها الذئب ويعود بها بشيء من التأنيب والتهذيب. العابرون قريبًا من بداح يرعوون ويرعبون من الذئب وصاحبه. تناهت شهرته بين البوادي بـ (الخرش مخاوي الذيب) فحاز بذلك منعة وحمية يرهبها البدو من (السراق) والحنشل. . داء الجدري الذي يحمل بقاياه على وجهه، والذئب المرافق له شقّا له طريقه في الشهرة. وحينما يتخلل بيوت الشعر ويحوم بين المضارب يقف له الجميع بهيبة وإكبار، يقضي بينهم أيامًا يتغنى ببعض قصائده التي تطرب لها الأفئدة علها تصله بوطفا كلما حلّ بضيافة شيخ قبيلة أو مرّ ببيوت شعر أو قرى تخيل أنها تخرج إليه من أحدها. هذا ما يزوده بوقود الأمل ويشحنه بهمة البحث، فلا يكل من تطواف الطرقات ولا يبرحها حتى يغشى قلبه استشعار يؤكد له أنها ليست في هذه

النواحي. يطلق الذئب عواء الرحيل فتتجاذب الماشية أطرافها وتمدّ أعناقها للأرض وتمضي.

ذات نهار وبينما الأغنام ترعى في تلعة مورقة بخضرة الربيع تراءى له رجل فوق هضبة قريبة، تبينه بداح من نوع غلالته التي يلفها حول رقبته وحزامه الجلدي الذي يطوقه بمقبض حديد يلمع من انعكاس الشمس. رآه يرفع بندقيته ويسدّدها نحوهم وهو لا يدري مآل البارود المتأهب لضغط زناده ليرديه قتيلًا بطلقة ناجزة. لحظة أرهف الكون لها سمعه وحشر المدى أنفاسه، وصمتت حتى الماشية لهيبة الموت القادم الذي سيلتقط واحدًا من بين الأحياء المتحركة في نطاق رؤية الصياد. كم قطع انتظار بداح المرّ وعينه مسمرة على الرامي حتى انطلاقة البارود ليستقر سريعًا في رقبة الذئب، أصابته رشقة النار التي جاءت مسدّدة بإحكام، فحاص منها قليلًا قبل لحظات الموت الأخيرة، وعينه ساهمة بنظرة وداع أخيرة لرفيق رحلته. هوى سرحان واعتصر قلب بداح قيحًا من الألم، وبلمسة متحسرة مرّر بداح يده على كامل جسد رفيق رحلته سرحان. ثم على مضض غوط له حفرة على مقاسه قريبًا منه وألقاه داخلها وأهال عليه التراب. كانت الشمس تتأرجح وكأنها تجهش بالبكاء وتتمخط صفارًا تشظى به الأفق، وحمرة تالية امتقعت به وجنتاها تشرّبته من دم سرحان. استشعر هيبة موت الأحباب، من الكون الغاص بسواد ليل كئيب يجتر موال الحزن. بدت النجوم حاسرة كسيحة، فأغمض بداح عينيه ونام أو لعله تغافل عن الليل

حتى شمرت الشمس عن أعقابها وتثاءبت بخيوط دقيقة وناعمة. نهض مع لفحة هواء بارد خامرت رئتيه ورمّمت روحه وأعادته للحياة، كان واهنًا بما يكفي لترك الأرض المغدورة، هشّ عن رأسه بقايا ذاكرته.. سرّحها مع غنمه ومضى حتى بلغت الشمس سدة السماء، وعينه لا تطرف لحظة تتابع المخاتل اللعين الرجل ذا النطاق الحديدي اللامع من وهج الشمس.

لم يكن بداح يزمع القتل؛ لأنه قشر ركام الشَّر والضغينة من قلبه؛ لذلك لم يدس في جرابه أيًا من أدوات الصيد أو السطو، فقد وهب جسده لقدر الصحراء، بمثل ما منح قلبه لوطفا، لاذ من الشمس بأرتال أثل كانت تحيط بمزرعة قريبة وترك أغنامه تقتات من مائدة الأرض غداءها، غفا قليلًا، كان وهن الليلة الفائتة يجتاح جسده، والقاتل الغادر يتسنح فرصة الليل كي يسلبه حلاله. أفاق وجلس يفكر بطريقة تخلصه من هذا اللعين اللابد خلف التلال القريبة. استأنس لهذا المكان بالرغم من الدواب والهوام المحدقة به، فهي أرحم به من هذا اللعين السافل، سيعرف كيف يتقيها بأنواع من النباتات الطاردة، التي يدسها مع الحطب فتثير أدخنة غامتة. إلا أن الرابض على مرمى عين لم يمهله، فقد انحدر عليه مع انحدار شمس المغيب، في التوقيت ذاته الذي صوب خلاله سرحان، لم يتضعضع بداح، بل ظل يدخن لفافته بمزاج رائق من أنفه، وصل إليه اللص شاهرًا أنف بندقيته نحو رأسه، آمرًا إياه بالمشي أمامه بصوت حاد:

ـ قم.. قم وامش قدامي.

امتثل بداح لأمره الصارم حتى أوصله إلى آخر أثلة. وهناك قيده باللفافة التي يطوق بها بداح رأسه، لم يكن ليحرك ساكنًا، كي لا يستريب منه فيطلق عليه عياره الناري، مكرمة هذا اللص الوحيدة أن أبقاه على قيد الحياة، هذا هو الأهم، فلص البراري والقفار يحمل الموت كأي شيء رخيص. فكر أن الذي أعتق روحه من موت محتوم سينفذ إليه في هذا الخلاء ويخلصه. ربما تساعده عافيته في المكث أيامًا بلا مؤنة من شراب أو أكل، مقيدًا بجذع أثلة تشغفها الرياح فتنبت لها ألسنة تناجيه، ويجيبها بمقاطع من هجينياته تشتت هواجسه. حاول التملص من القيد فتقرّحت ذراعاه، خشي أن تستشري رائحة الدم بين أنوف الضباع فتنقض عليه من كل حدب وصوب فيصار فريسة مستباحة، لم يمنعه وجع الوثاق اللعين وتخاذل قدميه جراء الانتصاب مقيدًا ونباح الكلاب وعواء الذئاب المتخارشة قريبًا منه من النوم. نام حتى مقتبل الصبح فأفسح لعينيه بزوغ خيط الفجر الأول حيث بدت رؤية الأجساد تتضح له أكثر يراقبها، صلى بقلبه واستنشق عبير الهواء الناعم، وساعة انتشر ضوء الشمس في الأفق سمع صلصلة الأجراس الصغيرة المعلقة على رقاب حمير الرعاة وهي تقترب منه، فأيقن أنه بمفازة من الموت، من مفازة الأرض. أطلق الراعي عقال بداح بوجه مفزوع، غير مستأنس. سقاه من قربة الماء وهو يهدر بأسئلة لحوحة رجاء معرفة ماذا حلّ بالرجل، تهلّل محيا بداح وانفرجت أساريره لهذا المنحة الربانية ليضيفها إلى قائمة العناية الإلهية. توضأ من قربة الراعي وصلى بخشوع شكرًا لله، جلس الراعي متربعًا يكسر أعوادًا صغيرة، حتى ينتهي من صلاته ويعرف

منه قصته، جلس قبالته وأدنى إليه جرابًا كان يعلقه على متنه، طعم منه بداح تمرًا وسمنًا ثم سأله الراعي:

ـ وش سالفتك يا وجه الخير؟.

لم يتح له بداح فرصة لطرح مزيد من الأسئلة، فكرّ عليه حكايته وسأله عن ربعه وبشيء من الحذر سأله عن الغرباء الذين حلوا مؤخرًا بهذه الديار، فلم يفهم الراعي مقاصده، نهض بداح متهيئًا للرحيل والراعي يتوسل إليه البقاء والنزول على مضاربهم ضيفًا، فهم أهل منعة وحمية وربما أعانوه على ردّ رعيته، فلم ترق هذه الفكرة لبداح عازمًا على الرحيل، لم ينس أن يقلد المنقذ أوسمة الشكر، ويكيل له عبارات الثناء، ودّعه مقتفيًا أثر السارق ومن خلفه حماره. مشى حتى تماثلت الشمس عموديًا في كبد السماء والسراب يفترش الأرض كقيعان مياه بيضاء، بيد أنها تبدو متراثية لعينيه بلون أسود، في البدء أحاله لإعياء الليلة الفائتة؛إلا أنها تتفاقم أمامه كلما اقترب منها، حتى تكاثفت الرؤية وتناهى إليه ثغاء ماشيته، تمور سابحة بقيعة سراب، هرول إليها جذلًا يكبّر الله حتى وافاها ينعم ناظريه بملاحتها، انحنى يقبلها كأجمل مخلوقات الله. لم يحصها هذه المرة فقد تأكد أن القدر أعادها إليه، وأي قدر يا ترى؟ هل هو القدر المشفوع بتعويذة شنيشل التي لم ينزعها من رقبته منذ علقها؟ انتبه إلى جسد طريح بين أقدامها، اقترب منه محاذرًا خديعة ربما يقع فيها، همز الجسد بطرف عصاه فلم تندر منه أدنى حركة، شنّف أذنيه لأنفاس الرجل المتمدد، فلما أيقن موته اقترب منه أكثر يدفعه بيديه ليبصر وجه اللص على هيئة

مخيفة، وكأن قوة غريبة لوت رأسه إلى الخلف حتى استوى فوق الظهر مباشرة. صاح بصوت عالٍ:

اعويذه... يالله رحمتك

صار يلهج بالمعوذات والتسابيح التي يحفظها وهو يغسله بما يتوفر لديه من ماء ويكفنه بأثوابه، حفر له قبرًا في أرض رخوة. ثم صلى عليه ودفنه مع سلاحه، ولسانه لم يفتر يسبح الله ويحمده ويشكره. ابتعد قليلًا آويًا إلى ظل شجرة طلح كبيرة سارحًا ببصره إلى فضائه الداخلي، يبحث عن سر موت السارق بهذه الصورة البشعة. فهل ستكون هي نفسها شنيشل؟ وإلا ماذا يعني؟ هل ما زالت تحيط به وتحميه؟ فكر مليًا ماذا عساها تريد منه؟ ردد بصوت مسموع:

ـ يالله دخيلك.

علّمته الصحراء كيف يصيخ سمعه لهدير الرعد وكأنه رغاء جمل متهدل اللسان، فينبئ عن التكوين الأشهى لأرض تفرد أجنحتها لحفلة عرس راقصة؛ طبولها الرعد ورقصاتها سنا البروق المجتلدة في الأفق. يراقب البرق الملوح من بعيد فيعرف أي سحب تقلّ المياه، فيصيح بأغنامه لتتراكض إليه بوجل كأطفال صغار يستقبلون هداياهم بفرحة غامرة، ويقتادها إلى أقرب ظل شجرة بانتظار انهمار المطر المحتوم، وساعة يرفع عصاه عاليًا وكأنه يشقّ السحابة تهطل المياه الغزيرة في طواعية لأمر واجب النفاذ. يجلس حينها ملتصقًا بجذع شجرة سدر وارفة يتابع سيمفونية السماء وهي تدق الأرض المتعطشة. الأرض تلبس رداء السماء، وعينه لا تغرب عن أجنتها التي تندس في رحمها وستلد له وهي مائدة

له ولأغنامه، فمن الدخن والسمر أوقد ناره، وتنعَّم بعطر الخزامى، ومن نبق العوسج الأحمر أكل وأطعم أغنامه، بدت الأرض له منبسطة، تكاثرت فيها مضارب البادية، والهجر الناشئة حديثًا. وداعبت أنفه رائحة العرار الزكية، وتلذذت أغنامه بنبات الجثجاث والقيصوم. لم يستشعر الوقت إلا وهو يناهز الرياض حيث تراءت له المدينة عن قرب.

كان الليل يسدل ستارته السوداء على وجه المدى، والصحراء الباردة مترامية خلفه ليس له منها سوى عواء الذئاب ونباح الكلاب، فكر مليًّا أن يؤجل دخوله المدينة ذات المسارب الضيقة، حتى الصباح الباكر، وعيون الكون مبصرة حتى يتعرف على تلافيفها ومغاراتها بصحبة لُمّة من الماشية، فأقام ليلته قريبًا من أسوارها، ملتمسًا أشجار الغضا، اجتث منها ما يوقد به ناره، استجمع بعض نباتات العوسج الناشف دسّه بين الأثافي. أوقدها وجلس يتلمس ما يمكن أن يسدّ به أوده من تمر وأقط. التهم ما تبقى له من مؤونة وألحقها بجرعات ماء من فم قربته، ثم بسط وريقته الصغيرة ونثر وسطها مسحوق التنباك ولفّها بعناية. قرّبها من ألسنة اللهب فاشتعلت سريعًا. أطفأها بنفخة ناجزة مبقيًا على جمرتها التوّاقة لالتهام التنباك، مزّها فسطعت في عينيه، أنعش دخانها رأسه وغمرته سكينة موادعة استجلبت إلى جفنيه النوم. لم ينم؛ باتت أهدابه متعلقة بصويحباته من بنات نعش. تواردت إلى رأسه فكرة العيش في المدينة، فانتابه ضيق شديد، طردها سريعًا بالوجه المنشق من غضارة الشمس وبهاء القمر (وطفا) التي يستحضرها كلما اعتراه حزن أو ضيق، فخامرته قشعريرة أعادت جريان دمائه في

عروقه طبيعيًا، فنام متوسدًا كومة رمل بارد متلحفًا عباءته الثقيلة، فلم يصح إلا على صوت المؤذن المرتعش المرسل على متن الهواء الساجي. نهض بهمة ومن قربته توضأ بقليل من الماء وشرب، ثم صلى الفجر وأوقد ناره الغافية، تلمس ضروع ماشيته وحلب منها، ثم جلس يستدفئ بناره حتى تشقق ضوء الصبح الأول؛ ليبدأ رحلته من الصحراء إلى المدينة، وخاطرة واحدة ترتاده مفادها: أن وطفا تتنسم الهواء على مرمى حجر منه.

دخل المدينة فتعبّأ رأسه بالضجيج الذي لم يعهده، وكأنه ولج مغارة دبقة تنش رطوبة خانقة، تسرب خلف أغنامه بين الأزقة والجدران، تقوده إلى متفرعات مجهولة. ترك قرار الاتجاه لأغنامه التي تتحسس ما تأكله بأنوفها، أيقن أن وطفا قريبة المنال، لا يحجبه عنها سوى هذه الجدران. قرّر أن يمكث في كل حارة ما شاء حتى يتعرف على كل قاطنيها علّه يعثر عليها، أو يجد من يدله عليها، فالمدينة ليست كالصحراء حتى يقص أثرها؛ معتمدًا على ما يسمعه من الناس الذين تعرف عليهم وتعرفوا عليه سريعًا، خالط حتى الصبية، لاعبهم وأردفهم بحماره وهو لا يكفّ عن الأسئلة.. عن أنسابهم وأنساب أمهاتهم، وكان يكفيه منهم أسماء نسائهم.

في غضون أشهر قليلة طوَّف بين كل الحارات، وعرف كل دقائقها وتفاصيلها. في الصباح يسرح بغنمه بين الأحياء تأكل هي من مخلفات الناس وزبائلهم التي تعبئ الخرابات الموزعة على الحارات بالتساوي، ولا يدري هل كانت

أغنامه تقوده أم يقودها؟ تلتقط بقايا (خمام) البيوت ويجلس مترنمًا ببعض القصائد بما يشبه الحداء، حتى حفظ الناس عنه بعض حدائه، صاروا يميّزون صوته فساعة يتناهى إليهم حداؤه يعدون له ما بقي من طعامهم، يقتعد زاوية ظليلة يتناول ما تفيض به الأبواب، ثم يدخن سيجارته التنباك وينام حتى أذان العصر، وعقب الصلاة يلتف حوله الرجال يستمعون إليه بآذان صاغية ما يقصّه عليهم من حكايات ويطربهم من أشعاره، تطري أرواحهم، فتتسابق إليه فناجين القهوة المرة يوقدون بها صوته وينعشون ذاكرته. فهو حتمًا لا يشبه شعراء زماننا الذين يسوقون وجوههم كخراف بحثًا عن لقمة عيش فائضة عن حاجة أمير، إذ يكتفي بالقليل أو ما يقيم به أوده. أصبح عليمًا بكل أخبار المدينة، رجالها ونسائها وحتى أطفالها عدا وطفا التي لم تنبعث له بعد من بين الأسماء والأخبار. حادثته نفسه أنها قد غيّرت اسمها خوفًا على نفسها وجنينها، فلم ييأس بل داوم التطواف بين الأزقة والنوم بين أغنامه على ناصيتها، ربما يفقد بعض خرافه ونعاجه فيعيدها إليه الناس، فهم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم تمامًا.

الفصل الرابع

خدر يشبه السحر

1

استمعت إليه بإنصات لا يقطع وتيرته سوى القهوة التي لا يملّ من ارتشاف فناجينها بمزاج عالٍ. كل ما كنت أخشاه أن تجف رائحتها من أنفه فينقطع حبل اتصاله بالماضي الذي هو مادتي الروائية؛ القهوة وحدها تعيد ترميم خلايا رأسه، بها تبتهج روحه ويرقص كل جسده، وتلين بشرته، وينتكس ثلاثين سنة إلى الوراء، يعود إليه وجهه الموادع، وتتفشى في لسانه التعليقات؛ فتتلاشى شيخوخته التي لا تعد بالنسبة إليه إشعارًا بالهيبة تدفع الآخرين لممارسة أفعال أوتوماتيكية تجاهها.. مثل تقبيل الرؤوس وحجز صدور المجالس لهم ومبادرتهم بالسلام، ومدّ يد العون لهم في السرّاء والضرّاء. بداح خلع قميص الشيخوخة، نحّى عصاه جانبًا فكان ملهمًا بحق.

ينكش ذاكرة الماضي المتلبثة بين أثوابه وكأنه يحدث الآن. لحظة تنتابه الحكايات، يهزّ عصاه باستعراض طاغ. كما كان يهشّ بها على أغنامه، ويمخر بعينيه المدى الضارب في عمق السراب، السراب الذي يحيله إلى الحقيقة، فليس أقرب من السراب، فهو خلطته السحرية لصنع المدى. تتبدّى له الصحراء كتابًا مفتوحًا، عندها يرتشف قهوته المرة وهو يمسّد لحيته، يدغدغ بها الحياة القابعة بين جنباته، يدس يده

في جيبه ويستل التعويذة، رأيتها.. كانت مصنوعة من الجلد المدقق بخيوط ناعمة، لبست عظامي قشعريرة لم أفهم فحواها، خلته ينوي ارتكاب أسحاره في هذا الخلاء. ثقل رأسي فاستشعرت إغفاءة تزحف إليه، انتبه لزوغان بصري الذي أرداني أرضًا كميت، أظنني نمت مؤكدًا لم تكن سنة طفيفة لم أستيقظ إلا في ساعة متأخرة من الليل، ما الذي غطس بي ونقلني من حموة الشمس الساطعة إلى الليل البارد.. كيف؟ لا أدري.

رأيتني أركض بين أزقة ضيقة تتنفس برائحة الجدران الطينية المتلاصقة في زمان لا أعرفه لا شيء.. لا شيء البتة يربطني به. أتوارى عن الأعين المتحجرة والأقدام الحافية تسفي من حولها رمالًا ناعمة. تمرّ بي الأغنام، تشمني كوجبة طعام شهية، من خلفها رجل شامخ كالطود بلحية سوداء وعينين يوسعهما سواد الكحل، وعباءة وبرية خشنة يتراكض من حولي أطفال بتقاطيع رجال كبار يتسابقون خلف عربة صغيرة، ويتعاركون كضباع. طفل آخر بسيقان طويلة، يقود درّاجة عالية وكأنه يلامس برأسه أقرب سحابة إلى الأرض، وآخرون يقامر بعضهم بعضًا على مشروبات غازية. وقطيع من الشباب الكبار يجوبون الأزقة بتعال منطبع على وجوههم، يفتشون جيوب الصغار الخاوية، ويسلبون ما يقع تحت أنظارهم: لملموا كل شيء المشروبات الغازية والدراجات، والأطفال متسمرون بوجل، كيف لم يروني وبمعصمي ساعة تلمع وفي جيبي نقود؟ أدركت أني متوار عن أنظارهم فصرت أخاتل المارة، رأيت امرأة تضلع في مشيتها، فوق رأسها بقشة كبيرة تحملها وكأنها تدير الكون من حولها، تقف كلما

اقترب منها أحدهم ملتصقة بالجدر مفسحة له الطريق، وقفت إلى جانبها أشّم رائحة الحناء المتضوعة من بين أثوابها، مرّ بها رجل قاسي الملامح بعينين زجاجيتين ونظرات فاحصة تثير الرعب، همس لها من شقه الأيمن (سأترك لك الباب) مشى فلحقت به المرأة وتبعتهما. بعد برهة من ولوجه الدار الطيني تسللت المرأة بحذر دافعة الباب الحديدي الصدئ المخرم، وقبل أن تحكم قفل الباب كنت قد تسربت إلى الداخل لا أدري كيف.. رأيتها تنضو أثوابها عنها بعدما أسندت البقشة إلى الجدار والرجل مستلق على ظهره، لم أسمع ماذا قال لها حتى توارى وجهه عني بجسدها الذي احتل الرؤية كاملة، لم أسمع سوى أنفاسها المتقطعة تفوح بصوت كظيم، ثم رأيته يعلقها من ساقيها بلا رحمة، وهي تصرخ وكأنها تطلب الرحمة الصرخة التي أرعبتني كانت آخر المطاف، حتى خلتها ماتت. نهضت تسدل أثوابها وتحكم لف عباءتها وتحمل بقشتها وهي تجفّف عرقها. تقدمتها ووجهي ملتف نحوها اقتحمت معها البيت الصغير واختفت عني، جلست في حوش البيت الصغير ألاحق قوافل النمل بأصابعي أختطف منها بعضها؛ لتتوقف برهة ثم تواصل المسير.. تناهى إلي صوت حانق من غرفة داخلية، فتسحبت بهدوء نحو الصوت فألفيتها جالسة مع صبي، ألقيت سمعي كي ألتقط ما يدور بينهما، لم يكن الصوت واضحًا بما يكفي فزحفت حتى بقيت خلفهما مباشرة، لم يحسّا بجسد غريب يحفهما.. الفتى يحاول استنطاق أمه كي تشرح له ما يحدث له مؤخرًا وهي جالسة تتابع بخشوع وإنصات ودموع مسلسل قديم عبر شاشة بيضاء صغيرة، فلا تمنحه الفرصة اللائقة

بسؤاله، فتطرده بصوت مسموع لتواصل متعة الحزن. يخرج الولد متململًا باحثًا عن أقرانه. زاحمت فضولي رأفة به فمشيت مجاورًا له أردت أن أحادثه فلم يخرج صوتًا حتى عثر على رفقائه، كانوا مختبئين في حلك الظلمة خلف شاحنة كبيرة وكأنهم يتصيدون أرواحًا شريرة. جلست بينهم أتابع حركات الألسنة همسًا بمشاركة فرقعة الفصفص. تحدث الفتى بصوت يخامره التردد، أخيرًا أطلق لسانه وأخبرهم بأنه رأى ليلة البارحة حلمًا لذيذًا تحركت له مفاصله وألقمته بهجة لم يستشعرها من قبل، وعندما استفاق تحسس لزوجة بين فخذيه ترطب منها سرواله نشت منه رائحة عطنة.. ضحكوا وهم يتجاذبون أطرافهم بحثًا عن لذة غافية. ثمة صعقة عالية التأثير تنغرز مثل أسلاك كهربائية عارية في لحمي لأنتفض مصعوقًا من نومي المفاجئ، كان بداح يهمزني بعصاه، تفتحت عيناي على الليل الهابط بنسائمه الموادعة نهض يقيم الصلاة بصوته الشبيه بالحداء وأنا ملتئم على شكوكي التي طفقت تنازعني وهدتي، صلى وأنا مستسلم لحيرتي.. يا الله.. هل كنت أحلم؟ آخر ما رأيته منه تعويذته الجلدية. صلى بداح جالسًا ثم التف نحوي ووجهه ينضح بابتسامة خبيثة وقال: الظاهر أنك كنت تحلم..

من سيرة البطل الثاني
حيل الغريب في أثر الحبيب

فقدت إحدى الفتيات من المنزل وحفيت قدما والدها في البحث عنها ليلجأ مكرهًا إلى بداح القاطن في قعر شارع ثليم، فقد تفشّى خفية بين الرجال أن الراعي البدوي بداح تجرى على يديه كرامات جمة منها الاستشفاء من العلل وفك السحر، وكشف بعض أستار الغيب، لا يُعتَرف به إلا ساعة نزول النوائب؛ وما عداها ترسل فوق رأسه شواظ اللعنات، في حين أنهم يتسربون إليه خلسة تحت أجنحة الظلام الساتر لكل الموبقات؛ فبداح صديق الليل عدو النهار، لا تنقطع عن عتبات الأبواب، يتقاطر إليه أهل الوبر والمدر. ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق من حكاية فيحان الذي جاءه ليلًا مستطير اللب، يشكو له تغيب ابنته عن الدار أكثر من ليلتين متواليتين، وهو ما لم يحصل قط، ولا يمكن أن يحدث بين الأحياء المنتظمة في لبنة واحدة، وبين منازل ملمومة كقبضة اليد الواحدة، دسّ في جيب بداح عشرة ريالات؛ مبلغ مالي كبير بحسابات ذاك الزمن، رش بداح مسحوق «الجاوني» فوق جمر راكد فثارت أدخنة رماده فغلفت المكان وعزلته عن الرؤية، فلما انقشعت واتضحت معالم الأشياء، تجلّى بداح يمز تنباكه، مطرقًا إلى ذاته غير عابئ بالمستنجد، ما استقر

في روع فيحان أن بداحًا سيخبره فورًا عن مكان ابنته، وهو ما لم يحدث. قال له كلامًا ملغزًا لم يفهمه، رشّ مزيدًا من الجاوني فثارت الأدخنة وبداح يغمغم بكلامه. فاجتاح الرعب فيحان، وفزع من مكانه يتلمس طريقه إلى الباب، وقبيل خروجه صاح به بداح قائلًا: توصلك قبل ما تزل شمس باكر.

في عملية تحرٍّ قام بها بداح بمعاونة المرتادين لسهراته الليلية عن الفتاة المفقودة، أسفرت عن معلومة مفادها: أنها محبوسة في وكر عزاب خبثاء، يقطنون في عقب الحي المظاهر لحي فيحان. هكذا كان سفلة المدينة وصعاليكها يفعلون بالنازحين من كل حدب وصوب، بعيدًا عن أعين الرقباء. أرسل إليهم بداح بمعية «أبو سلعامة» رسالة وعيد وتهديد، أمرهم فيها بإخلاء سبيلها فورًا وإحضارها إليه حالًا، فلم تشرق شمس الصباح حتى أتي بالفتاة. كانت بعينين ميتتين ووجه مليء بالبؤس، وشعر منكوش. أجلسها بداح إلى جواره محاولًا تخليصها من صمتها، كانت كلماته الحانية تنسكب في روحها، أيقظها من سبات عميق.. عمق الكابوس الذي رأته خلال اليومين الفائتين لم يتعطل لسانه حتى استشعرت حالة من الطمأنينة، وبشفتين تشققان جفافًا نطقت.. قصت عليه ما صنعته بها إحدى النساء اللاتي يلجن البيوت بلا استئذان بحجة الطبابة، فرأت من حسن الفتاة ما رأت وراءها جمالها مستبطنة غواية ستجرّها إليها بثمن بخس، وهو ما تحقق فعلًا، فبغوايتها ولسانها الدبق أخرجتها معها؛ أخذتها إلى مكان تجهله.. بيت شبه مهجور يأوي إليه بعض طارقي الليل لتقدمها إليهم فريسة سهلة الاصطياد،

استلمت المرأة الثمن ورحلت تاركة الفتاة فاقدة الحيلة منعقدة اللسان مدهوشة العقل، أقعدها الخوف وألجمها الرعب من إخراج أدنى صوت تستغيث مخافة الفضيحة، فانتهكوها وفضوا بكارتها. حالما سمع بداح الحكاية رقّ لحالها، ولقنها كلمات سترفع عنها غضب أبيها وعذابًا ربما يطولها.. حملها إلى أهلها في الموعد المحدد كما وعد. في اليوم التالي أشيع في الحي أن جنيًّا اختطفها راحلًا بها إلى بلاد بعيدة، وأعادها البدوي بداح الخرش. لاذت الفتاة بصمتها رافضة كل الخطَّاب الذين مررتهم «دعلوجة» على أبيها، حتى جاء في ذات نهار رجل قد أنعم الله عليه وزاده بسطة في الجسم والمال جادًّا في مبتغاه، وملحًّا في طلبه. في البدء اعتذر له برفض الفتاة المنطوية على نفسها، في حزن مقيم. لم يكل الرجل من التردد على أبيها عارضًا عليه كل المغريات، فلم يجد الأب مفرًّا من مكاشفته بأن البنت مستهدفة من الجن الذين قيدوها وحرموا عليها الزواج بغير الجني الذي يحفها من كل صوب، فهو يخشى على ابنته من تربصاتهم، إلا أن الرجل الواثق من نفسه الثابت في مطلبه لم يتزحزح، عرض على الأب أن يفسح له المجال في التسبب لها بعلاج ووعده أن يبذل قصارى جهده لحل إسارها وتخليصها من براثن الجان، فوافق الأب المسكين على مضض وغصة حارقة. انطلق الرجل على الفور وبسرعة البرق الخاطف إلى الساحر بداح، مغدقًا عليه مالًا وفيرًا. توسل إليه بوجل أن يرفع أيدي الجان عن بنت الأجاود كي يمكنه منها، طلب بداح إحضار البنت، وفي المساء جيء بها وأدخلت عليه في غرفة تمور بالأبخرة المتصاعدة، وبصوته

الذي زلزل أركانها، وهو يصيح بصوت متهدج مبحوح: رووِوح يابن المريوح، وخبرني عن روح. متروكة وممسوكة. نطقها، إن قالت حق طمنها .

رش مزيدًا من البخور فثارت الأدخنة واتجه إليها يسألها: قولي يا بنت الأجواد مأمنة مسلمة. فنطقت الفتاة بما لقنها إياه، رش مزيدًا من البخور وصاح فسقطت الفتاة فاقدة الوعي وهو يصيح بعلو صوته «حوطتك بكلمات الله من كل نزال وهباط». ثم اتجه لوالد الفتاة وخاطبها، الذي سأله:

ـ إن شاء الله خير؟

فقال له بداح:

ـ شف يا وجه العرب البنت سكنها جني شيطان اسمه فيروز، واتفقت معه أنه يطلع، فخيرني بين خمس إما أن يخرج من عينيها فتعمى، أو من أنفها فتفقد الشم، أو من أذنيها فتفقد السمع، أو من فمها فتفقد النطق، أو من فرجها فتفقد عذريتها، وأنتم بالخيار إن كنتم جادين بشفائها.

انتصب الأب في جلسته يمسّد لحيته ويقلب بصره أمام الرجل وكأنه يطلب رأيه فنطق الخاطب قائلًا:

ـ طيب يا بداح نقول من الأسلم وهو فرجها، أما الأربعة الأولى فلا غنى لي ولها عنها، أما البكارة فهي ستُفّض لا محالة.

تهلل وجه بداح وأشرق محيا الأب ونضح بابتسامة.. رشق بداح بخورًا في جمره الآيل للترمد فثارت أدخنته حتى كاد الرجل أن يقع مغشيًا عليه من الخوف، صاح بعلو حسه من جبين مقطب: انصرف من فرجها يا فيروز اللعين.

ارتعشت الفتاة واستعادت وعيها ثم طلب منها الوقوف والمشي معلنًا شفاءها وزوال الخبث. في الاسبوع التالي أتمّ زواجهما على بركة الله، ودخل الشيخ على الفتاة الحسناء أجمل فتيات الحي مزهوًا بنصره المؤزر على فيروز.

1

في هذا الخلاء الذي يلقي عن القلب رخاوته، تمدّد بداح إلى منتصف الجذع السفلي وبقي جذعه الأعلى معقوفًا قليلًا، يرتجف من لمسة هواء عليل، يجوس طريقه بعين كليلة لكسر المشعاب كما عبر بمعنى (ليتبول). . لم أره يقعي للتبول قريبًا مني كعادته، كل ما هنالك الظلام. . انتظرته طويلًا، مرت ساعة ساعتان، لم أبرح هضبتي الرملية في الصحراء الشمالية التي أصعدت فوقها سيارتي الونيت بتحد. . لبثت خاملًا في مكاني. طرحت ظهري على الفرشة الرقيقة متحسسًا برودة الرمل، فسحبتني إلى نوم غلبني. تشقق الأفق عن خيوط الصبح الأول وأشرقت الأرض بشمس دافئة لسعت أطرافي فانتبهت إلى الوقت. تجولت بعيني بين كل الجهات، فلم أر بداحًا. صوّتُّ له بأعلى صوتي وأنا أعلو مرتفعًا يكشف كل ما حولي، لا أثر له حتى مواطئ أقدامه مسحها الهواء ودفنتها حبات الرمال الناعمة. على عجل عدت ألملم الأواني الصغيرة وأدسّها في الحقيبة الشراعية المخصصة لها. امتطيت سيارتي بحثًا عنه في مغامرة ليس لها مثيل. أوغلت ما يقارب مئة كيل في كل الاتجاهات، حتى عشيت عيني التي زاحمها النوم. وتعرق ظهري من سياط الشمس الحامية المنعكسة على سقف الونيت. كانت عقارب

الساعة قد استقامت عند الواحدة ظهرًا؛ فقررت وقد استبد بي اليأس العودة معزيًا نفسي بأن ابن الصحراء لا خوف عليه، حتمًا سيجد من يقلّه إلى الرياض، سألتقيه لا ريب في خيمة السطحات، ومع ذلك لم تتبدد حيرتي.

الفصل الخامس

تبادل أدوار

1

كادت هذه النهاية الغرائبية تقضي على ما بقي لي من همّة في كتابة رواية؛ فاختفاء البطل مؤشر غير حميد في خط سير الأحداث، كأنه استوحى أو تنبأ، أو بمعنى يليق بحكاياته استخبر عني فأخبر عن سرّ اهتمامي به؛ فمن يا ترى وشى بي عنده؟! أذكر أنني نمت بين يديه ورأيت حلمًا غرائبيًّا، فهل من المعقول أنه لا يزال متصلًا بالغول شنيشل، لهذا رحل؟ ولكن كيف؟.. كيف يستطيع قطع الصحراء بمشية متعجرفة وجسد ثاو، هذا بحد ذاته نهش رأسي وشرد النوم من عيني. أسبوع كامل وأنا أتردد على خيمة السطحات باحثًا وسائلًا بلا طائل. لا أحد يفيدني بأدنى معلومة عنه تريحني. مخرت عباب الصحراء وكل الدروب التي عبرناها معًا، ولا أثر له، كاد اليأس يقعدني ويقضي على بقايا همتي. وقبل أن تنتهبني حدة هذه الملامة أو يستبد بي الكمد طويت صفحته مؤقتًا، وانكببت في البحث عن هؤلاء الصلب، لتعويض ما فاتني منه، فقد كنت أؤجل هذا السؤال حتى تستكمل حكايات بداح، كنت أخطط للبحث عن وطفا، فلم تكن تقف الأقدار في صفنا، الآن لنعرف من هم الصلب؟ ما سرهم؟

لقد أثارت شجوني وقطعت حكاية صلبية بداح نياط

قلبي. بصراحة لا أعلم عنهم الكثير بالرغم من اختلاطهم بنا ومعاشرتهم للناس مواطنين من الدرجة الأولى. سألت كل من التقيت فكانت معلوماتهم متضاربة؛ فلجأت إلى العلامة «قوقل» محرك البحث المعروف، فزودني ببعض المعلومات من بين كومة تخاريف لا تعقل. المعلومات النقية التي فرزتها تشي بأنهم مثل غيرهم من القبائل، مع أن الكثير يتجاسرون على نفي الصفة القبلية عنهم. علمت أن الصلب أو بتعبير عامي «صلبه» منغمسون في البحث عن أصولهم مقتفين حكم المصريين اللطفاء دائمًا وأسياد النكتة بقولهم «اللي ما لوش كبير يعملوا لهم كبير»؛ لأن (اللي ما لوش ظهر ينضرب على بطنه)؛ لذلك سعت الأقوام بالغالي والنفيس في تأكيد أصولهم بالبحث عن جذورهم ونذر الغالي والنفيس من أجل ورقة مضمنة ختم شيخ قبيلة يثبت أصولهم الضاربة في بطن التاريخ الغابر حتى الجد المليون، مع إضافة بعض الملونات والنكهات على هذه الأصول، حتى أصبح الكل يقول (الزود عندي)، الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف وإقالة العثرات وعفة النفس وطهارة اليد... الخ، وكأن هذه الخصال الحميدة مزروعة في جيناتهم يتوارثونها كابرًا عن كابر. كل قوم يضيفونها لأنفسهم دون منازع وما إِن تأتي سيرة أقوام آخرين حتى تنهض المعايب، وتشمخ المثالب، ومتى وقع الحافر على الحافر تسابق بعض القوم على الأبواب بأيادٍ ممتدة وألسن مشحوذة بالقصائد للشحاذة. وحتى لا نعمم نقول البعض «يعني» إلا من رحم ربي، ومن لا يصدق يتابع

نشرات الأخبار أو القنوات التي دشنت خصيصًا لهذه الرسالة السامية! ومن يشك ليقف قريبًا من أبواب الكبراء، فستتجلى له الفرجة كاملة، وإلا فبرنامج شاعر المليون يختصر المشوار، فهو برنامج التسول الأعظم وبامتياز، وبما أني بصدد من يسمّون الصلب أو صلبه فكل لديه رأي بحسب موقعه القبلي، طبعًا مع التنطع بالآية الكريمة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ولننتظر ما سيأتي عقبها. هناك من يذهب إلى أن الصلب أناس غريبو الأطوار، يمتهنون «الشحاذة»، طبعًا هؤلاء مختلفون عمن نراهم في نشرات الأخبار، ربما لأنهم لا يجرؤون على الاقتراب من هذه الأبواب، وبعضهم يرى أن لديهم عادات ليست من عادات العرب، طبعًا نؤمن جميعًا أنه ليس من عادات العرب ولا الدين قتل رجل لمجرد أنه ينتمي لقبيلة يرى أنها أقل شأنًا. يُشاع أنهم يسكنون خلف البيوت، ولهم عالمهم الخاص، ويقال كذلك إنهم لا يدفنون موتاهم! مع أني والله لم أر يومًا ميتًا ملقى هكذا في العراء أو يحرق بالنار، ربما والله أعلم يؤكل سرًّا! هؤلاء الناس تجدهم في كل المجتمعات وتختلف أسماؤهم من منطقة إلى أخرى، فهم في نجد يسمون «صلب» وفي الحجاز «خلوه» وفي الشمال «صناع» وفي الشام «نور» وفي العراق «كاولية» وفي أوربا غجر.... إلخ إلا أن البعض يرجعهم إلى صُلب العرب، بمعنى أنهم ينحدرون من أعراق عربية معروفة.

يُشاع أن لهم عادات غريبة ومقززة، ولا يقيم لهم الكثيرون وزنًا، ويندر أن تجد فيهم أهل دين وصلاح،

وينتشر بينهم السحر والشعوذة، وما خفي من عالمهم أكثر مما ظهر.. والأغرب أنهم كذلك لا يحجّون، ولا يؤدون الكثير من العبادات، فمن لديه أشعة هاتكة لجينات البشر تميزهم عن غيرهم، ما لم يعلنوا عن حقيقتهم فكيف؟

أجهدت محاولًا التحقق من كل ما ذكر عنهم، تفحّصت أوراق الشيخ قوقل وسألت عنهم، قطعت الليل والنهار في تمحيص كل ما وردني، فلم يصفوا لي منها سوى النزر اليسير، وفيما عدا الكلام المليء بالتجني عرفت عنهم التالي: إنهم يسكنون الخيام على حواف المدن والقرى والهجر. أرواحهم خفيفة ويحبون المسامرات، ليس لهم ضغائن تجاه أحد إنهم كانوا يشتهرون «برب» دلال القهوة وتلميعها.

أما اليوم فقد اختلطوا بالناس، وتعايشوا معهم، وتعلموا تعليمهم وأصبحوا جزءًا لا يتجزأ من نسيج المجتمع، اشتهر منهم رجال يشهد لهم بالصلاح والتقوى مثلهم مثل غيرهم، يختلفون تقريبًا في عاداتهم وتقاليدهم في عصرنا الحاضر، نَوَر الشام وكاولية في العراق، الذين فتقوا قلوب الرجال بحسن نسائهم وغنجهن غناء ورقصًا، دوِّنت من مآثرهن الليالي التي لا تمحى من الذاكرة، ويقال إنهن يمنحن كل الغوايات عدا أعراضهن، قد عبأن القنوات الفضائية بمواد راقصة دسمة تقطرت منها حتى قلوب الشيوخ، وأثّرت من عرقهن جيوب عرابي هذه القنوات. وإقصاؤنا لهم لوثة نازية متوارثة، ولن تزول عن ذاكرتنا تلك المحرقة التي أوقدها هتلر لأجساد الغجر مرورًا باليهود، ولو

كتب وانتصر على الروس وعاد من حروبه مظفرًا لالتف إلينا بمحرقة أعظم من محارق الغجر واليهود، ولكن الله سلم. أما إقصاؤنا لهم بسبب فوضاهم وتسولهم؛ فقد رأينا مؤخرًا كيف تساوت الرؤوس، كل يتسول بطريقته.انتهينا من الصلب ولم ننته من بداح، الرواية لا تزال طرية لم تنضج بعد، ثمة حكايات كثيرة تفتقر إليها الحبكة بيد أنني لن أتوقف، سأجدّ في البحث عنه، ولن أترك للوقت فرصة للتسرب من بين يدي الحيرة، سأتجه إلى شخصيتي الثانية؛ الطقاقة بخيتة.

2

الليلة البارحة استعدت جدولة الوقت مع بخيتة. كادت تعرش أذني بأسئلتها اللحوحة عن غياب الأيام الفائتة، ولم يهدأ وجيب قلبها المنتعش لدن سماع صوتي حتى وعدتها بالمثول بين يديها عند الساعة الثالثة عصرًا. لم يقل احتفائي بها عن بهجتها بي، كأنني شحنتها بوقود الحياة، والحقيقة أنها زوّدتني بطاقة إضافية لكتابة رواية. تلك الليلة انزويت في غرفتي، ملتثمًا على أوراقي فوق طاولتي الخشبية الصغيرة أدوّن كل ما استجمعته من بداح، وفي ورقة جانبية كتبت فقرات سريعة سأحرث بها دماغ بخيتة، التي لم أحدّد الصفة اللائقة بها، هل هي سيدة الأعمال بخيتة أم الطقاقة بخيتة أو بخيتة «حاف» دون إضافات؟ ظهيرة اليوم التالي كنت أحرّض نفسي على الذهاب إليها باكرًا، فخرجت قبيل الثالثة بقليل، فالمسافة من المطار القديم وحتى منفوحة تمرّ بطريق مستقيم، لن يسرق مني وقتًا إضافيًا، هكذا خمنت، إلا أن ظرف الطريق المفاجئ أخّرني قرابة الساعة، نسيت أنها ستبرز إلي على ناصية طريق البطحاء وقريبًا من مقابر العود ألفيتها جالسة على رصيف المقبرة، تحيط بها أكياس معبأة بالبهارات والخلطات الطبية الشعبية والملابس المحاكة يدويًا، تجمعها من نساء يقطنَّ حي العود. صفرت لها فهبت

سريعًا تفرك يديها حنقًا. ركبت تفوح بعرق مضمّخ برائحة الصندل، وأنا أشاغل نفسي بترديد بيت من قصيدة (مرحوم ياللي في ثرى العود مدفون)، انفجرت غاضبة قائلة:

ـ ما دريت أنت ووجهك أن الليلة عندنا حفلة؟

ـ ما قلتي لي، بالعادة إذا هو عرس تعلمينني قبله بيومين؟

ـ لا مالك لوى، الليلة محتفلين بفوز باراك أوباما بالانتخابات الأمريكية، وصارت فرحتنا فرحتين، ويحقّ لنا نفرح وندخل بعيون أكبر شنب بهالبلد.

كادت أن تفرّ من بين شفتي ابتسامة فقبضت عليها قبل أن تتسلل فأقع في مغبة سوء الفهم الذي سيؤدي على الأقل إلى طردي، وهذا ما لا أريده ولا أتوخاه ولو بأقل المحاذير، خصوصًا في هذه المرحلة المهمة من مراحل تدوين مادة روايتي، ولكي أربط جأشي أكثر سألتها بجدية:

ـ طيب أنا معزوم؟

ضحكت بعدما تفككت خيوط الضغينة من وجهها وقالت:

ـ أنت أولهم وش دعوى.. هالحين تساوينا يعني ما فيه فرق.

ثم تابعت ضحكها ونكاتها التي جاءت من العيارات الثقيلة غير المعهودة، كانت في مجملها مغموسة بالسخرية من لونها الذي جرّ عليها العار. على الرغم من أن هذه المدينة السمراء، الناس يتقاسمون دكنتها بالسواسية، بيد أنه

عندما وصل إليهم زاد اللون كلاحة، هذا ما أسهبت في الحديث عنه، وختمت قائلة:

ـ وإلا ليش يسمون الأمريكان العرب ملونين؟ تدري ليش؛ لأن اللي شايفين أنفسهم بيض هنا لما يروحون عندهم يصيرون سود.. بس حنا هالحين مقبولين عندهم أكثر، والله لا يحرمنا من باراك.

كيف تعلمت بخيتة كل هذه الفلسفة المخلوطة بالمعلومات الضرورية للحجة. حملتها إلى سوق المعيقلية معرجين على تجار الجملة لتقتص منهم حصتها من البضائع المتنوعة، أدوات زينة، ملابس نسائية داخلية وخارجية، ألعاب أطفال، ألعاب نارية، ومأكولات تسالي مغلفة، هذه البضاعة تجلب لها من أسواق خارجية عبر هؤلاء الموزعين المعتمدين؛ فبخيتة لا تختلف كثيرًا عن محلات (أبو ريالين)، هي مثلهم موزعة معتمدة. مررنا على بسطاتها المنتشرة عبر شبكة مواقع انتقتها بعناية بين البائعات الصغار، المحاطات بثلاجات البيبسي وطسوت الفصفص والفشفاش، أقامت عليها بعض بنات جلدتها، ممن يساكنها الحي والأحياء القريبة. التقطتهن من تقاطعات إشارات المرور متسولات أو بائعات مناديل أو قناني ماء صحة، بمثل ما التقطتني ذات يوم هائمًا أجيل ناظري بحثًا عن راكب. أسرتني بكرمها، ولين عريكتها، إلا ساعة تستشيط غضبًا فتفرقع كقنابل موقوتة. لا تنساني من خيراتها أبدًا، قبل انطلاقي في مشاويري اليومية تزوّدني بتشكيلة منوعة من علوك اللبان، وكمشة فصفص وعدد من قطع الفشفاش؛ هذا الشيء

الغريب المصنوع من الذرة القاسي لا ينكسر نيئًا حتى لو دهسته بونيتي، وما إن توضع قطعة منه بالزيت الساخن حتى يفترش السطح متفتحًا كزهرة ياسمين، هذه العجينة السمراء اليابسة تصبح فجأة صفراء بحافات حمراء كشفتي حسناء حُدِّدتا بقلم روج أحمر، وهذا ما كان يعجبني فيه، ولي فيه مآرب أخرى، فهو يسليني وينسيني سواقين الليموزين الذين يتبخترون أمامي بسياراتهم الفارهة بكل صفاقة وتجاهل، وكأنهم فاتحو السند والهند. من عجائب هذه المدينة أنها شكلية وإشكالية. شكلية من حيث الرؤية الظاهرية، لا يُنظر إليك إلا من خلال ما تلبس وما تمتطي، وإشكالية من حيث الهوية، لا أحد قادر على تحديد هويته الطبيعية، فالوطن أصبح بمقاس فضفاض يندس تحته كل من هبّ ودبّ، وهذا لا يروق لكثير، لذلك كانت القبيلة في متناول الذاكرة، فشدت أقمطتها لتضيّق الخناق على المنتمين إليها، فلا يلحق بها إلا من يمنح تذكرة الولوج من فوهتها الضيقة، أما الوافدون فهم بحسب جنسياتهم، وضعوا في درجات لا يتزحزحون عنها، ولم تنفعهم قبائلهم التي انحدروا منها، أما بخيتة وقبيلتها السوداء فلهم شأن آخر سأعرفه من لسانها. قبيل مغادرتي مركز القيادة، أعني بسطتها الرئيسة حذرتني من مغبة التأخر ليلًا.

3

في الليل أحيت بخيتة حفلتها الموعودة. كانت ليلية كبيرة، حملتها ومعها شلة الطقاقات: غادة ومعتوقة ونصرة ورجاوي ونادرة وميمونة وتنعيم، وعلى رأسهن تفانين ذات الصوت الكلثومي الشجي. جئن بمعداتهن من طيران وطبول وفحم لتسخين الطبول ودلال وأباريق، ودعت لها صديقات البسطة وجاراتها. تدعي بخيتة أن هذه الاحتفالية ما هي إلا تعبير فرح بفوز باراك أوباما بالانتخابات الأمريكية.. الأمر الذي لم آخذه على محمل الجد، أجواؤهم دائمًا صاخبة، طبل وزفن ورقص وغناء، فهي مهنتهم وأنسهم أيضًا. وبما أن العادة جرت على تقديم العشاء على الطبل والرقص فقد بادرنا نحن الشباب بمد السماط البلاستيكي، ورتبنا سفرة الطعام جيدًا، ثم دعونا الجميع لتناول العشاء بلا تفرقة، صاحت بخيتة منادية على الجميع بصوت عليٍّ:

ـ لا تخلون أحد.. كلهم يجون، المحل يكفي.

جلسنا أمام سفرة طعام ممدودة على الأرض نتناول المثلوثة؛ نلحق اللقيمات الكبيرة بجرعات من البيبسي مع تعليقات ساخرة وشتائم، ومع آخر النكات التي تداعت إلينا على خلفية فوز باراك أوباما، لم يطل قعودنا متربعين، بل

نفضنا أيدينا مبادرين إلى لملمة السفرة وبقايا الأكل الذي سيحمل عاجلًا إلى الجياع المجاورين، عقبها التففنا في حلقة ممطوطة ومحكمة تتخللنا الطقاقات وهن يهيئن أصواتهن ويفركن أيديهن استعدادًا لاستقبال الطبول، المرفوعة فوق مواقد الجمر لتسخينها. جلست مجاورًا لبخيتة أفرز تفاصيل هذا الشمل الملتم، عاقدًا مقارنات بينه وبين حفلة تهاني ورباب، فهناك كل الأشياء كانت مصطنعة حتى الأفكار والتعليقات والنكات، كل شيء.. كل شيء، بما في ذلك الأغاني، وهنا تبدو الأشياء طبيعية تلامس شغاف القلوب، فتأتي إليها النفوس طائعة ولينة ومبتهجة.

بدأت فاعليات الحفل بسامرية انطلقت بها حنجرة (تفانين) مغنية الأعراس الشهيرة، تبعتها بخيتة بصوتها العريض المتموج، ثم ميمونة مسؤولة التنسيق الإداري مكتشفة المواهب، ثم تعالى قرع الطبول، ودقت الراقصات بأقدامهن الأرض، رقص الشباب إلى جانب الفتيات يتشابكون بالأيدي، وبعضهم يسقط مترنحًا ثم ينهض لمواصلة الرقص. يا الله كيف تفاعل هؤلاء الناس مع الحياة بتوترات أجسادهم. أرى أعينهم تلمع بالفرح لأول مرة يرقصون بما يشبه الجنون. أيقنت أن بخيتة لم تكن تمزح، فهذا الفرح استثنائي في حياتهم جاء على خلفية انتصار أوباما، هذا الانتصار السياسي والإنساني للعدالة والمساواة والحرية. هو ليس من أجل أوباما بعينه، بل انتصار البشرة السوداء والأنف الأفطس، انتصار إيقاع الطبل على الجيتار.

وانتصار الأقدام العريضة التي تدكّ الأرض على الأقدام الصغيرة التي تمسح عليها بقفزات وئيدة متناسقة تستحثّ جنيات الأرض كي تهبها الحلم، هي هنا ترقص معها، تجتذبها إلى درك الأرض السفلى كيما تباهي بها ملك الجان الأكبر.

رأيت فتاة تلج علينا بوجه يشع بياضًا ويشرق محيّاها بابتسامة عريضة. نهضت إليها تنعيم مبادرة إليها باستقبال جذل. أخذتها بين أحضانها تقبلها وتشمها وبلهجتها عتب لتأخرها عن موعد الحفل، والفتاة تعتذر لها بأهلها الذين لم يكونوا ليسمحوا لها بالخروج لولا وساطة صديقة لها يثقون بها، ثم شدّتها من أصابع يدها الثلجية التي التقت بسواد الليل البهيم توسع لها وتجلسها إلى جوارها، وعيناها لا تنفكان تناغيها كطفل لا يملّ الدلال.. وأسئلة تجوب فضاء سكوني غائصًا في تفاصيل هذه الجلبة. كيف لم أرها من قبل؟ من هذه يا ترى؟ وكيف يصح وجود هذا البياض المشع وسط البشرات الداكنة وهذا القوام المياس؟ انشطر الصوت عن الصورة لم تعد للطبول إيقاعاتها الهادرة، كان هذا التباين اللوني والشكلي من التقاء الليل بالنهار، سبب الريبة التي اجتاحتني، لم أع إلا والأصوات المتشنجة على ايقاعات الطبول تدفع الجميع داخل دائرة حلبة الرقص.ولما احتمى وطيس الحلبة، نهضت تنعيم تسحب خلفها فتاتها العاجية تراقصها بهيام واضح، فتعالت صيحات الفتيات وغمزهن ولمزهن، وهي تتمايل وعينها لا تبرح الطاقاة تنعيم المزهوة

بها. توقفت الطبول وكأن الكون التأم صامتًا عادت تنعيم إلى مكانها تلصق فخذها بفخذ فتاتها وهي تناولها كأس الماء لتبلل حلقها الناشف، ثم جعلت تنعيم تنشف وجه الفتاة من قطرات العرق، وأخيرًا قبلتها على ثغرها بلهفة.. هذا السلوك الذي بدا اعتياديًا للآخرين أثار داخلي شكوكًا أعادتني إلى الوراء قليلًا.. ذكرتني بما كان يبدو لي ظاهرًا ولا أفهمه بين تهاني ورباب.. ما سر هذا الاستلطاف الأنثوي بامتياز يا ترى؟ استدرت نحوهما كي أتابع هذه المشهدية بتفاصيلها الكاملة، وقفت بين اثنتين يتغامزن بخبث، ويشرن إلى هذه الحفاوة الخاصة.. سحبت تنعيم من سلة الفواكه القريبة منهن عنقود عنب، وصارت تدس حباتها بين ثنايا الفتاة المشعة بالبياض، الحبة تلو الحبة، وبخيتة تملس على الطبل استعدادًا لبدء جولة تدريبية راقصة أخرى، فنهضت الفتاة تشد تنورتها الملتصقة على فخذيها وتنعيم تعينها على ذلك بحفاوة مكشوفة. بدأ الضرب على الدفوف وتوسطت بين الفتيات تهزّ جسدها وتتمايل بشعرها وعينها لا تحول عن تنعيم، حتى التفت بنصف استدارة نحوي لتقع عيني بعينها وتعتدل بانتصاب تام نحوي، ترفع غرة شعرها المنسدل على جبينها إلى أعلى، هذا ما يميزها عنهم أيضًا ويبعد احتمالية الانتساب إليهم. طفقت إحداهن تصفق وتصفر تشجيعًا لندى، هذا اسمها إذن، وندى لم تعد تعبأ سوى بنظراتي الشرهة وأنا أذرع كامل جسدها الضامر ونهديها النافرين من بين حواف البلوزة، والوركين العظيمين. كانت ترج عجيزتها في

إشارة أخالها تخصني بها، مواربة نظراتها عن تنعيم التي ضاقت ذرعًا بصدودها المفاجئ، فولجت الحلبة تعزل بيني وبينها محتقنة الوجه بعتب فهمه الجميع وضحك منه البعض، لقد توجست بترمومتر عالي الدقة حرارة نظراتي الشرهة، فتوسطت بيني وبينها لتشتيت أي بادرة لتعلق مفاجئ، وكي لا أزيد من أوار السخط ابتعدت قليلًا ناحية بخيتة أعتذر لها مستأذنًا. وقبل أن أغيب عن عينيها ذكرتني بصوت مسموع بحفلة ليلة ما بعد الغد، أومأت برأسي وعيناي لاتزالان ملتصقتين بندى ورحلت.

4

لا تنسى بخيتة وصاياها للطقاقات. سمعتها تمليها عليهن بحزم أن يدخلن القاعة بهامات مرفوعة فلا يمارين الأخريات بأي نوع من كلام، حتى التبسط أو العفوي ممنوع، هذه السياسة أو الحيلة النسائية تنشر الذعر، وتؤكد الاحترام في قلوب النساء وبذلك يبسطن سيطرتهن الليل بطوله، ويلقي الرعب في القلوب ويكسو الصالة بالسكينة. علمتهن كذلك ألاّ يتحدثن بينهن الا همسًا، وأن يتفحصن المداخل والمخارج مثل المخبرين بأعين عسس حاذقين، فقد علمتهن التجارب أهمية معرفة مخارج الطوارئ، للهروب منها فيما لو حصل شجار وتطوّر إلى التماس بالأيدي والأحذية، وللحد من الوصول إلى هذه المرحلة فقد أوكل أمر أي تجاوز لتفانين وبخيتة، فهن مخولات بإطلاق عبارات ثقيلة من كلمات نابية وحارقة يخمدن بها كل الألسنة المتطاولة إلى نهاية السهرة، ولديهن عبارات جاهزة.

ولجن «الطقاقات» الصالة واتخذن مكانهن المخصص والحاضرات يلاحقنهن بنظراتهن ويتفحصنهن جيدًا. سمعت تفانين إحداهن تقول لصاحبتها وكأنها تريد إسماعهن:

ـ يا أختي ما أدري وش فيهن يدخلن ضايقة صدورهن

ومكشرات والنفس على طرف الخشم.. ترى الأغاني يبيلها سعة صدر ونفس خفيفة.

فالتفتت إليها تفانين بعدما أفرغت الفتاة كل ما في جعبتها من كلمات متذمرة وردّت عليها بصوت مسموع:

ـ يا بنات، اللي ما احنا عاجبينه يضف وجهه ولا يقف قدامنا أحسن له.

هذه الصرامة محددة جدًا، وجلية المغزى، تنبش الذاكرة وتحيي بعض المواقف في حياة بعض الفتيات اللاتي تعرضن للضرب من بعض الطقاقات، على خلفية مشادة كلامية ابتلعت الفتاة لسانها بذعر فرّخ رعدات متواصلة هزّت أركانها. حاولت إحداهن تليين الموقف فنهضت إليهن بابتسامة مزورة وهي تقول:

ـ ما عليكن منها هذي ما تفهم.. بس يالله طقن نبيكن تهزن الأرض هز.

لوت تفانين رأسها نحوها كمن يتربص بفريسته وردت عليها قائلة:

ـ أقول أنت وش تحسين فيه، وش ذي «طقن» قولي شدوا لنا، أطربونا.. أما طقن لنا منين جبتيها.. إذا ما تعرفين تحكين لا تورينا وجهك.

هذا الصوت الأجش المعبأ بوقود الحنق انصب في أسماع الكل عبر السماعات فخشعت الأصوات تتابع هذا الحوار الصاخب المشحون بالتوعد.

قدمت أخت العروس تتهادى بين الصفوف نحوهن،

تحاول تهدئة الأجواء العاصفة بالتشنج، تطلب من الجميع عدم التدخل فيما لا يعنيه، ثم التفتت إلى تفانين تغمرها بالمودة المتكلفة، وتمسح عنها تذمرها وخوفها الذي يرتاد رأسها أن تنفض الطقاقات أيديهن ويرحلن، وتضيع كل الترتيبات والجهود التي بذلت خلال ثلاثة أشهر فائتة سدى.. قالت:

ـ ما عليكن منهن غنوا يا بنات أطربونا.. وخلن هرجكن معي.

بارتياح باد على وجه تفانين التي أحنت رأسها نحو بخيتة وهمست لها ضاحكة.

ـ والله تمون بنت الحلال.

ضحكت بخيتة وسمع الحضور هذه العبارة الساخرة، ما جعل أخت العروس تنتفض من الغيظ، تواري وجهها المربد عنهن حتى تمضي هذه الليلة على خير. هؤلاء النسوة لا يعلمن كم هي المعاناة التي مرّت بها كي تبرم العقد الشفوي مع الطقاقة بخيتة لإحياء هذا الحفل، لذلك لا تريد أن ينفض كل شيء في لحظة واحدة من عبارة هوجاء تطلقها إحداهن بلا مسؤولية. فكرت بذلك مليًّا، ثم عادت إلى تفانين تنحني عليها هامسة في عقر أذنها تقول:

ـ شوفي لا يهمونك..سوي اللي يطيب خاطرك.. أنت المقدمة عليهن.

ـ هذا اللي راح يصير.. وخلي وحدة تفق فمها ألعن أبو جدها.

نهضت أخت العروس بشيء من الارتياح الناضح به

وجهها المعفّر بمساحيق تلمع من انعكاس الضوء مرفق به ابتسامتها تملأ محياها، ثم صدحت تفانين بموال حزين:

مـــا كـــان الـــفــــراق اخـــتـــيـــاري
ولا عـمـري اخـتـرت الـوصـال ولـقـيـتـه
وأنـا أعـشـقـك عـشـق الـمَـطـر لـلـصّـحـاري
مـهـمـا قِـسـي وقـتـك عـلـي مـا جِـيـتـه
مـا كـان بـعـدي عـنـك بـالـبـال طـاري
اخـتـرت بـعـدي عـنـك مـنـك ورضـيـتـه
لـو كـنـت داري بـس لـو كـنـت داري
مـا أعـطـيـت لـك قـلـبـي وحـبّـك مـشـيـتـه

قبضت بصوتها الرخيم المتموج قلوب الحاضرات، وتسيدت الصالة فتهاطلت معه دموع النساء، خصوصًا قريبات العروس اللاتي علا نشيجهن. قرعت الطبول فأشارت بخيتة إلى ندى بنزول المنصة، فامتثلت على الفور. اقتحمت الحلبة تتمايل على إيقاعات الطبول بحركات انسيابية، تهز شعرها الأسود الفاحم بين كل الاتجاهات متعهدة شعرها الساقط على غرتها البيضاء الصافية لتومض بينهن كملكة تتوجها الأغاني، استثارت في إحماءة سريعة قلوب العذارى ليتقافزن داخل حلبة الرقص، ينافسنها بأجسادهن الناحلة، وأعينهن تستشري بسكرة الأغاني، وصوت تفانين الذي بدأت تجاذبها إياه تنعيم، لتسحب معها مزيدًا من الأقدام الصغيرة والسيقان الحاسرة والصدور تشفها الفساتين العارية وهي ترتج على وقع الخطوات الإيقاعية. عند هذا المنحنى الليلي تحققت إمبراطورية بخيتة وفرقتها. ولحظة انتهى الشوط الأول كانت الأعين الصافنة تبرق بحالة من الرضا والبهجة. وبخيتة مع

بقية البنات يتفحصن الوجوه يقرأن وقع أصواتهن الشجية، من وجوههن الطافرة بالبهجة والانصياع لإرادة بخيتة، أشارت سريعًا لبعض بنات الفرقة فنهضن ينفضن الخدر عن أقدامهن، ومشين باتجاه واحد نحو دورات المياه. هناك ألفين عددًا من الفتيات يعدلن سحناتهن وتسريحاتهن. وقفن خلفهن يذرعن أجسادهن البيضاء الرقيقة بغمز مكشوف ثم يخرجن سجائرهن ويشعلنها على مرأى منهن بشيء من الأريحية، فمن لا يعجبها الحال تسارع بالهرب المتدفق ريبة وخوفًا محتمية بجموع الحاضرات، ومن بقي منهن يخضعن مباشرة للفرز الذي يبدأ من سيجارة بعيدًا عن الأعين، هذه الحيلة تكشف عن مخبوء الفتيات، فالسيجارة التي تمنحها الطقاقة كافية تمامًا لوضع علامة صح في خانة «صديقة طقاقة محتملة». الاستراحات المتوالية عقب كل شوط راقص تمتن هذه العلاقات الناشئة، وتحقق لهن لذة الاصطياد، وتقود أخيرًا إلى متعة الرغبات المسروقة، بعضها تنجز على عجل وأخرى تُقضى على فترات متقطعة، بمواعدات مهرّبة من وقت خامل، هذا الاصطياد يسوق الفرقة بين زبائن محتملين، فالأرقام الموزعة عفوًا لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون مماثلة للأرقام التي تدس بحميمية خاصة من حيث التأثير والديمومة، فالجسد الذي تعلمه القبلات ويغرقه عرق الأحضان الساخنة لا يمكن محو التفصيلات الدقيقة منه.

في اللحظة التي تعود فيها الطقاقات إلى أماكنهن تكون الطبول قد سخنت فوق حرارة الجمر اللاهب؛ لتبدأ الأعين بالتلاقح، انتظارًا لموال سامرية راقصة، وتتغير خارطة

الصفوف، تحتل الفتيات الصفوف الأمامية بما يحجب الرؤية الكاملة عن كبيرات السن. وحدها ندى لا تبرح مكانها ملتصقة بتنعيم؛ لا تنهض حتى تأمرها بالرقص كصنارة اصطياد. ثم تعود من مهمتها لتجفف تنعيم بطريقة مكشوفة حبات العرق الطافحة على جبينها. الشوط الثالث مثل بداية تعارف، حيث يبدأ الاستئناس، وتهدأ النفس قليلًا، هنا تستشعر ندى انتصارها، فقد استفزت الفتيات اللاتي صرن ينحنين عليها ويسألنها كالعادة:

ـ أنت من أنت بنته؟ من طرف العروس وإلا العريس؟

وكلهن لهفة لمعرفتها وهي تجيبهم ضاحكة..:

ـ أنا من الطرفين.

ثم تغضّ الطرف عنهن مع إلحاحهن خشية استثارة تنعيم، فيحدث ما لا تُحمد عقباه.. بعض النساء من كبيرات السن يأتين إليها خاطبات بعروض سخية، فتجيب تنعيم نيابة عنها بلغة ساخطة:

ـ لا.. هي متزوجة وعندها عيال.

ـ طيب ما عندها خوات؟

ـ لا ما عندها خوات ولا أخوان.

بهذه الإجابات العجلى تقطع تنعيم خيط الأمل. وفي الشوط الرابع تدشن ندى مرحلة رقص جديدة على أغاني راشد الماجد، مستعرضة فستانها الذي تحرص تنعيم على اقتنائه لها وفق أجمل الموضات العالمية، وهذه لعبة ثانية تلفت بها الفتيات للرقص الاستعراضي، فيتمايلن وفق هوى

الأعين المتجمهرة لرؤية موديلات الفساتين، وكيف هي على الأجساد المتبرجة البّضة، فتنطلق معها الأيدي تصفيقًا حارًّا وتصفيرًا مدويًا. والأيدي لا تكلّ من قذف النقود في حجر بخيتة إمعانًا في طلب المزيد من (الطق)، عندها تتسرب ندى من بينهن تاركة لهن حلبة الرقص، يتممن حالة النشوة التي تستخفهن لحد الطيران. والنساء المتفرجات يتهامسن بعبارات تقييمية للأجمل من بينهن مستوضحات عن أسمائهن وعوائلهن باستهداف كامل. وهذا ما يحمي وطيس الرقص بهوج فاضح حتى يسقط بعضهن إعياء فينسب إلى الزار. كي يقال فلانة سقطت من الزار. بخيتة والطقاقات معها يعلمن جيدًا هوية الزار وكيف يسقط الراقصة تحت وطأة تأثيره. ومع ذلك يسارعن في طلب البخور فيمررن أدخنته على أنفها فتفيق بشيء من الإرهاق. بقيت داخل حلبة الرقص ثلاث بنات يضربن الأرض بأقدامهن بحركات هستيرية، ولم تكل أيدي الطقاقات من الضرب، فتوقفن بإشارة من بخيتة وهن لا يبرحن المنصة يطالبنها بالمزيد بعناد وتحدٍّ غير محسوب، زعقت إحداهن في وجه بخيتة قائلة:

- ليش وقفتي.. ترا يا حبيبتي ما تطقين ببلاش.

صمتت بخيتة وعيناها تبرقان بالمقت ويداها الساخنتان تستعدان للانقضاض، تدخلت أخت العروس لمحاولة تهدئة الفتاة الغائبة عن الوعي تقريبًا إلا من صوت حانق:

- وش تحسبين نفسك.. ترا كلك طقاقة ما تساوين قرشين.

عندها نفضت بخيتة الدف من حجرها وأمسكت بشعر

الفتاة. وأخذت تصفعها على وجهها حتى غابت الفتاة عن الوعي، عندها تعالى الصياح. وَلَجَّت القاعة بصياح النساء فاقتحم الرجال عليهن الصالة، فانقضوا على الطقاقات اللاتي لم يستسلمن سريعًا للكماتهم. لم نكن بعيدين عن قاعة الاحتفالات، ولم تكن سوى دقائق محسوبة حتى أصبحنا في عراك لم ينفك حتى تدخلت الشرطة ونحن لا نرى سوى الأيدي والوجوه، انزوت النساء بين ردهات وغرف القاعة القصيّة. تجمهرت سيارات النجدة أمام مدخل النساء الرئيس، لنقاد إلى مركز الشرطة القريب، تسللت بخيتة وبقية الفرقة عبر بوابة خلفية، وهربن مع بعض الشباب المنتظرين هناك. لم يطل مقامنا أمام ضابط الخفر، فالاتصال السريع الذي أجرته بخيتة كاف تمامًا لتحريرنا وإطلاق سبيلنا دون أي إجراء يُذكر.

5

لا يفارق أذني صوت تفانين العذب. رأيتها أروع مغنية. كان صوتها مرسالًا، بمثابة تعالق قلبي، جمع بيني وبين ندى التي لا تملّ الغناء ببعض مقطوعاتها، فتزيد الحسن حسنًا إضافيًا. نسترق إلينا الطرقات ونلتقي بالرغم من الجزع الذي يجتاحنا، خوفًا من أعين رجال هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المزروعة في كل الزوايا والأمكنة، خصوصًا المقاهي والمطاعم، ننتقي مقهى لا تميّزه الشهرة ولا تثقله الأقدام، نجلس متقاربين على حذر، اتفقنا أولًا على انتمائنا الكلي لعالم بخيتة، نتذكر ابتسامتها الدائمة، وكأن عوامل التعرية نحتتها بوجهها. الله يعطي ويأخذ، وهبها روحًا شفافة وابتسامة نظيفة وصوتًا رخيمًا وساحرًا وقوامًا جذابًا، لا يدانيها في ذلك سوى نعومي كامبل. هي لا تعرف هذه الميزة، أضحكتني وهي تحكي لي كيف كانت بخيتة تعابث الشباب المولعين بأصوات النساء الرخيمة الرخوة حتى مطلع الفجر، فتنال منهم حظها وتحرق بصوتها أعصابهم حتى التفحم، إلا واحدًا منهم، لم تستطع الفكاك منه، فقد جدّ في طلب رؤيتها ووعدها وعودًا كثيرة، في البداية ربطت جأشها فلم ينفك حتى أغواها بالغالي والنفيس من الهدايا، فقط ليقتطف منها رؤية، ضربت أخماسًا في أسداس ودوّرت

الفكرة في رأسها، وبعد طول تفكير وافقت، فلربما تحصل منه على شيء أو ينصرف عنها إلى غير رجعة، وساعة حلّ الظلام وبدأت المعيقلية تخفّ من الأقدام جاءها في الموعد المحدد فعرفته بسيارته. وقفت أمامه ممشوقة القوام تحمل طستها فوق رأسها وتضرب بشنطة السيارة ليفتحها فتضع حمولتها داخلها، وما إن رآها حتى اختلج قلبه ليس عشقًا وهيامًا بل صدمة مورطة، وهو لا يعلم المغرور أن ما خلف بشرتها السوداء نارًا متقدة لا يعلمها إلا المجربون من أبناء العم توم، وعاشقو السمراوات ذوات الأجساد الملفوفة، أما بليد الحس والشعور، فقد أقلّها على مضض ملتفًا بها من المعيقلية إلى منفوحة ومن منفوحة إلى الطرادية، لم يعتصر قلبه كمدًا جرّاء ما يراه بأم عينه الكسولة من أحوال هؤلاء المساكين المتسولين، الذين خرجوا من جحورهم الطينية يتكففون الناس ويسألونهم قوت يومهم من مطعم ومشرب. علقت ندى وهي تطرد هواء ساخنًا من صدرها قائلة: بخيتة وغيرها من نساء الأعمال يكدحن كي يطعمن فريقًا من الجياع في هذه الأحياء المنكسة على فقرها، ثم أتبعت: أنزلها الغر لصق باب البيت، وانطلق موليًّا إلى حيث لا رجعة مفارقًا إياها فراق البين. عند نقطة النهاية هذه فرعت ندى بطولها مستعدة للرحيل. وقفت أمامها مترددًا يتوق لاختطاف قبلة سريعة لولا مخافة صدودها الذي سيكسرني، فتركتها ترحل بعدما عركت أناملها بقبضة يدي. جلست أكمل ارتشاف فنجان قهوتي التركية ورأسي يمور بحكاية ندى عن بخيتة، حقيقة لم أفكر يومًا بأمر هؤلاء القوم، ولا من أين انهالوا، ولا كيف تشربتهم مدينة الرياض، كل ما أعرفه

عنهم أنهم ما أخبرني به أحد الركاب من أنهم كانوا يظهرون في ساعات من نهار ينحدرون على شكل قبائل متحركة يحملون صغارهم حتى الرضّع منهم في جوف أكياس معلقة فوق ظهورهم، يجوسون أزقة الرياض وحواريها يلتقطون الحديد والنحاس أو أي شيء ينتسب إليها من قريب أو بعيد، ويتناولون ما تمدّه لهم الأيدي من طعام مطبوخ وغير مطبوخ. لم يكن أحد يعرف أو يسأل عن السبب وراء لهفتهم خلف هذا المعدن الرخيص. كان يُشاع عنهم أنهم يخطفون الأطفال ويمارسون الشعوذة، لذلك يوصد بعض الناس دونهم الأبواب مع أنهم كانوا مسالمين جدًا. بعض الناس يرق لحالهم ويمد لهم ما تفيض به الحاجة من أكل وشرب. يقضون ساعات النهار يجولون بين الخرائب ينبشونها، وقبل أن تزحف الشمس ناحية المغيب يستلمون طريق العودة ساحبين فلولهم إلى الأمكنة المجهولة.

6

في الأيام التالية توغلت في حمى هؤلاء القوم، آتي إليهم شرهًا باحثًا عن ندى، أجالسهم ما وسعني الوقت، أشاطر الشباب لعبة البلوت والكانكان، وأذني مرهفة على كل المتحركات، وعيني مبصرة لكل جسد يدخل أو يخرج، تأتي إلينا الجدة مبروكة زاحفة ليس منها سوى الجلد والعظم. قال لي أحدهم: إنها ربما تناهز المئة من العمر وربما أكثر، فلا أحد يعرف تاريخ ميلادها، تفتحت أعينهم عليها وهي على هذه الشاكلة، تجوب الدار زاحفة، تقتات من سقطهم، تأكل كل شيء يقع تحت يدها حتى دهانات الشعر. لم يعودوا يخشون عليها العلة، فقد تجاوزت كل معادلات الحياة فلا هي بالميتة أو الحية، تصيح بصوت يشبه المواء، بعض كبار السن يفهم ما تقول، باللغة الغريبة التي تتفوه بها. سجنت كل ما عنَّ لي من أسئلة في صدري حتى نفضنا أيدينا من ورق اللعب فسألتها عن جذورها فسردت عليَّ كل ما تعرفه بدءًا من أصلها ولغتها الأفريقية، أخبرتني أنها تنتمي إلى قبيلة من قبائل الزولو المعروفة، أغارت عليهم قبيلة البانتو القريبة منهم وأسرتهم. وكان من عادات شيوخ القبائل هناك بيع أسراهم للتجار العرب على سبيل التبادل التجاري، حيث كانت تجارة الرقيق رائجة في المحيط الهندي والخليج

العربي وصولًا إلى البحر الأحمر. كان النخاسون من الزبائن يتوافدون من كل حدب وصوب لشراء أجود الذكور والإناث منهم، وتحت طائلة معاينة دقيقة، حيث يأخذونهم بعيدًا عن الأسواق المكتظة بالوفود والزبائن، في غرف أو مساكن مجاورة، حيث مكان إقامتهم. الذكور يتمّ خصيهم قبل ترحيلهم، أما النساء ومن بينهن جدة بخيتة (مبروكة) فقد اقتدن إلى غرف خاصة بالكشف للتأكد من وجود غشاء البكارة لدى الفتاة العذراء وجسها بواسطة امرأة متخصصة تقوم بذلك، قبل نقلهن إلى ميناء جدة، فالجساسات أو المتحسسات يضغطن على العضو التناسلي للتأكد من أنه ليس مطليًا بمزيج من لب الرمان وجوزة الطيب، وهي وسيلة غش معروفة كان يقوم به تجار الرقيق فيطلون بها غير العذراوات ليعطوهن مظهر بكارة مؤقتة.

هكذا كانت مبروكة ضحية حرب خاسرة؛ لتصبح ما بين ليلة وضحاها من شريفة في قومها إلى أمة تناولتها المدن بمثل ما تناولها الرجال، فمن جدة إلى مكة ومنها إلى قصر من قصور الرياض تداولتها الأيدي والأبدان،حتى تمّ تحرير العبيد بقرار ملكي أصدره الملك فيصل رحمه الله.

بت وبخيتة منفردين في مكاننا، نعاقر كؤوس الاعتراف. تأوّهت بعين منكسرة وحسرة وقالت بصوت مكلوم:

ـ ليتنا بقينا في هذه القصور (يمكن) صارت حالتنا أفضل من هذا التشرد، فبعضنا لا يزال في الدرك الأسفل من المجتمع. إذن لم تكن حفلتها تلك سوى تعزيز نفسي، مذكرة

صغيرة تحتفظ بوجودهم على وجه أرض تنكر حتى مواطئ أقدامهم على أديمها. أذكر يوم اجترت تنهيدة حزن كصوت ربابة قائلة:

- إيه يا أوباما بس أنت بأمريكا مو بالسعودية.

ما لم تستطع تبيانه بتعبيراتها التلقائية هو هذا المجتمع ذو المعادلة الصعبة، الذي يعاني من تقسيم طبقي حاد لذلك استطاعت بحذق تلافي أسنانه الحادة، فوضعت نصب عينيها وبحذر شديد الطريق الذي ستسلكه بالعمل في مهنة طربية ممتعة مع مرتبة شرف أولى، «طقاقة أعراس» غاصت في عالم الحفلات الخاصة، هذه المهنة الموسمية أفاضت عليها من النعمة ما غيّرت بها حياتها بما في ذلك لون بشرتها لتبدو أقل سوادًا بفعل المبيضات من كريمات ودهانات، فسوق المعيقلية وتجار الجملة هناك يوفرون لها كريمات التبييض بأسعار زهيدة، لم تفلح كل محاولاتي بتسرية كمدها ونكستها بلونها الأسود، ما أفلحت هي فيه حقًا التسويق لأنواع كريمات البشرة والشعر في الأعراس بنسبة جيدة تقتصها من إجمالي البيع.

7

بعد سنوات ثلاث مضنية تخرجت تنعيم من المعهد الصحي.. يرجع الفضل في ذلك إلى صويحباتها: زينة وفرح اللتين شدّتا من أزرها حتى تخرجت معهن ثم لم يفترقن بعدها، حيث تمّ تعيينهن في مستشفى حكومي. كوَّن داخله عصابة يخشاهن الرجال قبل النساء، بأصواتهن المتدفقة بالويلات. أوقفن الجميع على منصة الأدب. أما الممرضات الفلبينيات فوجدن فيهن الملجأ والملتجأ من تحرشات المرضى والزوار، مسلمات قيادهن لهن، وأمسين يشاركنهن الأفراح والليالي الملاح، كشفن لهن عالمًا مختلفًا من خبايا المدينة، وأجرين عليهن ما لم يكن في حسبانهن، فما يتقاضينه في ليلة واحدة كمساعدات طقاقات ضعف أجور ورردياتهن المسائية. يسخنَّ الطيران ويجلبن الماء، حتى يصلن إلى رتبة طقاقات يتهادين ببراقعهن بثقة تامة. هذه البراقع التي كانت تثير اشمئزازهن، اليوم أدركن أهميتها، حتى صرن يتلفعن بها في الأسواق. أما في المستشفى فالعمل الجاد هو ديدنهن، لم يتغير شيء، وساعة الراحة والاسترخاء يلتففن حول بعضهن في الغرفة المخصصة للراحة مع تنعيم وصاحباتها اللاتي يتناوبن

التعليقات على المواقف الطازجة من حصاد عمل اليوم مع المرضى، عثرت الدكتورة ليلى في أرواحهن الخفيفة ونكاتهن الحاضرة مستجَمًا يسري عن نفسها، فصارت تختلف إليهن وتجالسهن حتى ذابت كل العوالق النفسية بينهن، وامتزجن بقدر يسمح لهن بممارسة هواياتهن في الغناء. وجدن لدى الدكتورة ليلى ملكة متميزة في الغناء، من خامة صوتها الشجي الذي تطرب له الأسماع، تغني لهن مقطوعات من أغاني ماجد المهندس وبعض المواويل العراقية وهن في حالة انسجام تام، استمعن إليها كثيرًا وتمتنت عرى المودة بينهن بما مسح كل الفواصل بينهن، ما دفع تنعيم بلا غضاضة لتقديم عرضها للدكتورة، بأن تشتغل معهن مغنية في فرقتهن. بدأ العرض مفجعًا أسخط الدكتورة عليها، وضاقت ذرعًا مما تسمع، وهجرتهن وصارت تتجنب الاجتماع بهن ولا تأتي إليهن إلا للعمل. ذات مرة سمعتهن يتحدثن عن عوائد الليالي الفائتة وما تدّخره كل واحدة منهن، التقطت هذا المسمع وراحت إلى مكتبها تدير الأمر في رأسها، تذكرت أنها «على خلفية خسارتها الفادحة هي وزوجها في الأسهم» أصبحت غير قادرة على مصاريف الشهر، مع أقساط البيت الذي أثقل كاهلهما، فآبت إلى المنزل تجترّ أفكارها، وعند الغداء حدثت زوجها عن تفاصيل ما سمعت والعرض السابق لها بمشاركتهن حصة الليل، كاد الزوج أن يقفز من مكانه لما يسمع، فهؤلاء الطقاقات يحصدن الآلاف في ليلة واحدة؛ بمعنى أنه لو

قدر لزوجته أن اشتغلت معهن لقضي الدين الثقيل المعلق في رقبتيهما ولعادت إليهما سكينتهما. فكر مع زوجته بصوت مسموع، ثم ناما قيلولتهما برأسين يعتلجان بهذه الفكرة، وعندما أفاقا اقترح عليها الخروج إلى أي مكان، دون أن يعلن لها عما استقر عليه رأيه، وفي ركن قصي من أحد مقاهي شارع التحلية، سألها عن طبيعة هذا العمل، وكيف يمكن أن تعمل معهم دون أن يكشف أمرها، فلو تناهى الخبر للأقارب لأمسيا مضغة تلوكها كل الألسن، وهنا انتهيا إلى خطة بمثابة اختبار، بأن تجرب ليلة واحدة، وتغني مبرقعة، ولا تتبسط مع أي امرأة أو تبادلها الحديث. وعقب هذه الليلة يقرران وفق العائد المادي المجني منها هل يستحق المغامرة، أم تكفّ فورًا؟ في الصباح الباكر غمزت الدكتورة لتنعيم، طالبة الانفراد بها، فلحقت بها إلى مكتبها، وهناك تمّ إبرام الصفقة. وفي ظهر يوم الخميس تحضّرت الدكتورة للغناء وقامت بأداء البروفات اللازمة، وفي الليل غنت لماجد المهندس ولأحلام ونوال وراشد الماجد، حتى استحوذت على عقول النساء، وتمكنت من قلوب العذارى. ثم غنت بعض المواويل فأبكت جميع النساء، فصفقن لها وصفَّرت الفتيات، يطالبنها بالمزيد لا يبتغين سواها لإحياء ليلتهن. كل واحدة تتوق للوصول والاقتراب، لولا حيلولة فريق الحراسة دون ذلك. هذه الليلة أصبح لاسمها المستعار معنى كبير (شهد)، فأطربها هذا الاسم وخفقت له روحها، عادت وحقيبتها الصغيرة تحتضن

مبلغًا قدره عشرة آلاف ريال، حصيلة ليلة واحدة طيرت لباب زوجها المنتظر على أحرّ من الجمر، قال لها:

- لا.. موش معقول.. من أول ليلة!

ردت عليه وهي تخلع ملابسها:

- لا والجاي أكثر. ما شفت الحريم والبنات كيف انهبلوا.

- يعني برأيك هالشغلة أبرك؟

- أي والله أبرك من مقابلة المرضى والحالة اللي تغث، على الأقل فيها بريستيج والجميع يصفق لك.

- عمومًا قلنا نتوخى الحذر، هالشغلانة مش مضمونة.

- على الأقل حتى نسدّد اللي علينا... إيه على فكرة اسمي.. شهد.. اقصد الفنانة شهد.

ناما بشيء من الرضا، وبكثير من الأمل، وفي المستشفى لا تفتأ الدكتورة تؤكد على تنعيم وتذكر الأخريات بأن يظل هذا الأمر طي الكتمان، وهددتهن لو كُشف سرها لأي مخلوق كان فستتوقف نهائيًا بلا رجعة. في أقل من شهرين أمست الفنانة شهد تتربع على قائمة البورصة في عالم فرق الأعراس، وصار الناس يطلبونها تحديدًا بمبالغ كبيرة. جاءتها عروض كثيرة قدمت لها من بعض المتعهدين الذين جذبتهم سمعتها وموقعها المتميز بين فنانات الأعراس المشهورات، فأبت لسبب بسيط هو أنها أدمنت التخفي وهي مرتاحة جدًّا لذلك. ولا تريد خسران موقعها الطبي الذي يضمن لها مكانة اجتماعية محترمة.

المهم أنها لا تزال سيدة الموقف، أحيانًا تغطي أكثر من عرس وحفلة في ليلة واحدة. وأنا أدوّن هذه الأحداث لا أدري إلى أين ستسوقها الأيام، فهل ستستمر مغنية مشهورة في ليل الأعراس، إضافة إلى عملها طبيبة في المستشفى العام؟ أم أنها ستقدم استقالتها من مهنة الطب وتنخرط في صميم الفن وتصبح فنانة مشهورة؟ أم أنها ما إن تسدّد ما عليهما من ديون حتى تتوقف نهائيًا عن الغناء؟ كل هذه الاحتمالات واردة. لا أعدكم بتفاصيل أخرى ما لم يجد جديد.

8

وقوفي إلى جانبهن تلك الليلة، أقصد ليلة المضاربة المشهودة، وضعني في خانة قريبة جدًا من دائرة اهتمامهن، لم أعد ذلك المتردد النابت على حافة الجزع؛ الجزع من سؤال عابر عن هويتي بين هذه البشرات السود. أحيانًا أتفحّص بشرتي باحثًا عن بقعة سوداء قابلة للتمدد، وأتوق لمشابهتم في كل شيء حتى فوضاهم ولامبالاتهم. ليلة العراك المشهودة اختلط عرقنا، وتماهينا برائحة عرق زاخم، استنشقت رائحتهم تتضوع من بين أثوابي. اليوم فقط استقبلتني أكفّ الرجال بالتلويح، والألسن الخارسة بالتهليل، والأعين الصافنة بفرح ارتجت منه محاجرها، استشعرت الدفء يسكن عظامي الباردة، هذا الانقلاب المزاجي شيّأني من جديد، وسمح لي بالتقلب بينهم بحرية لا تقبل التشكيك، بالرغم من كل الصخب الذي لا يفتر ظللت أفتش بين الغرف عن ندى حتى ألفيتها تصعد الدرج ذاهبة إلى شقة تنعيم، وكأنها قيّدت قدمي بأنشوطة غليظة جرّتني إليها فتزحلقت باتجاهها حتى كدت أخرّ على أم رأسي. داهمتني مخاوف متناقضة، خوف من الذين خلفتهم ورائي من أن تنتفش جلبة الأسئلة المستغربة، وخوف من تلاشي ندى، بلهاث المستطير استمهلتها فتوقفت، وهي ترقب بوجل باب

شقة تنعيم، تفرعت حالة الاستشعار بنا. كانت اللهفة تفترش وجهها المشوب بشيء من المواربة والحرص، كأننا تحدثنا بلا صوت، وقبل أن أنحدر راجعًا طلبتها أن تتصل بي لتحديد موعد لقاء قريب ما عدا ذلك باتت العلاقة طي الكتمان، وكل لقاءاتي بها داخل البيت الكبير لا يمكن أنها تفسر بمعنى خارج حدود العرف الخاص بهم. تشاغلت عني أيامًا حتى ظننت أنها تراجعت في قرارها، وعادت حمامة أليفة بين أحضان تنعيم. حتى جاء اتصالها الذي طال بي تحريه حدّ اليأس عبارة واحدة ندّت منها بعفوية قالت:

ـ ما رأيك بمغامرة صغيرة نقوم بها هذه الليلة؟

لم أكن قد استعدت وعيي من مزاحمة المفاجأة؛ لا أذكر أنني وافقت، كل ما فهمته «الساعة الثامنة في نفس الكوفي شوب» وقبلها بساعة كنت أجثم بسيارتي في زاوية انتقيتها بعيدًا عن الأعين المحيطة، رأيتها عبر المرآة تنسل من سيارة ليموزين، خافقة بعباءتها بما يشبه الهرولة حتى ولجت باب المقهى فلحقت بها أناكبها، سريعًا انتقت مكانها من المقهى، وجلست تسوي عباءتها الفارطة وتغرقني برائحة عطر نفاذ خيّم في المكان امتلأت به رئتي. توارينا بخوف هذه المرة ليس من رجال هيئات الأمر بالمعروف المترصدين في كل زوايا الرياض المكدسة بالنساء فقط، بل من أعين الفرقة خصوصًا تنعيم. كان لسانها يابسًا ووجهها مخطوفًا، قلت لها:

ـ شكلك خايفة، ما رأيك لو غيّرنا المكان؟

ـ أي والله رأيت سيارة تلاحقنا؟

هذا بحدّ ذاته مفزع لحد الهلع، فاستعجلتها الهرب، وسريعًا ركبنا السيارة لا ندري إلى أين نتجه، فكرت مليًا فلم أجد مكانًا ملائمًا في مثل هذا الليل سوى غرفتي، ففي مثل هذه الساعة لن يشعر بنا أحد ونحن نتسلل عبر أزقة حي الفرزدق. هذا الحي من صفاته أنه محنط بفعل الزمن الغابر، حتى في بيتنا لن يتنبه إلينا أحد، أبواي يغطسان بنوم عميق، ما كنت أخشاه هو صرير الباب ووقع أقدامنا ونحن نصعد السلالم الملتصقة بالباب الرئيس، لذلك أتممنا كل شيء ببطء وتؤدة حتى انتهينا إلى غرفتي لتخلع عباءتها وقلبها يخفق بالخوف وعيناها بالحذر. جلست على طرف السرير، فزحفت نحوها أشد جسدها نحوي حتى أعبئ روحها المنهدمة بالتوتر والقلق، في هذه الوهلة لا يسعنا الوقت بممارسة شيء سوى الكلام. بعدما تأكدت تمامًا من مأمونية المكان قلت لها:

- ندى هاتي وش عندك؟

- وش ودك تعرف؟

- كل شيء.

- كل شيء.. صعب.. الوقت ما يسمح.

- هاتي اللي تقدرين عليه.

- ليش أنت مهتم إلى هذه الدرجة؟

هذا السؤال أعادني إلى أهدافي المبيتة الدافعة لي خوض غمار تجربة كتابة رواية، واقتحام مناخات شخصياتي التي حدّدتها سلفًا، ولم تكن ندى من بينها، فقد اقتحمت شخصياتي عرضًا، لذلك لن تصبح شخصية رئيسة ولا حتى ثانوية، ربما لأنني أحببتها بطريقة مختلفة.. ربما هو حب

مشابه للعطف أو ملتبس بالفضول، لا.. لا يهم.. المهم أنني استشعرتها قلبيًا. هذه الفتاة التي تعثرت بها لا أقول وقعت في حبها ربما العطف عليها أو.. لا أدري الأهم أنني بمعية فتاة ليس بيننا سوى الشيطان، أيها الشيطان الملعون لا تفسد لحظات البوح بلحظات الجسد، لا أريد تفويت إحماءة المكاشفة التي لا تتكرر خصوصًا حينما تنشج باكية، ويصير أنفها أحمر كحبة فراولة.

هل سمع الشيطان أم يلاعبني؟ تركتها تنثر لواعجها وهي تعصر مهجتها الباكية وكأنها توقد نارًا تعدني بدفء جمرها لاحقًا، ودائمًا تفي بما تعد، كانت عيناها مثل غيمة تنزع لإسقاط مياهها. ارتخت مفاصلها قليلًا فألقت برأسها على كتفي ملتصقة، تكلمت بجمل طويلة مسهبة في التفاصيل، أفرغت شحنة حكايات مدنفة بالوجع، وعند آخر كل حكاية تلقي برأسها نحوي وكأنها تهبني قبلة تعيد إليها بكرة الأحاديث، تلاشت حالة الفزع فتعاورنا الوقت بسكينة وحميمية، وقبل اكتمال الساعة الأولى رنّ جوال ندى، أشارت لي بيدها تطالبني بالصمت حتى ترد على المتصل، وكما خمّنت ليس سواها.. تنعيم.. أجابتها متذرعة بحجة واهية لم تنطل عليها، عاودت الاتصال مرات ومرات وندى تخمد الرنين بطرف سبابتها. في لحظة شمر شيطاننا عن غواياته، وأسقانا رائحتنا المدوخة فسكرنا، لا ندري كيف انسقنا بطواعية كاملة لرغبات غير محددة.. أعيننا تتحدث بوسنها الذي يكاد يطبق الأجفان، وعبارة واحدة محرضة للتسحب من كينونتنا الضعيفة واللدنة، إلى قوة أسقطتنا في بحيرة عرق ساخن، تلاشى جرس الجوال الذي لا يهدأ

وغاب وميضه، لم تعد ندى التي تُصاب بما يشبه الشلل حينما تسمع تنعيم تناديها تتحرك نحوها وفق ما تمليه عليها كالمنومة مغناطيسيًا، هذه الليلة قضيناها طولًا وعرضًا، سردت لها كل تفاصيل حياتي، وأفشت لي كل أسرارها بلا تلكؤ أو مواربة. حتى طحنًا كل الحجارة اللتين تردم روحينا. أشرقت ندى كالشمس وتلاشت كل الخطوط الدقيقة الحمراء من عينيها، أصبحتا كالبلور الصافي، وكأنني أراهما باستدارة كاملة باتساع حدقتيهما اللتين تستقبلان دهشة مؤجلة. ونحن نحاصص الوقت حالاتنا. سحقنا كل أحزاننا تحت أقدام الشراهة.. شراهة الكلام وشراهة الجسد، فتلنا لذة أرواحنا بعدما طيّرنا همومنا من أقفاص صدورنا، ثم اقتحمنا حكايات الطقاقات والمواقف المضحكة، نقّبنا عن كل النكات الواردة عبر جوالينا فاعتصرنا دموعنا ضحكًا، استمعنا لأجمل مقطوعات الأغاني، رقصت على أعذبها حتى تبدت خيوط الصباح الأول، واتصالات تنعيم ورسائلها لم تنقطع، ونحن متأكدان من أنها مشحونة بشكوك أسخمت ليلها، ربما لم تنم تلك الليلة ولم يهدأ لها بال حتى وافتها ندى بصوتها مع اعتذار مرتبك، سمعت صوتها النافر عبر الجوال، سألتها بحنق:

ـ وينك؟

ـ بالبيت

ـ يالله جاية؟

ـ لا أرجوك حبيبتي، خليها الليلة.

ـ أدري كنت سهرانة ما نمت بس مع مين؟

- خلاص إذا شفتك قلت لك، بس أنام.

- اسمعي أنا جاية.

- لا أرجوك.

أغلقت الخط لتحلق طيور الخوف في قلبها من جديد، قالت وهي تفرك أصابعها:

- أرجوك بسرعة.. شكلي ما راح أخلص.. بس الله يعافيك اللي صار بيننا سر.

- يعني؟

- يعني ظروفي صعبة ومعقدة.. ما أعتقد نلتقي مرة ثانية.. أبحاول ألقى لي أي عذر حتى أتخلص من هالورطة.. أنت ما تعرف تنعيم.

- يعني خلاص؟

- إيه.. وبعدين أنا ما أبي أضرّك..

الفارق الزمني بين دخول ندى البيت ووصول تنعيم تقريبًا ربع ساعة ما حدث بينهما التالي:

استقبلتها ندى في ملحق البيت الخارجي، أوصدت بابه بإحكام، حتى لا يتسرب الصوت في هدأة الصباح، سحبتها تنعيم من عضديها تسألها باستفزاز وحنق يسيل من عينيها، هزّتها بعنف. حثّت في وجهها كل اللعنات، وعند نقطة ساخنة من احتدام النقاش صفعتها على صدغها فارتج لحم وجه ندى، وفي انعطافة شعورية سريعة ألقت تنعيم برأسها بين أحضانها وبكت ناشجة، وندى تمرر أناملها بين خصلات شعرها الأجعد، وتربت على ظهرها، فلم تسطع

الشمس في كبد السماء إلا وتنعيم قد أطفأت جمر قلبها وجسدها المشتعل، وكأنها قد بزغت من تحت رماد متجمر، فنهضت توارب هيأتها وتلف عباءتها حول جسدها عقب ما أنجزت عقدًا تصالحيًّا جديدًا مع ندى، عنوانه لا خيانة بعد اليوم.

وفي رسالة استقبلتها على جوالي عصرًا تقول فيها: (أرجوك انساني إحنا مو لبعض، حياتي ما هي ملكي)، هذه الرسالة تتضمن نبرة تحذيرية بعدم الاقتراب من بخيتة، فهناك ما لا يُحمد عقباه، حتمًا تنعيم لن تسكت على هذا الاجتراء وستجيّش الضغائن ضدي.

يا الله.. كأن الأحداث تعيد نفسها بأسلوب مختلف: تهاني القوية بسطوة زوجها تخضع لجبروت أبي بسام، وتبيعني بأبخس ثمن، وندى تشتري نفسها بتنعيم بما يضمن لها حياة رغيدة.

سيرة البطل الثالث

من تباريح الماضي الموجع

ندى من أسرة متوسطة ومحافظة. . هذه ليست معلومة مهمة، فكثير من الأسر في هذه المدينة متوسطو الحال، أو أقل من المتوسط. الأسرة السعودية المتوسطة معادل ضمني لأسرة محافظة حدّ الملل، حتى اسم ندى أصبح مكررًا وشائعًا لدرجة الغباء؛ هكذا تستشعر ندى كينونتها. لديها ثلاثة إخوة: اثنان يرزحان في سجن مجهول، مصفدي الأغلال بلا جريمة ظاهرة، كل ما أخبروها به أنهما اعتقلا على ذمة التحقيق في عملية إرهابية، ومنذ ذلك الحين لم تر وجهيهما. الثالث عاد من إنجلترا بشهادة ماجستير في الطاقة وتزوج من امرأة لا تعرفها، استقرا قريبًا من عمله في مدينة الجبيل، ومنذ ذلك الحين لم تره، مكتفيًا بصوته الذي يجتّره بملل عبر الجوال كل أسبوعين للسؤال عن والده بتثاقل، ولسان حاله يقول: هاه. هل مات؟ حيث سقط عندما ناهز السبعين رهين المرض الذي ألزمه الفراش، مثله مثل كثير من كبار السن في هذه المدينة الذين يسقطون فجأة فيكنسهم المرض رويدًا رويدًا إلى مثواهم الأخير بصمت. أما أخواتها الأربع اللاتي يكبرنها بسنوات فسبقنها إلى عش الزوجية، وهذا أيضًا أمر طبيعي، فهناك ما يشغلهن عن الحياة وبريقها

بالركض خلف متطلبات الزوج ورهق الأطفال. أما أمها فقد عكفت على أبيها الذي لم يجد الأطباء أدنى ضرورة لبقائه مدة أطول في المستشفى، ولسان حال الطبيب يقول: لم يبق في حياته سوى أيام معدودات، خذوه وجهّزوا له جنازة تليق به حتى تحين الساعة. مضت سنتان وهو يئن متوجعًا فوق فراش المرض بانتظار رحمة ملك الموت الذي لا يأتي.

استقبلت ندى كل هذه التقلبات الدراماتيكية التي عصفت بالأسرة مرفوعة اليدين باستسلام مطلق، ولذلك أول ما تقدّم لخطبتها شاب يكبرها بثماني سنوات وافقت على الفور دون تمحيص أو تدقيق، هربًا من وجه النكد والفاقة وفقدان هويتها، وعاجلًا اقتادها إلى بيته في حفلة عرس عائلية. أخذها مغمضة العينين ووهبت له جسدها يدعكها ليل نهار مغمضة العينين، وأنجبت أطفالها الثلاثة مغمضة العينين وعندما بلجت عينيها ألفت نفسها مسروقة ومغتصبة، زوج يطيل الغياب عن البيت، يمتد الغياب أحيانًا أشهرًا وهي لا تدري أين يختفي، سوى ما يتردد من أقاويل لا طائل منها ما دامت لا تستطيع زحزحة الواقع الكئيب. أحدهم اقتحم أيامها الملبدة بالهموم، عرف نفسه بصديق الزوج الغائب، كشف لها شيئًا من سيرة زوجها. أخبرها أنه منقسم إلى نصفين؛ نصف يقضيه في بيت أهله، وبين أصدقائه، وعمله لتجميع مال كاف للسفر، والنصف الآخر يصرفه بين أحضان امرأة مغربية يسافر من أجلها، حتى استبد بها القهر وهي ترى الحاجة تضيّق عليها خناق الحياة، ويديها تنضبان من الأموال التي تأتيها زكاة أو صدقة من أعمام وأخوال، وصديق الزوج المخلص لا يكفّ عنها. قدم لها كل مغرياته

المادية أملًا في أن تمنحه القبول وتقبله بديلًا مؤقتًا عن الزوج الغائب، كادت تحت طرق الفاقة أن تسلم قيادها له لولا عودة زوجها في ليلة غير محسوبة، وساعة دخل عليها يبخر عرق الغربة النتن هبّت في وجهه صارخة مولولة، سمعها الجيران؛ فهوى عليها بيديه وقدميه ضربًا وركلًا، ثم أخذ أولاده الثلاثة وغاب. تركها تئن من الأوجاع لتفيق على مأساة أشق. اتصلت بأختها الكبرى فسارعت ترفعها وترفو أوجاعها، ثم حملتها إلى بيت والديها. علمت فيما بعد أن أولادها تركوا هملًا عند أعمامهم. حاولت بما استطاعت من قوة لاستعادتهم فلم يكن القضاة لينصفوها ويقفوا إلى جانبها، وهي بلا سكن مستقل ولا عائد مادي ثابت. بحثت عن عمل فلم تجد.. وهنا يأتي المفصل التاريخي في حياتها من خلال حفلة عرس إحدى بنات أخواتها، فقامت تلك الليلة تدكّ الأرض بقدميها رقصًا لا يفتر، التفت نحوها الوجوه وجذبت أعين الفتيات المشدوهات برقصها، حتى اتقد فتيل النشوة وتقاذفن وسط الحلبة، ورقصن معها وكأن كل واحدة تطير صناديق من الأسرار والمعاناة على قرع الطبول.

تلك الليلة كانت كريمة، حيث صبَّت النقود في حجور الطقاقات وتحديدًا في حجر تنعيم بوصفها المنسق المالي والإداري للفرقة. وقبل أن ينتهي الحفل وينفض الجميع استرقت تنعيم الخطوات مقتربة من ندى وطلبت منها رقم جوالها، وعندما وصلت ندى غرفتها وقبل أن تخلع فستانها وردتها رسالة رقيقة من تنعيم، ردّت عليها بالمثل ثم ألوت تزيل كل المساحيق من وجهها، وتبدل ملابسها وعند الرابعة

كانت تضع رأسها على وسادتها بشيء من الرضا الذي تحسسته يستقر في صدرها لأول مرة، أنعشها مع بقايا العطور العالقة مسترخية للمثول بين أيادي النوم. في ظلمة الغرفة أضاء جوالها المصمت:

ـ الو.

ـ هلا.

ـ صباح الخير.

ـ صباح النور.

ـ عرفتيني.

ـ اكيييييد (قالتها ندى بصوت ممطوط).

ـ الله يعطيك العافية والله ما قصرتي.. حبيبتي.. كل البنات انهبلوا عليك .

ـ تصدقين عاد والله ما كد رقصت كذا.

ـ ايه ياختي جننتيهم.. وجننتيني كمان.

صمتت قليلًا ندى ثم قالت:

ـ سلامتك من الجنون حبيبتي.

ـ يا عمري انتي.. قربي شوي.

ـ ليش؟

ـ قربي بس.

ـ هاه.

فرقعت بقبلة عميقة.. استشعرتها ندى.

هذه القبلة كانت بمثابة صفارة الحكم لبدء مباراة

تخضع لكل الاحتمالات، قررت كلتاهما الفوز، وصارتا تلعبان بعيون مفتوحة، فلم تعد ندى تقدم الأشياء بعينين مغمضتين حتى وهي بين أحضان تنعيم، أصبحت مبصرة تمامًا بمزاج عال، حتى ساد العرف بينهم أن ندى حبيبة تنعيم المدللة، وضوء الغواية الذي يسحب الفتيات لحلبة الرقص وأيديهن تلقي بالخمسين والمئة ريال، وتنال ندى نصيبها منها قبل الجميع، لذلك كانت تضع أسوارًا شائكة أمام أي اقتحام لها لتبدو تنعيم في حياتها حالة الطمأنينة والحاجة والاستقرار الذي كانت تبحث عنه، وأي اقتحام بديل هو صاروخ مدمر تعرف تنعيم كيف ترده بمهارة عالية. كما أنها تدرك تمامًا أن أدنى حركة غدر منها سيخسِّرها حضنها الدافئ والأموال التي رممت جزءًا من عوزها، لا تتورع تنعيم في الصراخ وكيل الشتائم واللعنات في وجه أي تعدٍّ من قبل الأخريات على حدود ملكيتها، لا تملّ تذكيرها بنبرة تحذير قائلة:

- أنا عارفة أني محسودة عليك.. صدقيني الرجال ما فيهم خير.. أنت جربت وتعرفين. وانتبهي من هالبنات..

لذلك لا يهتزّ لندى رمش، ولا تأخذها رأفة بكل الملتصقات بها عنوة، المعذبات بمحبتها، بعضهن يمثلن أدوار العشق، وبعضهن يجأرن باكيات بين يديها، إحداهن قبلت قدميها صاغرة كي تمنحها التفاتة واحدة تسري عن قلبها المدنف لكنها رفضت بحزم.

الفصل السادس

بين يدي الملل

1

وماذا بعد؟ لم يبق لي من بيت بخيتة الذي ردمته ليلة المغامرة تلك سوى الذاكرة؛ الذاكرة المشبعة بسبع سنوات تمثل صورة من الكدح المضني على هذا (العراوي). يكفيني من هذه السنوات السبع أنها حسرت لي عن ساق المدينة المعمى عن كثير من قاطنيها. كشفت لي أنك إما أن تكون صائدًا ماهرًا أو (مصيودًا) يعني حتى لو تعلمت وأنفقت عمرك في التعليم بدون (الذهانة) للوصول إلى مأربك من أبواب خلفية فستقعد ملومًا مذمومًا مدحورًا: مثلًا المرأة المتحايلة للحصول على لقمة عيشها لا تُلام، المرأة المحتاجة تعطي لمسة عابرة والرجل يقدم أخلاقه ودينه وكرامته بمجرد الحصول على مبتغاه، باختصار: بلا واسطة من العيار الثقيل، أو رشوة تتخذ كجسر يُمدّ للحصول على الحقوق، لن تتحقق كثير من المطامح، ولا ننس أن علماءنا قد أفتوا بجواز الرشوة لتخليص حق مشروع. عدا هاتين الحيلتين الواسطة والرشوة لا يوجد إلا الله والتسليم لقضائه مع شيء من الدعاء على الظالم خفية آناء الليل وأطراف النهار.

الحياة في هذه المدينة أصبحت بالنسبة إلي مثل المشاوير الخاطفة، بما فيها متعة الجسد التي تبدأ خطفًا بلا

ترقّب ولا انتظار، الصعود فيه والنزول معادل تمامًا للغة الطريق العام، في مثل هذه الحالة من اليأس لجأ كثير من الناس إلى الكتاب المليوني فصاحبه يقول: (إذا كنت لا تستطيع تغيير الماضي ولا التحكم في المستقبل؛ فما فائدة أن تغيّر ما لا تملك) بصراحة، مقنع جدًا هذا الكلام! المهم أن تبحث عن طريق يزيد دخلك بأي وسيلة فهذا ما لا علاقة له لا بالماضي ولا بالحاضر ولا بالمستقبل؛ لأنك ستملك مع المال جناحين تطير بهما وكأنك تشرب (رد بول) يحلّق بك إلى عوالم أخر بلا جوانح، فالمركبات التي تمشي على الأرض لم تعد وسيلة نافعة للوصول إلى المبتغى بكل أريحية، فمقولة: دع القيادة لنا وتمتع بالرحلة غدت أكذوبة؛ لأن الشعار المحدث هو: دع القيادة لنا واقعد في بيتكم. لا أعتقد أنني سأضمن هذا النص روايتي، فهو هذيان ما بعد الحرمان من بخيتة.. ولكن ماذا يعني ذلك؟ هل سأكتفي منها بهذا القدر وأبدأ بالبحث عن شخصيتي الثالثة (صلاح المدني)؟

2

في البدء وكتوطئة مهمة سأعرّفكم كيف تعرفت على صلاح المدني وتوثقت بيني وبينه عرى التواصل. كان ذلك من خلال ذبابة وكما يقال (يجعل سرّه في أضعف خلقه). لم أكن أعلم أن ثمة طريقة خاصة لاصطياد الذباب. كل ما كنت أعرفه أنها تحصد (بالفليت) مبيد الدي دي تي. حتى ركب معي ذلك الشاب في مقتبل العمر داكن البشرة نحيل الجسم يضع شماغه البالي دون عقال يحميه من مباغتات الهواء، فهو إلى التدين أقرب. وجهه يفيض بسماحة مريحة أجبرتني على الانصياع لحكاياته، رغم أني أمقت التورط بغثاء الركاب، لذلك لا أحرك لساني معهم، ملتزمًا حالة من الصمت المطبق إلا مع هذا الشاب، كم أعجبتني سلامة منطقه.. لا يعييه تمرير الجمل الطويلة على لسانه، لم تضايقني البتة، بل رأيتها خصلة حميدة تنمّ عن ثقافة واسعة ولغة سليمة ومنطق لا عوج فيه. حتى الذبابة لم تفلت من تعليقاته البلاغية، تهادت أمامنا ذبابة تلاحق أخرى بهدف غير شريف.. بصراحة لم أفكر يومًا في مذكر ذبابة هل هو ذباب؟ وأنا أعرف أن ذباب هو جمع ذبابة، مع أن ذبَّابة يصلح اسمًا لامرأة أو رجل (ذبّاب) لمعناه القوي وهو الذبَّ، أي بمعنى الدفع نقول ذبّ عن حياض الدين أو الوطن يجوز أن نطلق

عليه صفة (ذبَّاب). كانت الذبابتان تتلاحقان بين أعيننا وأنوفنا حتى وصلتا بين عيني هذا الرا كب وبخطفة سريعة منه انتهى كل شيء ثم سحب منديلًا ومسح يده.. لقد اصطادهما بقبضة واحدة مثل اصطياد طائرتين محاربتين بطلقة واحدة.. يا الله استغربت وسألته: كيف؟ فكان مفتاح الكلام وبداية التعارف، بادئًا من ولادته في أحضان الذباب في حي فقير جدًا ونشأته مع أكوام الذباب، حتى تعرّف عليها وعلى أنواعها، وكيف تفكر، بما في ذلك أخلاقها المشينة من ملاحقتها لفتيات الذباب، وهو ما أخذ منه جهدًا وعرقًا كثيرًا. قال لي إذا أردت أن تصطاد ذبابًا فما عليك إلا تمرين يدك على الخفة واستحضار كل معلوماتك عن الذباب، بمعنى أن يكون لك عقل ذبابة، هذا يحتاج منك إلى جلوس طويل في حضرة الذباب ومراقبته، عندها ستكون أنت سيد الموقف، «يعني» ملك الذباب، تأمره فيستجيب، وتعاقبه ساعة العصيان، وتتخلص منه بحركة خطافية.. مثلما فعلت الآن. قلت له: بالله عليك علّمني شيئًا من أسرار هذا المخلوق العجيب، فانفتحت شهيته للحكي وهو يعدل جلسته بأريحية متناهية قائلًا: شوف سلمك الله: رأيتني كيف هرست الذبابتين معًا بقبضة واحدة.. أومأت برأسي بمعنى نعم، وكأنني أقول له لا تسألني حتى لا تطول «السالفة». تابع حديثه بحماس طاغ قائلًا: عندما يأتي مثل هذا الذباب الغاوي فهو عادة ما يأتي متلاحقًا، يتبع بعضه بعضًا؛ لأن الأنثى هي المتمنعة في المقدمة، والذكر الخبيث في الخلف، حينها ـ وهذا يحتاج منك إلى التدرب على خفة الحركة ـ عليك أن تناجزه بحركة خاطفة وتقبض عليه في

المكان الذي ـ من قراءاتك لسلوك الذباب - ستعرف أنه سيتجه إليه، ربما يكون الفارق بين المكانين أقل من خمسة سنتيمترات، أي المكان الذي يطير فيه والمكان الذي اتجه إليه فور اصطيادك له، فاللحظة الزمنية واحدة تقريبًا. في بدايات الصيف يهجم الذباب جماعات، يقع فوق كل شيء دقيق لا يُرى بالعين المجردة وفيه غذاؤه، قد لا يفي المبيد الحشري بحصد أرتال الذباب؛ لذلك هناك طريقة ناجزة، بأن تحسر عن ساقيك وترطبهما بالماء، عندها سيتكدّس الذباب فوقهما، حتى تصبحا مغطاتين بسواد الذباب، وتصير حركته ثقيلة بفعل الماء، وهنا تأتي الفرصة من ضربة ناجزة بشماغك المطوي على شكل عقدة غليظة؛ ليتناثر الذباب تحت قدميك صريعًا، ولا تتعجل كنسه من وجه الأرض، فجيوش الذباب القادمة، ستكفيك المهمة وتتشاغل عنك بأكله فترة لا بأس بها. ثم حدّثني صلاح عن أنواعه وغرائبه. وقد اكتشف بالبحث والتدقيق أن ثمة مناطق خاصة في سطح الذباب تحتوي على كميات من المضادات الحيوية يقولون: إنها من أكفأ المضادات الحيوية. وأن الباحثين، غمسوا الذباب بسائل واكتشفوا أنه بمجرد غمس هذا الذباب تحرّرت منه المواد المضادة للبكتريا والفيروسات، يعني مضادات حيوية تتحرر بمجرد غمس هذا الذباب في السائل، لذلك يؤكد هذا الشاب الخبير بالذباب أنه لا خوف من اصطياد الذباب بالأيدي. كنا وصلنا سريعًا إلى مقرّه وقدم لي عرضه السخي بأن يعلمني كل ما يعرفه من غرائب خلق الله، وبسرعة خاطفة دوّن رقم جواله على ظهر كرتون المناديل المعلق بسقف الونيت، أدخلت الرقم سريعًا في ذاكرة

محمولي وأعطيته رنّة كي يخزّنه، ثم رحل وأنا أعده باتصال قريب.. ومن يومها وأنا كلما رأيت ذبابًا حزنت لحاله: فما دام نافعًا لهذا الحد فلماذا كل هذه المجازر الوحشية المرتكبة في حقه؟ رددت في دخيلة نفسي وأنا أنفث هواء جافًّا وساخنًا: الله يستر علينا ويلطف بنا يبدو أننا أقل فائدة من ذبابة، وأقل حرية أيضًا.

3

ينتابني توق من نوع غريب أن تتمدد حبال هذه المدينة وتكتشفني، لن يريحني تكرار مشاهدها النهارية والليلية. لم يعد ثمة جديد يذكر سوى السيول التي تطمرها لحظة يرشقها كبد السماء بفيض سحاباتها المتلبدة بغتة كمخالصة سريعة، أو إبراء ذمة، بعدها تصبح المدينة العظيمة مثل طفل صغير، اكتشف المشي توًّا فوقع في مستنقع ماء يراه بعينيه الصغيرتين بحرًا هائجًا.. الرياض هوة مسكونة بالغبار تقطعها دوائر، كل دائري يشبه أنشوطة مشنقة تلد طرقًا متمددة بلا التفافات.. تتباعد فيها المخارج والمداخل بشكل يستفزّ العصب السيمبثاوي الذي يزيد من هرمون الادرينالين، تعطل قدرات الناس على التفكير الإيجابي.. وتتبخر قدراتهم على التحمل فتحدث كوارث مرورية مروعة، لذلك دائمًا ما أتهرب منها كي لا تسجنني في حلقاتها وتنتزع مهاراتي في تقصي المخارج.. هذه لعنة أخرى للمدن الحديثة المستنسخة.. تستعبدنا طرقاتها، تجرّدنا من خياراتنا السريعة في التشكل لنقبع وسطها خاضعين لمخارجها الضئيلة وازدحامها وهي تسوقنا كحقائب مغلقة فوق سير متحرك، لذلك أهوى أحياء الرياض القديمة وطرقاتها المتعرجة التي لم تتغير سحنتها كثيرًا؛ لأنها بالرغم من ضيقها، فتفرعاتها مليئة بالمفاجآت

اللذيذة كما تمنحنا فرصًا للتسرب من أي شارع جانبي نشاء.. نلاعبها وتلاعبنا.

أمضي أيامي الساكنة أراوغ بسيارتي زحام وسط البلد. بكسل أغرق عيني بإضاءات النيون التي تعبئ واجهات المحلات الصغيرة في شارع الشميسي والأجساد المشبعة بالحياة. وأمرّغ أنفي بالروائح الغريبة والأدخنة التي تغلف المكان وتخربش رئتي الهشة. منه انحدرت إلى منفوحة إذ تروق لي لعبة المراوغة، عبر طرقاتها الضيقة وأزقتها المتلاصقة وشوارعها المكدسة بالسيارات القديمة. هنا تسكن رائحة التاريخ المجيد بمآثر العرب. في لحظة أحس أني مختزل في قانون ناقة الشاعر الأعشى، التي كانت تمرّ سربًا في هذا الشارع، تخيلته يجوع فيقف بعشوائية السيارات المكدسة لنيل حصته من الفلافل بالشطة من كافتريا «أبو محمود»، العامل المصري الذي جاء بفيزا سبّاك، وانتهى به المطاف عاملًا في بوفيه فلافل لا تنقطع عنها الأفواه، كما الأعشى تمامًا.

يا لهذه الرياض، التي أخذت تنشق عن أرواح الناس وتبتعد، فالغرباء يتقاربون فيها، كي يسحقوا غربتهم على أديمها ويكشطوها من وجوههم التي حمّصتها الانتظارات، حاملين معهم مطاعمهم وبقالاتهم. ها هم أولاء المصريون يحتلون حيزًّا من منفوحة، والسودانيون في غبيرة، والسوريون في شارع الخزان، والبنقاليون والباكستانيون والهنود غصّت بهم سراديب أحياء الرياض القديمة المهجورة؛ المرقب والشميسي القديم وحلة العبيد والقصمان والظهيرة، داخل

هذه الثكنات تتوارى عاداتهم وتقاليدهم، حتى الموبقات والرذائل. هذه الأحياء تئنّ تحت وطأة الاهمال فأضحت ملاذًا للمتخلفين والهاربين وحتى المجرمين. ظلت تجترّ التاريخ المنسي، فأي شيء محدث لا يعدو مسحة طفيفة لا تواري جراحات الزمن الضارب في عمقها.

4

هذا الرقم الذي يضيء به محمولي لا أعرفه. كانت مخاوفي أن تعود إلي تهاني بعدما طحنت صَغارَها ومهانتها، ورمّمت وجهها المسحول وعادت إلي.. تمنيت وأنا أضغط على زر استقبال المكالمات ألا تفجعني بصوتها الذي جاهدت لاقتلاعه من ذاكرتي:

ـ نعم.

ـ .....

ـ هلا والله.

ـ ....

ـ بها السيارة وين أنا.

ـ ....

ـ ما عندي شي.

ـ ......

ـ خلاص اتفقنا.. عاد تصدق كل ما شفت ذباب تذكرتك.

ـ ....

ـ طيب وأنا قريب منك بشارع الوزير بس ألف وأجيك.

ها هو ذا جاء في الوقت الذي بدأت فيه أهذّي، صديق الصدفة والذباب.. جاء في وقته، ليس لي سواه، كنت سأتصل به، فهو اليوم بمثابة مركز الكون على الأقل في هذه المرحلة الرخوة التي فقدت فيها شخصيتين من شخوص روايتي.. كم أحتاج إلى نبش ما يتوارى في تلافيف رأسه قبل أن تزل به الأقدار وتغيبه عني، وعليَّ مناجزته، لم تكن الرواية وحدها التي تدفعني إليه دفعًا، كنت قد بدأت أشتاق لثرثرته، بأحاديثه المفعمة بالدفء والمعلومات الموثقة.. انطلقت إليه على الفور فألفيته واقفًا على ناصية شارع أم الحمام الرئيس، يحمل بين يديه أوراقًا كثّة فارطة تكاد تتناثر من بين يديه، وتتبعثر على الأرض، كما يحدث أحيانًا، عجزت عن إقناعه في وضعها داخل ظرف أو ملف، لم أعرف بعد ما هي الحكمة من ذلك. ركب وهو يمسح العرق بذيل شماغه، وبتخابث سألته:

- إلى متى وأنت متشبث بهذه الأوراق؟

فلم يفصح عنها، مستفتحًا حديثه بالسؤال عن غيبتي وقلقه علي. ثم نقل حديثه عن موضوعه (المصيري) الواصل مؤخرًا إلى عنق الزجاجة على حد قوله، وبما أنه على وشك الانتهاء، فهو ينتظر فقط المصادقة الأخيرة، التي ستنقله من درجة اجتماعية مزحومة بالأسئلة المحرجة إلى درجة أعلى مسكونة بالاستقرار وهدوء البال. في البدء لم أع عما يتحدث. حتى زاد إفصاحًا. أخبرني أنه ينتظر اليوم الذي سيتأهل فيه لمرتبة مواطن. عشرون سنة انصرمت منتظرًا الحصول على الجنسية، تعود مع إشراقة شمس كل يوم

المسارعة بإجراء اتصالاته المعتادة، حتى ملّ منه البعض وكادت أن تقطع كل وسيلة تصله بقضيته.. ابتلَّ قلبه باليأس. بحث عن وسيلة أخرى للوصول؛ فأعيته الاعتذارات على الرغم من رهافة روحه وطيب معشره ولين عريكته، القلوب ترفرف أمانيها بأن تنجز الوعود المكدسة في أضابير حالت ألوانها حتى ملّها الاعتياد، فأمره موكول بإدارة عليا وقرارات أعلى، كل ما يرومه تتويج عقيدته الوطنية بشهادة ثبوتية تزيح عن كاهله لعنة النظرات الشائنة أو المتعاطفة بشيء من التبكيت، لا يرى نفسه سوى نبتة نمت على تربة هذه الأرض وشربت من وشل مياهها ولوحتها شمسها، وفي لسانه تسكن لهجة الرياض المحكية، بالرغم من انثيال اللغة النقية في أحاديثه حتى العفوية منها. يحرص على اقتناء مفرداتها، ساكبًا منها عبارات متينة.

تركته يفضفض وأنا أعطف السيارة تجاه طريق الملك فهد. استمر يفتل حكايات الأيام الفائتة، تلك التي باعد السفر فيها بيننا. أخبرني بلا تحفظ أنه تزوج بفتاة يمنية، ثم علق:

ـ هذه أقداري تقدمني للمصادفات بلا سابق إعداد، هذه الفتاة ابنة المقاول علي أحمد.. كان ينوي السفر إلى اليمن لأمر طارئ، فعرض علي ابنته سمية، أن أحفظها له بعقد زواج ريثما يعود، أتحفظ عليها بأجرة جسدية أنالها منها، وهذا ما منحتني إياه بشيء من الجنون والإفراط، وكأنها كانت تقتصّ من فاقة جسدها الجنسية، وتعوضها معي، تعاركني في كل ساعة، حتى أذاقتني صنوف اللذة،

ثمة أمر لا تفصح عنه، ولم أشأ أن أسأل عنه البتة ما دامت تعوضني عن الكلام برحيق المتعة معها، شهر بالتمام والكمال قضيته رطبًا. في نهاية الأسبوع الرابع اتصل بي علي أحمد يخبرني بوصوله وأنه يود رؤية ابنته مع إضافة أخرى هي أن أعرج في طريقي على مطعم مثلوثة وآتي له بوجبة تكفي لأربعة، فلديه ضيف.. كانت المنحة الأخيرة تشبه الوداع، بالرغم من سخونتها فهي تحمل بين طياتها معنى الوداع، لم أعترض أو حتى آبه. حملتها إليه بمنتهى التسليم مع مسحة حزن طفيفة تطلّ من عينيها. ولجت المنزل فلم أرها. كان علي أحمد ينتظرني بشاهدين، وورقة مطوية فردها أمامي للتوقيع، كانت عملية الطلاق مشابهة تمامًا للزواج ورقة وشهود ووليمة مندي وفي الحالتين دفعت ثمن اللحم المأكول وقبضت ثمن اللحم المركوب. هل رأيت أمتع من هذا؟ فمن حسنات كونك غير سعودي أن تمارس ما تبتغيه بلا خوف أو وجل، وتحصل على متعتك أيضًا بلا وجل، لسبب واحد فقط هو أنك غير مخيف، فما دمت أجنبيًا فأنت حقًّا من الموثوقين، علي أحمد لا يثق بالسعوديين ولا يسر لهم بشيء ولا يمنحهم ابنته وقتيًا متى عنَّ له السفر بدونها.

كنت تقريبًا منصتًا أدوّن برأسي ما يفوه به. وصلنا إلى مقهى متطرّف من جهة الرياض الشمالية، انتقينا ركنًا قصيًا يعزلنا عن تدفق الأصوات، وطلبنا إبريق شاي منعنع.

أردت أن أحرك وجومي فسألته عن الورق المشعث بين يديه:

- صلاح وش هالأوراق.. لا تصير تكتب رواية؟

يبدو أن ذاكرتي ما زالت تعاني من تبعات القاهرة، هذه الأوراق أحالتني إلى ملف رباب المحشو بأوراق كثّة تسميها روايتي القادمة.

قال لي:

ـ لا رواية.. أستغفر الله..

ـ أجل؟ (سألته وأنا أتجرع ريقي وكأنه كشف عن مشروعي).

بصوت حاد كصوت معلم يدخل صف تلاميذه لأول مرة، وحبات العرق تنضح فوق جبينه قال:

ـ اسمع، حتى لا تعود لتسألني عن هذا الأوراق، وتتخلص نهائيًا من فضول أسئلتك التي تفضحك؛ سأخبرك.. هذه الأوراق هي هويتي التي تغذي روحي بمقاومة الغربة التي أتجرعها يوميًا كأنصال حادة.. هذه الأوراق تحمل بين طياتها كينونتي كاملة، لو نثرتها بين يديك فسترى صحراء شاسعة، تنحتها كما تنحت وجوهنا رياح عاتية وشمس لاهبة ليس أمامها سوى صدورنا المشرعة.

كنا ملوك الصحراء أسيادًا مهابي الجانب لا تلين قناتنا ولا تُكسر شوكتنا، حتى أوغرت صدور العبيد والدهماء، وتعرضنا لبلاء شديد في مواجهة مدجّجة بالسلاح يقودها المستعمرون، أبلينا بلاءً حسنًا إلا أن الكثرة الكاثرة غلبت شجاعة قلتنا المستميتة، فلم يكن ثمة بدّ من الفرار، لنلوذ إلى أرض أجدادنا الأول، لم تكن الأمور على ما كنا نبتغي ونرجو، أتيناها غرباء تتخطفنا الأسئلة من كل جانب، تناسلنا بين المدن السعودية وانتشرنا بروابطنا مع بقية عاداتنا منزوعي

الهوية. فأنا مسقط رأسي في الرياض وكذلك أبي، وليس في أفواه الناس سوى سؤال واحد يمضغونه كلبانة مرة من طول علكها بين الأضراس المتسوسة هو: من أنت؟ سؤال ينخر وريدي ويضيع وجهي كأوراق مبعثرة، كم تبعثرني العيون المتشفية، فلساني يشي بهويتي اللغوية، أقصد لهجة القوم المشبعة بحكمهم وأمثالهم، وتقاسيم وجهي تحمل بصمة الشمس التي تلوحنا كل نهار، حتى شعري المتلوي في أجزاء منه يتصل بجينات الأرض، أخبار إمارتنا على الصحراء محفورة في رؤوسنا نتلوها مع محفوظاتنا، حتى استحضرناها واقعًا مشاهدًا، نلجأ إليها كلما امتلأت محاجرنا بالدمع ونشت قلوبنا بحرارة الرجاء.. رجاء أن نمنح الجنسية التي نستحقها بشهادة التاريخ، وشهادة الأرض التي وعينا على أديمها. لو تدري يا صديقي كم من القهر يجتبينا حينما نريد ممارسة حياتنا الطبيعية؟ فكل شيء يخصّنا مرهون بأختام آخرين، كفلاء نتسول رضاهم ليمهروا أوراقنا بمصداقية العيش، مثلنا مثل أي وافد للعمل، هم يقضون سنوات مقتطعة من أعمارهم بحسرة، ثم يعودون بعدها إلى وطنهم بفرحة، هؤلاء نغبطهم على أوضاعهم المثلى بالبلد، أما نحن فنتجرع هذه المعاناة يوميًا، كأننا أبناء غير شرعيين لهذه الأرض، لو تذوقوا ملوحة أجسادنا، وفرزوا جيناتنا سيجدونها مشتقة من هذه الأرض، وسؤال واحد فقط ناشب في رؤوسنا مع غصة لا تنقلع من حلوقنا، لماذا نحرم من هوياتنا.. أي بلد في العالم يمنح هويته لكل من تقادم عليه الزمن بين جنباتها، حتى المولودين فيه، فكيف بنا ونحن نحمل شهادة التاريخ؟

5

من طول الإنصات التصق لساني بلهاتي، وحرارة الشجن أحالتني إلى عادة التيبس القديمة التي كنت أمارسها على ركاب الونيت. تشاغلت بارتشاف كأس الشاي المنعنع، تاركًا إياه يرتّب هيئته، غمغم بكلمات مقتضبة ثم توقّف الشيخ صلاح فجأة وكأنه نسي شيئًا، مستعينًا بأوراقه، فتش بينها، صار يقلبها باحثًا عن قشة، أفزعني توتره المفاجئ فوددت لو سألته، ولكن التزامي بصمتي الطويل مستمعًا جعلني أتابع المشاهدة، هذا التحول المفاجئ أوحى لي بأكثر من معنى، هو لا يبحث عن ورق، كأنه كان يحاول جاهدًا تشتيت فكرة اقتحمته فجأة، فعمد إلى زحزحتها من رأسه بالتشاغل بأوراقه، فمرة يُعدّ أوراقه وتارة يستخرج قلمه مخططًا بين أسطرها، آخر عبارة قالها قبيل انتكاسته هي: وطن الله الذي هو الأرض. أعدت على مسامعه هذه العبارة لاختبار وقعها عليه:

- قلت لي وطن الله الذي هو الأرض؟ هل هذا هو ما تؤمنون به فعلًا؟

جحظت عيناه وكأنهما تتدليان من محجريهما مثل عيني لعبة، وسريعًا وبعشوائية لملم أوراقه وهو ينهض من مكانه

محني الظهر يلتقط بقاياه، كأنه أصيب بصعقة كهربائية عالية أفقدته عقله، لملم كل أشيائه عشوائيًا وهرول لا أدري إلى أين، تلاشى كالبرق الخاطف تاركًا رائحة دهن العود عابقة بالمكان وسواكه المثلم الصغير. خرجت أدفع الحساب وعيناي تحيطان بالمكان تفتّشان عنه، ولا أثر، خمّنت أنه ذهب إلى دورات المياه، فلم أعثر عليه قلت: أين سيذهب؟ حتمًا سأجده عند «الونيت»، فلم يكن هناك. اتصلت به فكان جواله مغلقًا.. يا لغرابة الموقف.. ولكن أين ذهب يا ترى في هذا الفضاء الشمالي الملبّد برائحة الجراك والمعسل؟ ركبت السيارة وأضأت الأنوار العالية. أخذت نصف التفافة كمكوك فضائي، فلم ألحظ أي جسد قريب، أو حتى بعيد، بتّ أجوب المكان أفتش عن صلاح المدني حتى فقدت حيلتي؛ لعله تذكّر موعدًا ملحًّا. أو ربما أصابه مكروه لا سمح الله، فماذا يحصل معي يا ترى؟ فهل هي من قبيل المصادفة المحضة أن يتلاشى بطريقة بداح نفسها؟ ماذا يعني هذا؟ برأيكم هل يعني إيحاء غيبيًا يدفعني للبحث عن هذه الشخصيات والغوص في حكاياتها الغرائبية؟ ماذا يعني أن يختفي إنسان من بين يديك فلا تعثر على أثره؟ هل يعاندني القدر للحيلولة دون كتابة رواية؟ أم أنها هي فعلًا غريبة الأطوار وتعاني من مشكلات ما؟ لا يهم، الآن وضعت يدي على شخوصي، وهم أنفسهم حدّدوا أمكنتهم من الرواية، ولدي معلومات كافية تقريبًا للشروع في كتابتها ريثما أجدهم. بداح وصلاح المدني والطقاقة؛ بائعة البسطة بخيتة. أحسست

بصداع يفتك براسي، أريد أن أغطس في فراشي وأنام. فكرت أن أبدأ غدًا بكتابة روايتي، ما رأيكم لو أجلت الكتابة، حتى تجيء متزامنة مع شخصياتها؛ إذن عليَّ الاصطبار قليلًا حتى أستحوذ جيدًا على أمكنتها وأزمنتها وشخوصها.

سيرة البطل الرابع

ميلاد الغربة

اتسعت عينا صلاح المدني على كلاحة الجبال السود التي تبثّ الرعب في جنانه الصغير... لم ينعتق منها منذ أن انفلت من الطوق الذي يلفّ خاصرته منتهيًا بعمود يتوسط الحوش المتوكئ عليه سقف المنزل المرصوف بحجارة مثلبة كما تبنى بيوت مكة الصغيرة فوق الجبال وبين منحدراتها الوعرة، فقد الأب باكرًا أورث قلبه الصغير رجفة تنشف حلقه كلما رأى طفلًا قابضًا على إبهام أبيه أو متشبثًا بطرف ثوبه.. السؤال النابت في حلقه كشجرة حنظل.. أين أبي..؟ يرتدّ مع صمت أمه المطبق ليس دونه سوى العمود والجدار وحيرة تعبئ رأسه الصغير. يأخذ دوراته كاملة حتى يعصره الرعب فيرشق بوله في مسرب إسمنتي نحيل ينحدر منتهيًا بحفرة صغيرة.. يوم تخلص من السارية اللعينة هبّ يمرّن أقدامه صاعدًا وهابطًا بين مرتفعات الأزقة الضيقة، خلف وراءه رضعة حليب الكيكوز، وسرح عينيه إلى آفاق بعيدة تقبع كأسرار دفينة خلف أشعة شمس مكة المتوارية على عجل، ليبدأ لعبة الأحلام التي تتسرب إلى رأسه الصغير كلما أغمض عينيه لا يشردها سوى صوت الأذان المجلجل بين أركان العاصمة المقدسة. عرفت خطواته أزقة الحارات

الضيقة، فساقه القدر إلى أقران يشبهونه في الفقر والفقد. كانت روحه تفتش عن أطفال يشبهونه ممزقي الثياب، الذين لم تعرق أيديهم قط من ملامسة أيدي أبوة حانية. يقضي معهم النهار وزلفًا من الليل، وأحيانًا يبيت معهم حيث تسوقهم اللقمة اليابسة المغموسة بحليب ساخن، بعدها يستشعرون حالة سكينة تطرحهم أرضًا، فيغطون في نوم عميق.. غياب الليل عن عيني أمه المشتغلة بأربع بطون؛ بنات يكبرنه ؛صرفت جلّ وقتها عليهن تدربهن على أشغال ومهام كثيرة جالبة للرزق، وجدت فيهن المؤانسة المفقودة، بما ألقى في قلبها حالة استقرار لا تفتأ تنشدها.. أما صلاح فتعودت غيابه الطويل لا يهتز قلبها أو تمسّه المخاوف حينما لا يؤوب إلى البيت مساءً، فغيابه عن عينها يعني أنه قد عثر على لقمة ليليته ومنامته؛ ليصحو في الصباح الأول مع أقرانه يجوبون شعاب مكة ومنها إلى الحرم حيث يعثرون هناك على من يستأجرهم في تعبئة «الترامس» بماء زمزم، أو تنظيف دورات المياه. لم يطل مقامه متشردًا بين أيدي الفاقة؛ بل ارتأت أمه نفعية رحيله إلى عمه، فهناك العلم والعمل، لم تخش عليه الفراق أو تحزن عليه، فقد كفاه منها تحفيظه عشرة أجزاء من القرآن الكريم، مستعينة بعصا غليظة لا تفارق يدها.

التقطت أقدامه نعال الأرض الصلبة وأقحمت مع جسده الناحل سيارة نقل كبيرة، وقف الأقران في قائلة النهار يهشّون عن وجوههم الذباب بأعين تتقطر بالحزن على فراقه.. يعلو هدير محركها ويتطاير دخان الديزل، والأطفال يتسابقون للتعلق بأركانها الخلفية وينادونه.. صلاااااح.. صلاااااح،

عشر سنوات يودعها خلفه بين أزقة مكة.. لتكتحل عينه للمرة الأولى بالأراضي المنبسطة.. وتغشى عينيه الصغيرتين ذرّات الرمال.. كان مبلبل الذهن مشتت الفؤاد.. الحياة كانت مشبعة برائحة أمه التي بدأت تنسحب من أنفه، قضى النهار في قمرة السيارة إلى جانب السائق الصامت الذي أوكل بإيصاله إلى عمه نائمًا بعدما ملّ امتداد صفحة الأرض التي كانت قبلًا مكوّرة.

أفاق على ضجيج الرياض وطرقاتها وبريق مبانيها الزجاجية.. بدأ يمرّن عينه لالتقاط المشاهد البانورامية بلا توقف حتى اخترقت السيارة شوارع ضيِّقة آنست وحشته.. وبدّدت همه، أعادت إليه أزقة مكة وحواريها.. وأمام البيت الحجري الصغير المرشوش بطلاء بني خشن ترجل من السيارة ليستقبله رجل متوسط في العمر.. أخذه إلى مجلس جانبي بين أركانه تنتصب أرفف خشبية نخرت طلاءها الأرضة الخبيثة.. وبين أكوام الكتب جلس متقرفصًا يحوم عينه في زوايا المجلس المليء ببيوت العناكب والجدار المشروخة.. أعجبه المصحف الكبير الموضوع فوق رفٍّ خشبي صغير.. لم ينتزع فتيل فضوله سوى صوت عمه الذي سأله بغتة:

ـ أنت جائع؟

كان صمته المطبق وحياؤه البادي على وجنته السمراء إجابة كافية.. انطلق العم من فوره ليحضر له حساء خاليًا من اللحم وخبزًا ملفوفًا بكيس بلاستيكي.. أكل حتى شبع كألذ وأطرى ما سقط في معدته خلال أيام فائتة.. ألحقه مدرسة

ولديه.. يخرج معهما ويعود بصحبتهما حتى لا ينكشف أهل البيت عليه وهو يخط طريقه المؤدي للبلوغ. عامله العم كواحد من أبنائه إلا فيما يتعلق بالمبيت، فهم ينامون في غرفة قصية، أما هو فيتخذ من المجلس منامته، وعالمه الذي يقضي فيه جلّ أوقاته مع أحمد وعبدالرحمن.. كانت نباهته كافية للحاق بهم في حفظ القرآن كاملًا وتجويده. في أقل من شهرين جاوزهم.. لفتت نباهته العم فصار يلقي عليه أعباء أخر وواجبات إضافية حتى حفظ ألفية ابن مالك ألحقها بمتن الشاطبية وشرحها، وأصبح يعرضها عليه بلا عوج أو تلكؤ، لم يكن يكدر العم سوى ضيق ذات اليد، تلازمها نفس كريمة عزيزة، ويشاغلها بالانكباب على تخريج الأحاديث وتصحيح الأسانيد، وجد عونه ليس في ابنيه بل في صلاح الذي ما أن اشتد عوده قليلًا حتى بدأ يشترط على العم بلا خجل أن يشتري له شيئًا من متطلباته الملحة بعد كل مهمة يؤديها، والعم لا يرد له طلبًا، مع مدخوله المادي الضئيل الذي لا يفي بمتطلبات المنزل، إضافة إلى تخريج الأحاديث لبعض الدارسين، فلديه دخل متقطع يتقاضاه من بعض مؤلفاته في الوعظ والإرشاد، تُباع في المكتبات الدينية أو نقاط البيع أو البسطات، وهي نسبة ضئيلة من قيمة البيع لا تفي بكل متطلبات الحياة. فيلجأ مرغمًا للاستدانة، حتى أثقلته الأيدي الملحاحة المطالبة برد الديون المترتبة عليه.. فلم يجد صلاح بدًّا من البحث عن عمل وتخليص عمه من تبعات إعالته.. أعانه على ذلك عمه الذي استدل على رجل من علية القوم أعطاه الله بسطة في المال والجاه، ويصرف وقته في متع النفس وشهوات الجوارح، يقضي نصف السنة بين الصحارى

مقتفيًا مجاهيمه التي تقدر بالمئات، وفي الصحراء يمارس هوايته في الصيد، فلديه أغلى أنواع الصقور، وفي الصيف يمّم صوب بلاد المطر والثلوج والخضرة والوجوه الحسان، هذا الوجيه كان يبحث عن صبي صلب شديد العود، يرافقه في رحلاته الخلوية ويتحمل الشدائد ويؤدي ما يحتاجه منه، يسمع ويطيع بلا جدل. كان المحرض القوي الذي دفع بالشاب لتقبل هذه المهنة الشاقة الطمع في الحصول على الجنسية التي عجز عنها العم وآخرون كثر من أبناء عشيرته، وقبل أن يسلم العم قياد صلاح للرجل الوجيه همس في أذنه يحثّه على الاصطبار.. لم يكن صلاح قبلها يعي جيدًا هذه النقيصة التي بدأت منذ اللحظة تؤرقه، ومنها حل كثيرًا من الألغاز، وأسفرت المدينة عن وجه مختلف. ظل مع السيد خادمًا مطيعًا يلاحقه مثل ظلّه.

تعرّف معه على الصحارى المنبسطة ودكاكها والقفار المجهولة والوديان وأشجارها، كان يلاحق بسيارة الجيب المكشوفة المحمّلة بالخيام وأدوات التخييم سيارات السيد التي تسير بأقصى سرعتها فتحثو أمامه الأتربة حتى فقدان البصر وضياع البصيرة. أحيانًا تغطس السيارة في ريغة رمال ناعمة، وبطريقته ينتشلها سريعًا ويلحق بالسيد الذي لم يأبه له قط. تمنّى لو يلتفت إليه ذات مرة ولو خطأ بمثل ما يمنح الكلاب والسلق من عنايته الخاصة، هذا لا يهم.. الأهم أن يلقي له السمع ويلتمس له الشفاعة عند صاحب القرار للحصول على الجنسية. سبع سنوات كاملة من الصيف إلى الصيف ذاق فيها الويلات واستطعم كل المرارات، حتى اخشوشنت يداه وعبأت لحيته وجهه ولوحت وجهه دكنة

ضاربة إلى السمرة، في ليلة سمر كان السيد يحضرها لسادة من ذوي الكنى والألقاب الكبيرة والصفات الأكبر، وقف ببؤسه أمام السيد يشدّ من أزر صوته المخنوق، طالبًا منه التوسط له للحصول على الجنسية، فأشاح عنه وجهه العبوس فكرر عليه الطلب.. فالتفت إليه ناهرًا:

- رح لشغلك ولا تكثر كلام.

استشعر المهانة وطعم صغار بمذاق سام، تسرب في حلقه سريعًا مستقرًا في قلبه، وقبل أن يدسّ قدميه في نعاله عاد إليه مستقر الجنان طالبًا:

- طيب يا طويل العمر حاسبني خلني أمشي.

- التفت إليه بعين تلمع بالضغينة، انشق حلقه بصوت يتوعد ويهدد:

- أنت ما تستحي.. أنت من أنت.. أنا ما عندي لك شيء، اقلب وجهك لا تويني خشتك والا ترا تشوف شغلك.

ظل صلاح ثابتًا كعمود لا يتزحزح... كانت الإهانة أصعب من أن يتجرعها إنسان، إلا أن تشطره إلى نصفين.. ركض إليه بقية الخدم يسحبونه من ذراعه خوفًا من بطش السيد. أخرجوه إلى ما وراء القصر، وحذّروه من الظهور قريبًا.. فالسيد يستعد للسفر الصيفي.. ويوم يعود لكل حادث حديث.

اختفى صلاح عن القصر.. مرض عمه جعله يلتحق بأبنائه للتخفيف عنه، إلى أن وافته المنية، وقد أوصاه بأن لا يفارق أبناءه، فهو قد تعلّم من الحياة ما يجعله في صف

الكبار.. وفي اللحظات الأخيرة ألمح إلى ابنته فاطمة.. ولسان حاله أنه يوصيه بالارتباط بها.. فكر لاحقًا سر هذه الوصية المبطنة، ليكتشف أن العم يتوخى منه أن يكون من صميم البيت، يساكنهم كواحد منهم. القدر كان حاسمًا، فقد جاءت خاطبة بإغراء مادي جيد للفتاة.. ليتنازل عنها سريعًا لما هو خير لها وأمثل.. رحلت مع عريسها إلى مكان بعيد واستقر هو مع أبناء عمه في البيت.. في معهد الرياض العلمي قبل بشفاعات، وقفز المراحل الأولى بما يحفظه من متون.. تخرّج منه سريعًا. جابه صلف الحياة بلا اشتراطات، خاضعًا لكل احتمالاتها، سلم نفسه طائعًا لصاحب محل بيع خضار وفواكه. وضع كل ثقله في هذا المحل الكبير، حتى تشرب هذه المهنة جيدًا، صار صاحب اليد الطولى والكلمة الأولى والأخيرة فيه. يعمل ليل نهار بلا كلل أو ملل، لا يعرف جسده الأرض إلا للنوم فقط. عشق الفواكه ورائحتها، نبتت بينه وبينها قرابة، فهي المجلوبة من بلاده السمراء البعيدة، مثله تمامًا حيث حمل كفسيلة غرست في تربة أجداده الغابرين، المانجو الإفريقي وأجود أنواع الموز، يا لها من مذاقات لذيذة. أراحته قليلًا من حالة اغترابه الشكلي، فهو في المضمون ابن ليس بالتبني لهذا البلد ولا بالرضاعة، بل بالجذور. ما كان ينغص عليه ويكدر صفوه، التفتيش الدوري عن إقامات العمال. كم كان يتوق أن يعفى من الأسئلة المحرجة عن جنسيته. استضافه صاحب المحل يومًا إلى بيته لوليمة عشاء دعا إليها بعض أقاربه. قدمه إليهم ثم التزم ركنًا قصيًا واجمًا لا ينطق، حتى سأل أحدهم:

- صلاح أنت من وين؟

- صلاح ما هو سعودي (أجاب صاحب المحل).

- من وين يا ترى؟

- إفريقي.

اتسعت الأعين على كائن غريب وكأنها تلعنه، وتحثو في وجهه رمادًا، صاروا يتهامسون كمخبرين عن لص هارب.

اللعنة بماذا يتهامس هؤلاء؟ لم تعد أثوابي الرثّة تعرّيني، ألبس كما يلبسون وأضع العقال الذي طالما هربت منه عند السيد تمييزًا لي عن خدامه، ما يكسبني احترامًا أكثر، حتى ذقني بدا محفوفًا بعناية، والدكنة التي وشمتني بها البرية استبدلت بها طراوة المدينة.. الأعين تحدق بي.

- في وجهي غلط ما؟ سألهم:

- لا بس كان يسألني عن جنسيتك فأجبته.

- ماذا قلت له يا ترى؟

- أفريقي.. ألست أفريقيًّا؟

- لا، أنا من هنا.. آبائي ولدوا هنا.. ورتبوا لإنجابي هنا.. لا أعرف إلا تربة هذه الأرض.. ومطر سمائها.

- المطر حتى يأتي من البعيد.

- هل أحسستم ثمة لكنة أعجمية ترتخي فوق لساني؟ أي لهجة أحكيها.

- لا.. أنت مثلنا تمامًا.. ولكن.

نهض صلاح وغادر المكان. بات ليلته مسكونًا بهواجس أقضت مضجعه. فكر مليًّا ببلاده البعيدة. في غضون أيام.. رتّب مع ابن عمه محمد في بوليساريو، عبر اتصالات

معقدة ليسهل له سبل العيش هناك، فما لديه من مال كاف لبدء تجارة جيدة؛ في تصدير المواشي الصحراوية. في ليلة تحسب تاريخًا في عمره كانت الطائرة تشق المدى متجهة إلى القاهرة، ومنها رحل إلى الدار البيضاء ثم إلى العيون.. اختار هذه المحطات كي توفر له فرصة اكتشاف مدن أخرى، فهو ليس في عجلة من أمره.. في كل مدينة قضى قرابة الأسبوعين. قرأ ذات مرة أن البشر كالبيوت بأبواب ونوافذ، موصدة ومفتوحة، فتأكد له أن المدن كالبشر بأعين وأفواه، مدينة لا تعيرك اهتمامها، ومدينة مغمضة العينين جاهزة للعض، ومدينة مفتوحة العينين والفم لتبتلعك، ومدينة تحدثك بأسى طويل وتشرده من قلبك بنكتة.

وصل صلاح إلى البوليساريو وشرع متنقلًا في رحلة عبر الزمان أو المكان، إلى قرى ليس فيها سوى غرفات من الطين تعرش حولها أشجار كبيرة كأشباح.. توسد الناس أذرعهم وناموا تحت هفهفات أغصانها تخفف عنهم وطأة الحر القاتل. تلتف من حولهم البهائم بخمول يشبه الموت، جال بين القرى باحثًا المكان الذي يقطنه ابن عمه محمد فأشاروا إليه بأذرع سوداء طويلة ناحلة، فمشى بسكينة والريح تصفر كأنها تنادي أرواح تائه في فلاة بلا قرار.. حتى صادف محمدًا يسوق قطيعًا من الجمال وينادي بصوت يشبه الحداء. أخذه محمد في جولة فوق جمل أورق اختاره له بعناية، عرفه على أبناء قبيلته حتى الأموات منهم، ومواقعهم وأيامهم المشهورة، في البدء كان يسقط مغشيًا عليه من شدة وهج الشمس لولا أن تداركوه بخيمة نصبوها على عجل، وكأن الرياح تتوقف جافلة حتى انتصبت الخيمة، لتسرح كعادتها

في كبد الصحراء. كانت الخيمة قريبة من البئر الفائض ماؤه، يحاذي هذه الريح جنود بأزياء عسكرية غليظة، يقتفون أثر ثوار أشداء، وجدوا في الصحراء ملاذهم الآمن.. في كل مرة يمرون بهم يحذرونهم بألا يغفلوا عن أسلحتهم في هذه القرية الصحراوية التي تبتعد قرابة المئة ميل عن العيون. تعلّم كيف يعتني بنفسه. منحته البئر المجاورة فرصة الاغتسال. ألفى محمدًا نسونجيًا يامتياز، لا يعرف من متع دنياه سوى أكل اللحم، والنوم على اللحم وانشاب اللحم باللحم. وسيلته الوحيدة لبلوغ قلوبهن وعلو كعبه بينهن، القوة، والحماية، تغزل بالنساء خلف الأبواب المواربة، دقة عوده وأنفه الأقنى وبياضه الذي يميّز أبناء قبيلته عن غيرهم، وكحل عينيه، كل ذلك يغري الفتيات أيضًا لمخاتلته النظرات، ومن بلغ بها الشغف حدّه، جاوزت النظرات، واستحلت الخلطة. تسبقه إلى شجرة عتيدة في بطن الصحراء المجاورة فيطارحها الهوى. وقف صلاح أمامه تائه اللب مسلوب الإرادة، حتى خشي على نفسه الانزلاق في متاهاته الصحراوية، نصحه صلاح حتى أبكاه، فطلب منه محمد أن يربطه إلى جذع شجرة في طرف البيت القبلي حتى يمتنع عن غواياته، وينسى ملذاته. ففعل، وبدأت رحلة التهذيب والإصلاح يؤكله ويشربه بنفسه فما إن يجن الليل،حتى يُسمع غناؤه، الذي يحمله الهواء إلى مسامع النساء، ينادي به امرأة بعينها فينتزعها من رقادها طائعة إليه، تحلّ قيده، ويصيبها بفحش، ثم تعيد إحكام وثاقه، وذات ليلة أجهده الوطء فنام في مكانه، فاشتد الأمر على صلاح، فاقترح عليه أن ينأى بنفسه كي لا يسمع ولا يسمِع.. فاتخذ له منزلا يقع في أسفل القرية، حتى أصبح

منارة يؤمها الركبان، يضيفهم وينشدهم من أشعاره، وولعه بالعذارى، صارت السهرات الليلية تنعقد بين يديه، حتى أصبح مهوى أفئدة المارقين من أبناء الصحراء؛ لتتكون منهم عصابة مهيبة الجانب، عجزت عنهم السلطات فهاودتهم باتفاق ضمني. ومع مساوئ هذه العصابة فلها حسنات جزيلة منها: رفع الضرر عن كاهل البلدة متى سقطت عليها أمطار غزيرة، فهم يستبسلون في عراك مع الرعد والبرق، وجهاد مرير حتى يبلغوا النساء والأطفال مأمنهم، كما يحسب لهم وقوفهم حرّاسًا لأكتاف البلدة ضد أي غازٍ، حتى أعدت لهم السلطات العدة وهاجمتهم مباغتة في ليل، كان صلاح يرقد بعيدًا في أحد بيوت البلدة من أبناء قبيلته، اقتيد محمد وعصابته ممن نجا إلى السجن، وعند الصباح فرّ صلاح بنفسه من حملات التفتيش عن بقية رجاله. استقل سيارة (جيب مكشوف) عائدًا إلى العيون تناوبته مشاعر ممزقة بين الخوف والرجاء بين رهط من الرجال السود، وقد توخوا بحسهم الصحراوي غرابته، ظلوا ينظرون إليه بتفحص ضعضع سكينته.. أشار له أحدهم إلى الساعة التي تطوق معصمه ظن أنه يسأل عن الوقت فأخبره باللغة الطارقية التي تعلمها من بعض نساء مكة، أمهات أقران الطفولة، بصوت أجش نهره والوعيد المغموس بالطمع يسيل من بين أحداقه ارتعدت فرائصه، فنزعها من يده وسلمها إياه صاغرًا، قبل أن تقطع يده، ودون أن ينبس بكلمة قد تطير ذراعه. ابتسم له الرجل الأسود بأسارير منفرجة وكأنه يمنحه حمايته. قطعوا مئات الكيلو مترات لا يرون شيئًا سوى الكثبان، وكأنهم مركب من المرابطين القدامى يضربون عمق البيداء، الممتدة

على الخط الحدودي الطويل بين ثلاث دول، وشقّت سيارة الجيب «الشاص» مدينة تمبكتو الكئيبة ومضوا، حتى قطعوا نهر النيجر، وقصدوا الجنوب، متوسطين دولة مالي السوداء

مروا في طريقهم عبر فياض نخيل جوز الهند وثمار المانجو المتدلية بإغراء. رأى كيف ينهر الرجل الأسود السائق بغلظة آمرًا إياه بالتوقف، وسريعًا قفز خاطفًا بيديه جوزتين وثلاث حبات مانجو كبيرة. من أقفاص مثبتة فوق أكتاف بائع، تناثرت الأقفاص وتدحرجت الثمار. تداعى الصغار والكبار يلتقطونها كالقردة، والرجل يقف متخشبًا كاسف الوجه، تنادى ثلاثة شبان تسطع أجسادهم العارية بالعرق، هجموا على الرجل الأسود فاستل سيفًا كالساطور شوّح به عاليًا وهو يقبض على طرف ثوبه الواسع المترع بالثمار، تقهقر الشبان إلى الوراء وتركوه يصعد السيارة الجيب، فلما استقر مكانه وتحركت السيارة بهم، فرط غلته وأسنانه تلمع بلمعة الساعة التي تزيّن يده، بضربة ناجزة فلق جوزة فرشق ماءها، ثم قدمها له والحافلة تغذّ السير إلى العاصمة باماكو، في قرار أخير للعودة إلى السعودية ؛ وطنه الذي لم يمنحه الهوية، حيث عزّ أن يهبه ورقة تثبت أحقيته بالعيش كريمًا، بعدما تحقق من عجزه عن البقاء في مدينة محفوفة بالمخاطر والحيل التي لا يجيد التعامل معها، ما يثبت عمليًا أنه ابن البيئة التي ولد فيها. عاد أخيرًا بنفس مطمئنة وروح مفتوحة للعيش، مع إصرار إضافي للحصول على الجنسية مهما كلف الأمر. الخبر الذي غسل أدران روحه، وأعاده إلى وجه الحياة قبوله في كلية اللغة العربية، التي تفرّغ لها تمامًا مقترًا على نفسه ماديًا حتى لا تحل به

الفاقة، ويضطر إلى ترك الجامعة. سنوات الجامعة الأربع كانت ثرية مدرارة، زوّدته بذخيرة علمية جيدة، أشاد بها كل أساتذته، حتى تخرج منها بعلامات مشرفة، ومع ذلك لم يجد الوظيفة اللائقة به سوى معلم في ابتدائية أهلية، بأجر شهري زهيد.

الفصل السابع

شخصية مفقودة

1

يا الله.. ظهري ويداي وساقاي تؤلمني.. مازلت شابًّا يافعًا لم تداهمني أمراض الشيخوخة بعد؛ فماذا حلّ بعظامي؟ هل لأني نمت متقلبًا على هواجسي ومخططاتي الفذة في كتابة رواية لن يقرأها أحد؟ حتى الدرج الذي أهوي بقدمي متوجعًا على زلفته الأخيرة أراها بداية الصعود، فما أقسى أن تحس دائمًا أنك تصعد، ولا أمل لك في النزول، انتبهوا أنا أقصد الصعود الذي لا يزيدك إلا لهاثًا، داخل فراغ غبي، مرقى وعر، لا الصعود الذي يأتي فجأة بفرقعة إصبع ويضعك مقابلًا تمامًا لشاشات الشهرة والمجد. ومع هذا فأنت أيضًا مسكين؛ لأنك ستسقط بفرقعة إصبع متبوعة ببصقة دنسة.

أنا الآن أنعش صدري برائحة القهوة، لم أحرّك خلايا لساني بطعمها المدوخ. التلذذ؛ هذه الخاصية المشروعة للجميع ولا يصل إلى كنهها سوى النزر اليسير، فأنا أفهمها على النحو التالي: أن تعيش يومكَ بشعور خاص لك وحدك دون غيرك، تخلق نفسك داخلها وجهًا للحياة لا يراه إلا أنت، حينها ستكون مراوحًا بين الحقيقة والحلم، فهي ليست مخلوقة من مادة وإن بحث عنها بالمال أو المأكل أو المشرب.. هي عميقة عمق الضوء البازغ، تنهمر داخلك

كشلال نوراني لا تستطيع توصيفه بأكثر من كلمة (الله) مثلًا أو: ما أسعدني. بالرغم من كل رزاياك ومصائبك فقدرتك الوحيدة على تمجيد روحك وتجميد الجانب المظلم من حياتك وعينك مغروسة فقط في فضاء النجم اللامع من بين هالة كثيفة السواد. تنتابني حيرة من انغماس بخيتة الدائم في النكتة، لم تتوار أسنانها اللامعة منذ عرفتها، دائمًا مشرعة على الضحك. إذن هي اللذة الخاصة جدًا، وسنعرف قريبًا جدًا سرّ هذه الملذات القابعة تحت أكوام من التعاسات.

2

مضى أكثر من أسبوع على غيابي عن بيت بخيتة. . بالرغم من اتصالاتها الكثيرة التي لم تواتني الجرأة الكافية للرد عليها. كنت بحاجة حقيقية للتواري.. فالاتفاق المبرم بيني وبين ندى ينصّ على الكف عن زيارتهم ومخالطتهم، حتى تهدأ تنعيم وتشطبني من ذاكرتها نهائيًا، فهؤلاء القوم سريعو الاشتعال والانطفاء، لا يحملون مقتهم طويلًا، يبخرونه مع ليالي الأنس، الغناء، الرقص، حتى تروق أمزجتهم، وترقّ أرواحهم، هذا الاتفاق المبرم بيني وبين ندى بُني على المكاشفة والمصداقية، فلم تعد مغمضة العينين تتسرب من أسفل منها الأكاذيب ولا تراها، فالتجربة السوداء في حياتها اختصرت عليها تجارب تعيسة كثيرة أصبحت قادرة على تلافيها، هي تدري لماذا تسلم جسدها لتنعيم؛ كانت تبحث عن مخرج للضوء ولو من خلال نفق مظلم في نهايته قمر مضيء. هل تكفي هذه الأيام للعودة؟ فالوقت الضائع يراهنني على العودة إلى مهنة الكد، وأنا طلّقتها إلى غير رجعة. أحيانًا تنازعني الأفكار وتغريني بالبحث عن شخصيات بديلة، فأطردها من رأسي ثم تعاودني، فلا مهرب منها إلا بالعودة سريعًا إلى عالم بخيتة، نعم، تسعة أيام كافية لنسيان خيانة ندى، ما أحتاجه الآن هو الشجاعة الكافية للرد

على أقرب اتصال يردني من بخيتة.. وهو ما تمّ فعلًا قبيل غروب الشمس، أجبتها مع مخاوف تعصر قلبي:

- ألو.

- هلا والله.

- وينك يا بعدهم.. مريض؟

- هاه؟ تقريبًا.

- سلامتك وهالحين وشلونك؟

- الحمد لله طيب.

- يعني تقدر تجي والا وشلووون؟

فكرت مليًّا قبل النطق وأنا أسمعها تقول (كلهم يسألون عنك)، أراحتني هذه فقلت:

- طيب أجي، بس تراني ما أقدر أطول..

- ما يخالف تعال بس.

الفصل الثامن

رقصة زار

1

ـ قل لي بصراحة؛ هل أنا سمراء أم سوداء؟ فأنا أعرف أني رشيقة وقوامي يجنن؟!

ـ ليش تسألين؟

ـ العمة تشبهني بالباونتي.. تصدق من يومها وأنا لا آكل من حلاوة هالدنيا إلا الباونتي.

ـ وعلى ما قالت العمة «أنت من برا لون كاكاوي ومن جوا لون الجوز».

هاللقب خلصني من صفة «الخالة» حتى البنات صاروا ينادونني بونتي واسم شهرتي بين الطقاقات بونتي.

ـ ما قلتي لي وش سالفة العمة؟ سألتها بلهفة.

ـ عمة نصرة.. ما تعرفها.. تجي بس للرقص يعني جد العمة فوز هو معتق جدة نصرة، ونصرة تربَّت مع العمة فوز، وهي تقوم بكل شؤونها ومديرة أعمالها الخاصة. عشان كذا إحنا داخلين في دائرة نصرة والعمة فوز.

ـ من أنتم يعني؟

ـ كلنا شلة الطقاقات. أحيانًا فوز تجي مع نصرة؛ لأنها تعشق الرقص على صوت (تفانين) لذلك ترتب فوز لها حفلة خاصة تدعو لها صاحباتها.

كان هذا الحوار مجتزًا من سهرة كاملة قضيتها في بيت بخيتة، فبعدما انطلقنا من المعيقلية إلى بيتها حدود الساعة التاسعة مساء، ألزمتني بشدة حضور سهرتهم، ولكي تبدِّد مخاوفي كشفت لي أنها تحيط بكل ما حدث بيننا «تقصد ما بيني وبين ندى وتنعيم». والمعنى أن هذه القضية حُسمت، بمجرد أن استرجعت تنعيم عشيقتها ندى، نسيت كل شيء ورمته وراء ظهرها، ولسان حالها يقول: حياتنا لا نتركها للماضي، نحن نفكر بالمستقبل فقط. كم أراح قلبي اتصال بخيتة وأفرحني. إزاء هذه البهجة المستجدة في قلبي اقترحت عليها أن أعزمهم على عشاء، وبلا تردد وافقت بحنو غامر وشهية مفتوحة، شريطة أن تختار هي الأكل من مطعم محدد في حلة العبيد.. اتجهت إلى هناك قريبًا من الطريق المؤدي إلى بيتهم، وهي تجري اتصالاتها بالبنات ليتوجهن مباشرة إلى بيتها فثمة مفاجأة تنتظرهن، وأمام أحد المطاعم الشعبية توقفت ونزلت بخيتة، باستعجال طلبت من البائع تجهيز عدد من لحمة رأس وكوارع وسمك مملح (لخم) وأرز يكفي لعشرين شخصًا. وضع العامل البنغالي مجموعة الأكياس إلى جانبها وصفقت بالباب، ثم انطلقنا عبر أزقة منفوحة الضيقة كالعادة محترسًا من سقوط طفل صغير أمامي، أو تهاوي مخمور فاقد الوعي، كما حصل معي أكثر من مرة.. تفشّت رائحة الأكياس الزاخمة فتنامت معها شهية بخيتة للكلام، تحدثت بإسهاب وبلا كلل عن عشقها لهذا الحي، فهو الرابطة العرقية بين أواصر أقربائها، فكرت أكثر من مرة في الانتقال إلى أحياء أكبر وحارات أوسع ولديها المال الكافي لذلك، إلا أن بوابة الغربة التي ستنفتح في وجهها لن تردمها

حتى تتعقد خيوط حياتها وتصير كشعرها لو تركته طويلًا ولم تتعهده بما يليق به من عناية؛ لذلك فهم جماعات يشيدون حياتهم باستقلال كامل، ويشدون من أزر بعضهم، لا يتركون للحياة فرصة اختبارهم، بل يبادرون دائمًا لاختبارها، ولا يحتاجون لوسائل تنقل للاتصال والتسامر، ثم أطنبت في إجابتها على سؤالي عن عمتها قائلة:

- عمتنا لا تسأل عنا إلا في المناسبات، وأنا لا أحب هذا الارتباط؛ لأنه يعيدني إلى عصر العبودية بالرغم من كثرة العقبات التي تواجهنا. بعضنا يتمنى من التعاسة التي يمرّ بها العودة للرق، سيجدون الحماية المفقودة، والرعاية الكاملة، مثلهم مثل أي شيء خاص. وأنا أعرف جيدًا من قريباتي سبب حرصهن على عماتهن، فهن إحدى وسائل التكسب.

نحن كما تعرف لا تعليم لدينا ولا يحرص أهالينا على إلحاقنا بالتعليم، الكثيرات منا تنهي المرحلة الابتدائية بعسر، ثم تلتحق بالحياة مباشرة لتحصيل الرزق، بعضنا لا يحسن سوى التسول، توارثوها من آبائهم. البنات يتعرضن للتحرش وأحيانًا الاغتصاب أو لمطاردة رجال. مكافحة التسول لا تتركهن في حالهن. استطعت إقناع بعض بنات قبيلتي بالعمل معي، أما القبائل الأخرى فلا شأن لي بهن، أقول لك: تدري وش يجمع ما بين التسول والبسطة؟ ببساطة هو إحياء حفلات أولياء النعمة. ويا سعدها تلك التي تقع على مرمى قريب من نظر أحدهم ليختارها محظية ليلة فيقضي معها وطره فتحصل منه على ألفين أو ثلاثة آلاف ريال، هذا المبلغ ما تحصّله بنت الهوى في البحرين أو دبي.

2

بخيتة تصف نفسها وكأنها تتعرف على ذاتها للمرة الأولى، تفتح دولابًا من الأسرار، تبوح بها وابتسامتها تفترش شفتيها الممتلئتين.. لم تسحقها أوجاعها، فقد ظلت أهدابها ترقص عينيها الواسعتين ببياض مشع، فلماذا هذه الانفراجة الحادّة في لغة البوح، هل تكون قد اكتشفت نواياي المبيتة في كتابة رواية؟ فأنا لم أخبرأحدًا بذلك سواكم، ربما أعزو هذا إلى طبيعة هؤلاء الأقوام الذين متى انفرجت قلوبهم للآخر انبسطت معها ألسنتهم بأحاديث منهمرة، فلا يعود السر سرًّا. عبرنا البيوت الطينية الصغيرة، تلك التي تراها بحجم الكف وبلا أبواب تقاوم اختراق الأجساد غير المرغوب فيها، إن كان ثمة أجساد ترغب في ولوج مطارح تموت فيها حتى الشمس، وتشيخ الظلال.

خلفنا الأيدي الممتدة بيباس وراءنا. بدأت الشوارع تنتظم بمنازلها الأكثر رحابة بما طالها من تحسينات. فبعض المقتدرين مثل بخيتة وجيرانها قاموا بتقويض منازلهم وتشييدها بتوزيع جديد يتسع لكثرتهم. دخلنا الباب الحديدي الكبير المدهون باللون الأحمر الفاقع والذهبي على حوافه، بما يبعث دفئًا خاصًّا، قبلًا لم تكن الأبواب تعني لي أكثر من

عبارة واحدة: أيها الغريب، ثمة غرباء في الداخل لا تعنيهم، وبعضهم يزيد بعبارة خطت بالأحمر الدامي: الوقوف أمام البوابة يعرض سيارتك للبنشر. أما الوقوف أمام باب منزل بخيتة فيعني: أيها الغريب اقترب أكثر من الحياة، ففي الداخل أناس تعرفهم هنا بمجرد أن تبتل يداك بعرقهم.

الآن ألج بخطوات واثقة بين الصبية والأطفال الذين يسدّون المداخل. طفلة واحدة أراها للمرة الأولى وكأنها غائبة عن البيت طويلًا؛ التقطتها بخيتة كدرة ثمينة مستنشقة رائحتها وهي تلثم وجنتيها السمراوين وأنفها المفلطح وعينيها العسليتين. تحملها معها إلى الداخل.. يدي مثقلة بأكياس المأكولات، أرسل عيني في كل الصور التي تقع عليها، حتى أحاطت بنا الصالة الكبيرة. نهض النساء والرجال، الفتيات والشباب الذين تنضح بشراتهم السمراء بلمعة الشباب وأجسادهم برشاقة غير معهودة للمصافحة. التقط الشباب ما بيدي من حمولة وأجلسوني بينهم بحفاوة طاغية أحرجتني، وثرثرة النساء لا تتوقف، كانت أحضانهم دافئة بما يكفي لالتقاط الأنفاس، ألسنتهم تنزف بالترحيب والأسئلة عن سر غيابي المفاجئ، ما كان يشغلني هي تنعيم التي لم تبزغ بعد، فهي النفس المعلق في صدري، لن يخرج حتى أعرف ردّة فعلها حين تراني، لم أتلبث طويلًا دخلت تسوق أمامها دعاباتها، رأتني فنضح محيّاها بالفرح، مدّت يدها تصافحني وتضغط على أصابعي وهي تسألني عن غيابي بعين غامزة، وكأنها تمرّر رسالة مبطنة مفادها.. لا تكررها.. مدت سفرة

الطعام وتحلقنا جميعًا ننخز بأصابعنا لحمة الرأس الطرية، وبخيتة تدور عليهم بالمرق وهي تمازحهم، وأسنانهم البارقة بياضًا لا تتوقف عن الضحك والأكل. صعدت إلى الأعلى.. غابت عني برهة أحسستها طويلة جدًا والأعين الناصعة بالبياض تغشاني بفضول زائد، نزلت بخيتة من الأعلى بحلّة مختلفة. تقرع بلاطات الدرج الرخامية، تهفهف بروائح عطرية فواحة، مثيرة للبهجة أو الرغبة.. بدت أنثى تهيج النفوس وتملأ الروح بالأنس. بشرتها السوداء أكثر صفاءً، نقية كاللوز، لا بثور.. لا تعاريج.. تزيدها عيناها الصفراوان لمعانًا.. تعلوهما جبهة عريضة بارزة..، لم يكن أنفها يفترش وجهها كثيرًا بل ترك للخدين الممتلئين بارتفاع فرصة للرقص، كلما ضحكت انفرجت شفتاها الممتلئتان عن صفّين من الأسنان متوازيين يلمعان ببياض كالبرد، لا عوج فيهم.. يتوهج سوادها بانعكاس الإضاءات البيض، فتشتعل كفتيل قدح بالنور فعشيت منه الأبصار.. عقصت شعرها جدائل صغيرة فأصبحت كنخلة، تنسدل الغدائر المعقوصة (بتوكات) ملونة عابرة جيدها الدقيق، ومنتهية ما بين الخصر الناحل والكفل بما يجعلها تمشي بتكسر يسخن العروق ويطرب القلوب، تمشي بتراقص على إيقاع كعبها العالي. ما هذا السحر الذي سكنني وكأنني أراها للمرة الأولى؟

بعد العشاء وبإشارة مقتضبة من عين بخيتة اقتربت منها زحفًا، أجاورها في المجلس وهي تضفر شعر البنت الخشن المنتفش. هذه الصغيرة أثارت استغرابي، بدت الوحيدة

المتفردة بالحب والتميز بين قريناتها. أنعشتني سعة صدورهم. وممازحتهم لبعضهم دون وجل أو مراعاة لضوابط معينة. صدقًا لأول مرة أتنعم بمثل هذه الأجواء المشبعة برائحة القلوب الطرية. استشعرت روح العائلة، فكادت أن تطفر من عيني دمعة، تذكرت أبي المعتكف في صومعته أبدًا لا يبرحها إلا للصلاة، وأمي دائمة التبتل والصلاة، لم أرها قط خارج فرشة سجادة صلاتها، في حين أن هؤلاء القوم مثخنون بالحكايات، تضيء أعينهم بضحك متدفق.

ـ من هذه الطفلة؟ سألت بخيتة.

ـ ابنتي.

هكذا أجابتني بلا مقدمات، وكأنها تطلق رصاصة حرة لا مبالية، هذه الإجابة غير محررة، ظننتها تمزح، فما أعرفه عنها أنها لم تتزوج، أوقعت حجرًا كبيرًا في بحيرة راكدة فتحركت منها كل أمواجي وتكاثفت الأسئلة؛ لذلك قالت وهي تطلق سراح البنت من بين يديها بعدما أشبعتها لثمًا وعناقًا:

ـ لا تستغرب، هذه حكاية طويلة. اليوم مشغولون بالإعداد لزواج الغد، فلا وقت للحكي في مثل هذه الموضوعات، (شوف) خلك اليوم معنا. سنتدرب على أغنيتين لراشد الماجد وأغنية لأحلام وأغنية لرابح صقر.

فهمت الآن سر هذه الصالة التي أكلت ثلثي مساحة الدورْ الأرضي. وقلة الأبواب؛ فليس ثمة سوى بابين

للمدخل والمطبخ، ومن المطبخ يتفرع باب يفضي إلى غرفة داخلية للأطفال، والمدخل الرئيس يؤدي إلى مجلس للرجال. مع العلم أنني هنا لم أميّز بين الشيب والشباب، البشرة السوداء لا تترهل سريعًا، والشيخوخة لا تزحف إلى الوجوه لتضع بصمتها فجأة، بل تؤجلها إلى ما بعد الستين. هذا ما كان يثير دهشتي.

الذين يغيبون عني ردحًا من الزمن ثم أقابلهم أكاد لا أعرفهم من وجوههم المتغضنة، عدا الوجوه السود التي لا تطولها التجاعيد بسهولة، هذه ملاحظة وليست اكتشافًا، تضاف إلى ملاحظات أخرى دوّنتها اليوم عن هؤلاء القوم. خشعت الأصوات قليلًا، نادت إحداهن: (يالله يا بنات عجلوا). الطبول بين الأيادي ساخنة والشباب يجلسون أمام آلات موسيقية حديثة. كانت بخيتة تحفز الأيدي لضرب الطبول بعنفوان، وتشدّ من أزر صوت تفانين التي بدأت تمول بصوت عذب كمّم بقية الأفواه:

.. هلي لا تبعدوني عنه.. هلي لا تبعدوني عنه.. مثل ما هو قطعة مني.. أنا تراني قطعة منه.. أنا تراني قطعة منه.. أحبه أموت.. أنا ذوب.. أنا دوخ.. أنا والله وميت فيه.. أحبه وعقلي وقلبي وروحي يعلني ما بكيه.

تدفقت الفتيات برشاقتهن وسط الدائرة، يتمايلن بأجسادهن مع موال تفانين الاستفتاحي. تناوبت الأصابع بقرع خفيف على حافات الطبول متسقًا مع صوت تفانين. ارتفع صوتها بلحن يقطع نياط القلب والطبول ترافقها الآلات

الحديثة. اخترشت الأجساد تتلوى وقلبي يعتصر كمدًا. لا أدري كيف انسكب داخله على حين غرة. تواصل الصوت:

حشا ما كنت له جاحد.. ولا حب من طرف واحد شكيت الراشد الماجد.. شكيت الراشد الماجد.. سبايبكم هلي غنا أحبه أموت أنا ذوب أنا دوخ أنا والله وميت فيه أحبه وعقلي وقلبي وروحي يعلني ما بكيه هلي لا تحرموني منه.. هلي لا تبعدوني عنه.

داهمتني نشوة أغرقت روحي. تحركت لها كل أواصري. لم أفطن لنفسي الا وأنا أتمايل معهن وعيناي ساهمتان إلى فضاء ضبابي، ليس دوني ودون أسرار الكون سوى صوت تفانين الذي أخذني إلى عالم عجائبي. لم أستشعر وجود مثله قبل هذا اليوم، كان ثمة حلقات تتسع الواحدة وتسلمني لأخرى. أبصرت نفسي داخل رغوة ضبابية تؤرجحني، ودخان تسلل إلى رأسي برائحة تتمدد لها عظامي المنعقدة. شيء ما يشبه السحر. لم أكتشفني إلا ساعة انقطع الصوت والبلل يتشح به صدري، وعيناي تغشى بخيتة وهي تسقيني الماء وتبلل جبيني. قلت بصوت أكاد اسمعه:

- وش السالفة؟

بضحكة تخفي وراءها أشياء كثيرة قالت:

- والله طلعت مسكون وحنا ما ندري.

- مسكون وشلون؟

ـ يعني يزورونك مع الطق.

ـ الطق؟!

ـ إيه ما شاء الله عليك، ما قفلت من يوم بدينا.

أحسست بورطة لم تكد عيناي تخفيانها. نظرت إلى الساعة فكانت تقريبًا السابعة، فالتمست طريقي بمشية مترنحة إلى حيث ونيتي الواجم على غير عادته خارجًا. وقبل أن تنشط قدمي لامتطاء سيارتي قالت بخيتة بعين غامزة:

ـ على فكرة، عندي لك شغلة أريح من هالكدة واكسب لك. بكرا العصر نحكي.

لم يكن دماغي قمينًا بحمل أي شيء إضافي. كان مفرغًا من كل شيء، مثل جدار اخترقته قذيفة هاون.

من سيرة البطل الخامس
ولادة صاخبة

تزحلقت بخيتة إلى الدنيا في محيط مشحون بالفوضى. . نساء ورجال تختلط وجوههم من الأعمام والأخوال، لا يغربون عن عينها البتة. في الصباح تراهم نائمين عشوائيًّا فوق الفرش الأرضية. وفي المساء سهارى صاخبون حتى وجه الصبح الأول. تعلمت منهم الحرية، والتعبير عما تريده بوضوح. لا يتعذر عليها سوى ما لا تتخطفه عنوة. لهذا البيت طقوس لا مثيل لها في الخارج. الوجوه السوداء والسمراء التي تحوم حولها تملؤها بالسكينة. تعلمت كيف تهتز راقصة حتى انفتل جسدها باكرًا، وبرز نهداها باستدارة تحرك غواية الرجال. جسدها لم يطق العباءة التي ألزمت إياها. عاندت أمها بصراخ وهي تهم بالخروج، ليس مخافة عليها فهي تعرف كيف تدافع عن نفسها كهرة، إنما مخافة رجال الهيئة، المنتشرين في المدينة أن يقتنصوها سافرة فترتج عليهم حياتهم، التي يتعاطونها بأريحية بعيدًا عن شريعة المدينة المحكمة الانغلاق. هذا البيت هو عالمها الحقيقي، وفي الخارج أسباب التقاط لقمة العيش. تعلمت الرقص أصبح في حياتها كالمشي والوقوف والأكل والشرب. التحقت بالمدرسة فكرهتها فورًا، كانت أساليب العقاب

تعيدها إلى معانٍ لا تتفهمها جيدًا، شيء ما من الكره والمقت وربما العبودية، ويوم استلمت شهادتها الابتدائية عقب معاناة طويلة، استسلمت للأمر الواقع فهي ليست تلميذة مدرسة، كانت تجيد الضرب على الطبل. وحاذقة بالرقص بكل ألوانه، ترقص فتهز قلوب الرجال المتحلقين من حولها، وبيوت منفوحة تشرع لها أبوابها في أي وقت. اصطحبتها أمها إلى الأعراس، حتى أمست الفتاة ذات الأربعة عشر ربيعًا أهم طقاقة وراقصة في الفرقة. تلقت عروضًا سخية من فرق أخرى.وتنقلت بين الفرق محفوفة بضغينة الطقاقات وحسد القرينات. لم تركن إلى الراحة يومًا ما، فاحتجبت في البيت تفكر في مآلها مع الخال العربيد، هي لا تعرف تحديدًا عدد أخوالها وأعمامها، ولا الأخوال والأعمام الحقيقيين من غيرهم بواسطة الرضاعة غير المؤكدة، وهذا لا يهم ما داموا يتقاسمون الحياة ولقمة العيش. في البيت لم يكن الشراب مستنكرًا، فحتى بعض الخالات والعمات يعاقرن العرق المقطر منزليًا. هذا الخال يواصل ليله بنهاره تارة بين الكؤوس وتارة على لفائف الحشيش. وفي ساعة من نهار بارد غشمها بشكيمته التي لا ترحم، ممزقًا ملابسها حتى خارت قواها مستسلمة له، هذه الحادثة التي لا تمحى من ذاكرتها، الصباح البارد الذي فض فيه بكارتها، ثم انزلق من فوقها ينشف عرقه بأعصاب ميتة ودماء فاترة. تكورت على نفسها أيامًا خائفة مذعورة، تتلفت حولها من أي هجمة مباغتة فالرجال باتوا سواء همجيين، فكرت مرارًا أن تخبر والدتها، ثم طردت الفكرة من رأسها، وأخيرًا أفشت السر لصاحبتها المقربة تفانين، فحذرتها من

كشف هذا الأمر لأي من الناس، فما سيحدث أحد أمرين: إما جريمة قتل يقترفها أحدهم، أو أنها ستظل في أعينهم محط احتقار، أو بهما معًا. مضى الأسبوعان الأولان برفقة أمها، وفي يوم من الأيام انفرد بها بغية النيل منها، فأطلقت صراخًا مفزعًا، فتقافز الجميع ليروا الخال متشبثًا بها كالمجنون يجذبها بعنف من أثوابها محاولًا تجريدها، انبرى له الشباب وسحبوه بعنف وأوسعوه ضربًا. وسحبوه إلى غرفة جانبية وأوصدوا دونه الباب، هذه المرة كانت أشد وأنكى على قلب الفتاة الصغيرة، دفعتها لإخبار أمها بما كانت تطويه في سرها، وسرعان ما تقدمت الأم ببلاغ لأقرب شرطة ولكي لا تلحق الفضيحة بابنتها اكتفت بتوجيه تهمتين هما، محاولة الاعتداء على الفتاة الصغيرة وتعاطيه للمخدرات، فتّم القبض عليه ثملًا، ليسجن سنة كاملة غيبت أذاه عن البيت، ولو اتهمته الأم بالاعتداء الجنسي على ابنتها وفض بكارتها لرزح في السجن سنوات،أو لحكم عليه بما هو أقسى، في الشهر الثالث كبر بطن الفتاة وتبين حملها، فأخفتها والدتها عن الأنظار حتى وضعته بسلام. لم تعد ترى الرجال سوى ذئاب ناهشة لا يمكن ترويضهم دون الاقتراب منهم، غير أن إحساسًا غريبًا لا تفهمه جيدًا هو أنها أصبحت منعتقة من كل القيود والصفات، أنوثتها، لونها الأسود، شبابها الذي كان سيبدأ مع شاب تتعشق لملاحته. بدت أمام مرآتها مترهلة وبشعة، هذا كاف لتضاعف إحساسها بالمقت له. فقدت انتماءها إليه، لذلك وإمعانًا في تجريف بقايا الأنثى داخلها ركضت إلى من كانت تسميه خالها قبل اغتصابها،فور خروجه من السجن وقفت أمامه تستعرض جسدها بغواية

تستفزه، ثم سبقته إلى غرفتها وهناك منحته لذة كاملة وهي تكبت صراخ الرفض، كان استشعار العذاب بدأ يتلاشى، وهذا ما كانت تريده. هذا الذئب الذي اخترق كل تفاصيلها عليه استكمال الهدم، وها هي ذي تقدم له جسدها بإخلاص، هي تكرهه، وتلعنه، مشاعر الضعف والدونية هذه مقززة ومنفرة، لهذا لا تبتغي الوقوف في المنتصف، فعليها الوصول إلى أقصى الطرف المشبع لقناعتها بفقدان الجسد، تكريسًا لحقيقة أنه لا ينتمي إليها؛ حقيقة تدحض شكوكها باحترامها لنفسها. هرولت منه إليه ليقشر عنها بقاياها ولا تتوانى في بلوغ أقصى حدود التطرف معه، حتى لو مزق أطرافها، فالعاهة التي تريد الانتساب إليها ستريحها تمامًا من أنوثتها. كان تصميمها على الإيغال للوصول إلى نقطة التلاشي جارفًا، حتى ولجت حالة التيبس الحسي. انصبت مشاعرها في قالب آخر تدوزنه إيقاعات الطبول، والسامريات التي تتناغم مع أوتارها الصوتية، ويطرب لها جسدها المفقود. هذه المشاعر المفرغة من أحاسيس الجسد قفزت بها إلى مصاف النساء المتفردات بالإغواء، فأصبحت عيناها مثل شباك صيد لا تقاوم، ولسانها حربة حادة. بدت بين النساء ذوات البشرات السمراء والحنطية ملكة تلبستها أرواح الغابة، فهي لا تتحدث باسمها، بل بمرسوم ممهور من الأسياد الغابرين، فتصفها بعضهن قائلة: بخيتة بألف امرأة.. وهي عمليًّا كذلك وربما أبعد من ذلك، الفتاة التي اشتد عودها وقويت عزيمتها أضحت قادرة على الدفاع عن فرقتها بشكيمة جعلت شهرتها تطوق المجتمع بأسره. تتسابق إليها القصور؛ قصور الأفراح وقصور الليالي الملاح، مما أجرى

بين يديها النعيم الذي مكّنها من إعادة بناء بيتها وبعض البيوت الصغيرة لعضوات الفرقة المهمات، ورتبت الفرق وقسمتها بميزان بالقسطاس المستقيم، فالعدل الذي تعودن عليه منها هو أن تمنح بتطرف وتأخذ بتطرف، لا تتيه بين اللا والنعم تعرف متى تستخدمها باحترافية لا تقبل التردد.. عملها رئيسة للفرقة وضاربة دف ومغنية أعراس لم يسلبها مهنتها ومهنة أمها القديمة، أي متعهدة البسطات.. فهناك تمارس حياتها الطبيعية.. وفي الليل حياتها الاستثنائية، ولكل حساباته الخاصة.. تدور حولها الشكوك في أنها تتجر بأشياء أخر غير المشروبات الغازية والملابس والبهارات.. لم تتأكد هذه الشكوك بعد، فكل الممنوعات التي تجري بين يديها بكرم مفرط ليست إلا للاستخدام الشخصي. أما ندى فأخبرتني بما لا يشوبه الشك أنها تتجر بالمخدرات من أبواب خلفية، في الأعراس، والمدارس والبسطات البعيدة عن رقابة المباحث، ولكن كيف تحصل عليها هذا ما لم تكتشفه؟ أما الخال فقد أرهقه الحشيش، وهدت صحته الخمور، فأمسى مثل أي شيء مؤذ، وأمنياتهم ترتفع إلى السماء أن يعجل الله باسترداد أمانته التي لم يحفظها، فانهدّت عافيته وصحته. وذات يوم فقد وعيه وصار يهيم بين الشوارع والأرصفة، لم يعودوا يرونه إلا طريح الخرائب ومواقف الشاحنات في طرف قصي من طريق البطحاء.

تنفست بخيتة الصعداء.

الفصل التاسع

ذاكرة معطوبة

1

وش اللـي صـار..؟ منـذ خـرجـت وأنـا أحـتـدم بـكـل المتناقضات، دخلت ناشفًا وخرجت مبلولًا بغرائبية مشهدية لا تفسر. أظن.. كأني دخلت في حالة تشبه الدوخان، فهل يعقل أنني عبرت رحلة وجدانية تسمى الزار؟ حالة انتشاء كرحلة عبر الزمن. كل ما أذكره أنني قابلت وجوهًا خلتها تلاشت من مخزن الذاكرة. . الآن بالذات أراها طرية، أشتمُّ رائحتها. يا الله، هذه حيلة يعشقها الغاوون لاستحضار أرواح الماضي. حالة الانتشاء التي عبرتني ليست طبيعية، لقد هلهلتني. أنا الذي لا ينازع الشك إيماني، تتلابس الأشياء كدخان. . الآن تمام الساعة العاشرة، أجدني منجذبًا لفكرة اقتحام ضجيج طريق البطحاء، سأتفحص كل الوجوه، قد أعثر مصادفة على صلاح المدني، هو وحده سيشدني إلى ظهر الحياة، ويعيد إلي توازني.. تكفيني منه أحاديثه المغموسة بالهم، هذه الثرثرة البائسة ثمينة، ولكن لماذا أترك نفسي للصدف. ما أشد افتقاري إليه. سأجري اتصالًا ناجزًا ووجهي ميمّم نحو السماء بقلب خافق أن يجيبني:

ـ يا مدني وينك؟

ـ وعليكم السلام أوّلًا.. وثانيًا أنا أقف على رصيف شارع الناصرية أنتظر ليموزين.

ـ طيب حلو. لحظة أنا قريب منك.

ـ شد حيلك. نقلة بلاش ربحها بين.

الحمد لله لقيته، حتى لو طلب (عشوة) سأكون مع ذلك ممتنًا له. هأنذا أتوسط شارع الناصرية العاج دائمًا بالحركة. هذا الحي مسكون بالتاريخ والحكايات. تدرون؟ لو كنت بدأت معكم من الناصرية لكتبت رواية بعنوان الناصرية على غرار ثلاثية نجيب محفوظ، الذي مهر أحياء القاهرة بعناوين تخلدها، وحذا حذوه آخرون. أعدكم إذا (ضبطت) مقادير طبخة هذه الرواية، فسألحقها برواية الناصرية. حيرة الزار لا تزال تتشبث برأسي. هذا العالم الغريب الذي اقتحمته؛ العالم المعمى على كثير من الناس. قد يكون مفتاحًا سحريًا ألج به روايتي. سأتوغل بين تفاصيلهم الدقيقة، لو تكتشف شيئًا جديرًا بالكتابة عن أسرار الزار لعنونتها بـ (الزار)، الآن لن أشغل ذهني بالعنوان، وسأتركه لحينه، حتى تختمر عجينة الرواية، مع أن الكاتب يصرف وقتًا طويلًا حائرًا في العنوان الملائم، أقصد الجاذب أو المدوي لروايته. يقولون: ثلاثة أرباع الرواية العنوان؛ هذا طبعًا زمن تسليع الفكر والأدب، عالم الدعاية والإعلان، لذا اتخذت كأي منتج مستهلك يجب أن يحقق مبيعًا، ويلهث بعضهم للوصول للأكثر مبيعًا، حتى لو زورًا وبهتانًا. ولكن أنا لا يهمني الأكثر مبيعًا، ما يهمني الآن أن أخلص من هذه اللوثة التي أصابتني عدواها من بيت بخيتة.

أهه.. ها هو ذا صاحبنا المدني.. الحمد لله عاد أخيرًا. كم أتطلع لرؤية بداح .

ـ اهلين.. اركب بسرعة.

ـ كأنك تأخرت؟

ـ اعذرني والله. زحام الناصرية.. وين تحب نروح؟

ـ شوف الساعة الآن التاسعة، وش رأيك لو عزمتك في عزبتي بأم الحمام أنا تعشيت وخرمان شاهي أخضر.

ـ يعني تخلصنا من العشاء.. كنت أبعزمك.

استفتح حديثه عن سبب وجوده، متملصًا من سؤالي عن سر اختفائه تلك الليلة. فهو هنا مدرس في ابتدائية أهلية، فحصوله على شهادة البكالوريوس من كلية اللغة العربية وآدابها لا يمنحه الفرصة للعمل في المدارس الحكومية السعودية؛ لذلك هو يعمل في ابتدائية الصخرة الأهلية براتب متواضع. هذا اكتشاف، فأنا وهو متكافئان في الشهادة الجامعية، ويتميز عني بحفظه لمتون الكتب. تذهلني قدرته في تحديد جمل النقل بصفحاتها. وتمتعني أكثر لغته العربية النقية التي لا تشوبها شائبة من مخلفات اللغات الأخرى. مرقنا من بين أزقة أم الحمام المتعرجة، وعيني تلوب بين الثكنات بحثًا عن موقف آمن أدس فيه سيارتي لصق الجدار. . أمنت عليها ولحقت به، والجّا الباب الحديدي الصدئ، والعتمة تتكاثف وتغلظ. قدمي تتعثر بالسلالم المتثلمة، وقلبي يرتطم بالحيطان السود، من يسكن مثل هذه الثكنات برطوبتها التي تشرخ الرئتين؟ كنت أجاهد وأنا أشق طريقي في مدارج المجهول حتى بلج الضوء ساطعًا في عيني وتعبأت رئتاي بهواء السطح العليل. كان الضوء ينبعث من كل الاتجاهات مثل مسرح إغريقي. دلف صلاح إلى غرفته، وجلست متكئًا على مسند

ظهر مشجر بالأحمر.. اكتشفت روعة المتكأ المعد بعناية وأمامي إبريق نحاسي متين وضع في صينية كبيرة دائرية، صفت إلى جانبه خمس كؤوس صغيرة طعِّمت حوافها العليا بقطع نحاسية، وإلى جانب الصينية موقد صغير لأول مرة أرى مثله يشبه الكولة القديمة. جلست أتأمله في حالة استرخاء وسكينة سكبها المكان في قلبي. الهواء الناعم يداعب وجهي كلمسة أنامل عذراء خجول.

خرج صلاح متشحًا بثوب أزرق مطرز وواسع، أكمامه متهدلة من الجوانب كرواق خيمة، أقعى قريبًا من الموقد يشحذه بشعلة كبريت تتراقص على هفهفات الهواء وكأنه يراقصها بشغف. بت أرقبها وصلاح يرقد إبريق التسخين المعدني الكبير فوق اللهب. زحف إلى الوراء متكئًا على (المركاة) عن يميني، متحدثًا عن الشاي المغربي وطقوسه وطريقة صنعه، وأنا بصراحة لا يشغلني سوى حكاية اختفائه تلك الليلة، والزار وطقوسه فسألته مقاطعًا:

- بصراحة بدون لفّ ولا دوران وش قصتك ذيك الليلة؟

أطرق قليلًا ثم أجابني بتردد قائلًا:

تعلمت من السيد الذي كنت أعمل عنده أهمية كتم الأسرار جليلها وحقيرها، ولكن بعد ما حدث لي سأكشف لك أمري. أنت تعلم أن السيد طردني من العمل بطريقة مهينة، ولم يعطني أجرتي عن عمل ثلاثة أشهر؛ فقررت أخذ حقي منه بالحيلة، فعدت إليه أتصنع المودة وأعتذر إليه مقبلًا رأسه وكتفه ويده؛ فابتهجت أساريره وأنا أقول له: عصاك

اللي ما تعصاك. وفعلًا كنت ملتزمًا بحذافير هذه العبارة، ألهث خلفه كالكلب المطيع، حتى اطمأن إلي. أخذ مني ذلك قرابة الشهر، وعند مطلع الشهر الثاني كلفني بأمر، بأن أتولى حراسة البيت في غيابه، ولا أخبر عن مكانه الذي سيسافر إليه إلا المقربين إليه من أهله وخاصته، فسمعت وأطعت. بقيت في قصره مع بقية الخدم، وعند منتصف الليل رأيت أبواب القصر تفتح لسيارتين فارهتين: الأولى لأخيه الشاب ذي الثمانية عشر ربيعًا، والسيارة الثانية نزلت منها امرأتان الأولى أمه والثانية فتاة فارعة القامة منقوعة بالبياض، ينسدل شعر أسود كثيف على منكبيها، سرقت مني البصر والبصيرة. أمرتني المرأة أن أتدبر لهم عشاء، وأستعد للرحيل غدًا إلى ابنها السيد في جدة. نفذت أوامرها جذلًا طمعًا في رؤية الفتاة.. جئنا بالعشاء ووضعناه فوق الطاولة المديدة، والمرأة تكلم ابنها عبر الجوال. التصقت بين الجدارين الحائلين ما بين الصالة والمدخل أختلس السمع. لم أخرج حتى فهمت سر الفتاة. كانت تصفها للسيد، لم تترك منها شيئًا إلا وأخبرته به، ما فهمته أنها تعدها زوجة لابنها الشاب الذي صعد إلى غرفته ولم أره حتى حانت ساعة الرحيل، فلما استقروا في أماكنهم، الشاب المتغطرس في المرتبة الأمامية والأم مع الفتاة في المرتبة الخلفية من سيارة الروفر الفخمة. انطلقت بهم، وفي الطريق اتصل بي السيد آمرًا إياي أن آخذهم للعمرة ثم أنزل بهم إلى جدة، فامتثلت للأمر. كان الشاب المتغطرس لا ينفك متهكمًا بي، في كل مرة له مطلب وأمر. تكرر وقوفنا مرات لا تعد، ففهمت أنه بصدد الفتاة يحاول الإيقاع بها، وأمه تحاول أن تصرفه عنها بلطف، كل

وقوفنا فقط من أجل أن يتحرش بالفتاة، قريبًا من محطة تسهيلات توقفنا بطلب الأم لقضاء حاجتها فانفرد بالفتاة تحت نظري. اقتحم عليها السيارة وطالبني بالنزول، والفتاة تحاول صده، فلم أجد بدًّا من انتزاعه وإخراجه من السيارة، فركض واللعنات تنهمر من فمه ووجهه محتقن بالغضب. فتح شنطة السيارة الخلفية وأخرج بندقية صيد (شوزل) وأطلق النار نحوي فسمعت أزيز الرصاص واستشعرت سخونته تمرُّ فوق رأسي. وقبل أن يتنبه إليه العابرون ويراه المفزوعون الذين سحبوا عمال المحطة من انهماكهم، واراه خلف ظهره، وسريعًا دسّه في مكانه، رأى أمه تبرز من دورة المياه فاقترب مني مهددًا بالقتل لو فتحت فمي. سألته بريبة عن مصدر الصوت فالتزم الصمت، ركبت الأم وصدره يفح بالحنق، ومفاصلي لا تحملني، أصبحتُ عاجزًا عن مجرد الضغط على دواسة البنزين. اجتاحني رعب فككني. لم أستوعب ما حدث إلا توًا. فكرت بلحظات الموت المباغتة والنجاة غير المحسوبة، فقررت أن أنجو بنفسي من تعديات هذا الشاب المتغطرس. وصلنا قريبًا من الحرم فطلبت من العمة مبلغًا أصرف منه حتى وصولنا إلى جدة، فأخرجت رزمة نقود وناولتني إياها. حاول الشاب مصادرتها لولا أني تشبثت بها ولم أترك له الفرصة، بيد أن هذه فرصتي الانتقامية. أوقفت السيارة أمام مواقف النقل الجماعي ونزلت متذرعًا بشراء بعض المستلزمات، والشاب ينهرني ممانعًا فلم أعبأ به. تركتهم وركبت أقرب باص نقل جماعي متجهًا إلى الرياض، وأنا فوق أشواك من الخوف والجزع، لم يترطب حلقي حتى تحركت الحافلة، ألقيت عليهم نظرة احتقار

أخيرة، وأرخيت جسدي أعد رزمة النقود، «الحمد لله» كانت مجزية جدًا عن الأشهر التي عملت فيها مع السيد. ومن ذلك اليوم والسيد يرسل ورائي من يتتبعني ويقص أثري رجاء العثور علي. ولو أراد لتمكن مني وأحكم قبضته علي في أقل مدة ممكنة،لكنه فعل ذلك فقط ليزرع الثقة في قلوب العاملين لديه، فهم يناصبونه الكره بصمت، وبعضهم يعلم مستقري ومقامي. تلك الليلة التي اختفيت فيها عنك هربت، فقد رأيت أحد عبيده المخلصين، وخشيت أن يفطن لي، لذلك تسحبت الهوينى، وخرجت من الباب متلثمًا. وافيت شابين يستقلان سيارتهما فالتمست منهما توصيلي، فكانا في منتهى التهذيب والأخلاق. تعرفت عليهما. هذه قصتي.

كم هي مفزعة هذه الحادثة.. أشعرتني بصغارنا أمام هذه المدينة التي تقدم أبناءها كالعصافير على مائدة شواء شهية. سألته:

ـ طيب ليش مقفل جوالك؟

ـ سقط مني وتحطم ولم يكن معي ثمن جوال، كنا في آخر الشهر، فتريثت حتى يصرف الراتب..

ـ الحمد لله على سلامتك.. والآن أنت تحت طائلة التهديد.

ـ المهم، إذا غبت عنك احتمل الأسوأ.

ـ أجل خذ الحذر بأقصى ما تستطيع.. طيب ودي أسألك.. وش تعرف عن الزار؟

كان سؤالي مفاجئًا بالقدر الذي أفزعه. كادت عيناه تسقطان على الأرض وهو يردد:

- الزار.. قلت الزار والعياذ بالله.. وش جاب هالفكرة لك.. عسى ما شر؟

هذا الفزع الذي غصّت به محاجره أصابتني منه بردة نكست كل ما كنت أنوي البوح به. قلت في نفسي: طيب وش الفائدة منه؟ وليش أنا دورت عليه؟ فقررت النطق بما شتّت عقلي، وبدّد سكينتي، فانطلقت أقصّ عليه حكايتي، منذ ركبت بخيتة معي حتى لحظتنا هذه. تركني أهذي ولم يقاطعني حتى انتهيت، خلال حديثي جهز الشاي الأخضر وسكبه في الكؤوس الصغيرة عدة مرات، حتى ثخن لونه وطفا الزبد فوق الحواف، ارتشفتها بحذر. لسع لساني بمذاقه الممزوج بين الحلاوة الحادة والمرارة الحادة، لم أكد أميز بين المذاقين. كل ما كنت أرتجيه منه أن يصيخ السمع جيدًا ولا ينغمس في إعداد الشاي. أبتغي معرفة حقيقة الزار، فأنا أتحدث اليوم من واقع تجربة لم تصل للخبرة.

ما يؤلمني الآن هو هذا الإحساس البغيض مترافقًا بالشعور الذي يتدفق داخلي، شعور بالخفة كأنني أفرغت كل المآسي والأحزان التي كانت تنهش قلبي.. تمامًا مثل مذاق هذا الشاي الأخضر مر شديد المرارة وحلو شديد الحلاوة. هذه المقارنة انعقدت هذه اللحظة لا أدري كيف؟ أفكر الآن بمصارحة صلاح بما أنوي عليه. سأعترف له أنه أحد شخوص رواية أجهز لكتابتها ثم أقترح عليه أن يكون بطلها، لم لا؟ هل في ذلك من ضير.. فورًا طردت هذه الفكرة من رأسي، أنصت لما يقول، فهو يهدر منذ بضع دقائق، فهمت أنه يتحدث عن طقوس الزار في موريتانيا وكيف يحضر لها،

وبصراحة هذه المعلومات غير مفيدة في مثل حالتي.

انتهت حكايتي وبدأت أتلذذ بمذاق كأس الشاي الثاني. كأنه الإكسير الذي أعاد توازني قليلًا، وبفضله سأطلب منه مشاركتي في البحث عن حقيقة الزار. تركته يفسر لي حالتي قال: رأيت الزار وسمعت عنه أشياء كثيرة مثل: أكل الجمر المتلظي بحمرة قانية وإخراج البخور ودهن العود من الفم، وفي مناطق أخرى المشي على الزجاج وبلع المسامير ومضغ الزجاج، وإيلاج السيوف في الحلوق والبطون، وأشياء أخرى كثيرة محيرة، تستعصي على الفهم ناهيك عن التصديق، هل هو جن أم هو حالة روحانية خاصة؟ هذا عدا طبعًا ما قرأته آنفًا عن الزار من روايات وكتب دينية وفلسفية، وما شاهدته عبر القنوات الفضائية من واقع مزر وأليم للذين يمارسون هذه الطقوس. سكت وأخذ يرتشف بصوت مسموع كأس الشاي. هذه القفلة الكلامية فرصة لبتر أحاديثه عن الزار كي أطرح عليه فكرتي، قلت:

ـ أقول صلاح.. وش رأيك لو صرنا عمليين أكثر.؟

ـ كيف، وش تقصد بعمليين؟

ـ يعني نباشر البحث عن أسرار الزار ونخالط هؤلاء الناس.

ـ كتيبة تحرِ قصدك. والله فكرة حلوة ما عندي مانع بس كيف؟

ـ أنا أقولك؛ أعرفك على بخيتة.

ـ متى؟

- بكرا العصر ابوديها للمعيقلية، وقبل صلاة العشاء ابرجعها عشان الزواج .

- بس أخاف تشك في الموضوع.

- لا.. ما عليك خل الموضوع علي، العصر تروح معي وأعرفك عليها.

- على أي أساس؟ أنت معك سيارة تشيلهم. بس أنا وش اسوي؟

- شوف هي اليوم كانت تلمح لي بالتفرغ.. اوديهم لعروس وأرجعهم. فإذا فتحت الموضوع راح أبيّن لها أنك معي شريك.

- يالله شد حيلك، بس أنا عندي المدرسة في المساء.

- نرتبها ولا يهمك، المهم نشبك مع هالعالم.

كأن القدر يحيك لي أيامًا ثرية على مقاس روايتي. الحمد لله أني لم أكاشفه بأمر الرواية وإلا لاستراب بالأمر. أخيرًا ترمّمت روحي، والدوخة التي تملأ فجاج رأسي مع حالة الخفة التي كنت أستشعرها بدأت تتلاشى. عدت ثقيلًا على أديم الأرض بخطوات ثابتة وموزونة.

- يالله راسي ثقل.. النوم.. النوم أستأذنك.

- على فكرة، الشاي الأخضر بطريقتنا يصحي الرأس ويطرد النوم.

- لا يا رجل، ابروح قبل ما يصحو مع السلامة.

2

هذا اليوم يشبه الحلم، فمن بين دهاليز منفوحة ورقصة الزار إلى تلافيف أم الحمام؛ فوق سطح قربنا من النجوم. كان الهواء ناعمًا ورخيًّا، أخملنا وطيرنا كشراشف فوق حبال رهيفة.. كنت لا أزال واقعًا تحت تأثير رقصة الزار. تخيلتني طائرًا بلا أجنحة، التمست لنفسي عذرًا، فما حصل لي ليس بالأمر اليسير.. تمنيت لو تشبث بي صلاح وأبقاني أتقلب في كنف زورق الليل الساجي، سأتمدد وسطه هذا، وأتركني للحلم.

تستفزني ممرات السلالم الضيقة المعبأة بالظلمة الكالحة. أتلمس درجاته بمواطئ قدمي المتثاقلة، محاذرًا سقوطي المباغت. عند صعودي بدا لي الظلام شبحًا يراقصني، مسح الذعر من قلبي، كان لطيفًا، أعانني على اختراق سدفات المجهول. عاودني الرعب، وثقل طفق يسري بين أطرافي. همزتني وخزات ألم طفيفة ندّت من قفصي الصدري، فكلما استجمعت شجاعتي ساورني ذعر لا بل اجتاحني خوف مستطير لا أدري مصدره تحديدًا. . ولحظة وضعت قدمي على الدرجة الأولى ازداد اضطرابي، وجف حلقي، وتسارعت دقات قلبي بخفقان شتّت وهدتي. هل هي الفوبيا؟ أم أن الظلمة تفترش روحي منذ سقطت على تدفق

قرعات الطبول وكأنها تغرقني.. نعم هي كذلك هي الظلمة التي تعمي من حولنا الأشياء وتدخلنا عالم المجهول. الإغماءة التي أفقدتني الحياة بمثابة زمن لا يحسب من عمري؛ زمن بلا ملامح، شبيه تمامًا بهذه الظلمة، فكلاهما لا ينتظمان في خط حياتنا المرئية، منها النوم الذي بدأ يطوّق رأسي. بحثت عن جدار أتوكأ عليه فضغطت براحتي اليمنى على انحناءات دبقة اقشعر لها بدني فأعدتها، ضممتها إلى جيبي، وسواد الممر يتكاثف أمامي.. يغزوني، يمحو تقاسيم الأشياء من حولي، والقشعريرة لا تزال تهمز خلايا رأسي المنهكة؛ هبطت بتؤدة وحذر شديدين، وعند العتبة الأخيرة عاودتني تلك الخفة التي أحالتني كريشة تعابثها نسمات هواء ناعم لحد الرغبة الملحة بالجلوس داخل قمرة سيارتي، ومشاركة القطط عتمة الزقاق الموشى بخطوط ضوئية حادة وتسليم نفسي لملاك النوم الرحيم.

لم أكتشف أن للنوم ملاكًا، ذاك الذي يسمونه سلطان إلا هذه الليلة، النوم أمسى معي ملاكًا ممتعًا، خفيف الظل.. فقد كان رفيقًا بي وحليمًا. هل كنت فعلًا نائمًا وهو الذي ساقني إلى فراشي. وصلت إلى البيت، كيف؟ لا أدري. رائحة فراشي التي خامرت رئتي أعادتني إليَّ، ورحت معها في نوم بلا طعم ولا لون ولا رائحة. أفقت الساعة الثالثة ظهرًا. لا أذكر أنني حلمت. نمت واستيقظت، الزار فرّغني من كل الأحلام، ما كان يعتريني هو شك.. شك بكل أحداث الأمس. . قلت في نفسي: لعل الهاجس المسيطر بكتابة رواية حضَّر لي أرواحًا من عالم البرزخ، بلا رصيد واقعي، مثل هذه الأوهام تحدث كثيرًا.. احتجت إلى دش

بارد يزيل غبش النوم ويكنس معه بقايا الأحلام الكاذبة، لم يكن الدش باردًا كما كنت أحلم؛ بل كاويًا جعلني أعرك الصابون فوق جسدي سريعًا والماء ينهمر بلا رحمة ويلسعني بحرارته اللاهبة.. لم أطق الانتظار حتى يغسل فقاقيع الصابون العالقة؛ بل أغلقت رمانة الدش وخرجت أطوّق جسدي بمنشفة قطن ثقيلة، هربًا من فورة المياه الحارقة. هرولت إلى غرفتي الباردة هربًا من السخونة العالقة بجسدي، هذه السخونة ذكّرتني بعرقي المتصبب وحرارة مرتبة ونيتي.

عليَّ استكمال حلقات الحلم.. حلمي بكتابة رواية؛ لذا لن أتمهل أو أؤجل، فهناك من ينتظرني لاستكمال الرواية.. صلاح المدني ينتظرني عقب صلاة العصر قريبًا من جامع أم الحمام الكبير، وبخيتة تنتظرني أيضًا لنقلها بعتادها إلى المعيقلية، ستقدّم لي عرضها الموعود، ولكن ليس قبل أن أتناول شيئًا خفيفًا يسدّ فوهة جوعي، فلا أقل من خبزة (صامولي) مدهونة بجبنة البقرة الضاحكة، وكأس «شاهي» أعدّه سريعًا؛ فهذان أقصى ما يمكن حمله معي داخل الونيت.

الفصل العاشر

أكثر من لسان

1

وكما عرفتم آنفًا؛ صلاح لا يملّ الحديث، فعلى طول المسافة الفاصلة ما بين شمال الرياض وجنوبه يتحدث؛ مثيرًا رغباتي للاستزادة والإنصات إليه باحترافية عالية. أفهم أنه معبّأ بذخيرة كافية من الشريعة والأدب، لذلك وجدني فرصة سانحة لاستعراض مهاراته. أسمعني كثيرًا من الشعر، وأخبار الشعراء. . المسكين لا يعلم أنه ضحية؛ أقصد أنه شخصية ثرية لروايتي القادمة، أتوق لتدوين لحظة لقائه التاريخية ببخيتة؛ فهذان الساخنان بالكلام، سيتعارشان الحكايات، وسيسقطان ثمارًا صيفية رطبة وناضجة، سألتقطها وأعبئ بها سلال روايتي. اثنان استثنائيان، مختلفان، متفقان، متباينان، كيف؟ هذا ما ستكشفه الـ «متى» كل ما أعرفه عنهما الآن بعض الملامح، أهمها عندي الثرثرة. أكاد أجزم أحيانًا أن أذنيها مصابتان بالوقْر جرّاء قرع الطبول الدائم والأصوات العالية المتشنجة، بينما صلاح مرهف حتى لدبيب النمل وخفقات أجنحة الذباب؛ هذا الأخير الذي تعلم منه حكمة الصبر وحشر الأنفاس. بخيتة لا تنتمي لا إلى عالم الذباب ولا النمل ولا صفوة المثقفين أو المتعلمين ولم تمس كتابًا عقب تركها المدرسة، أنا متأكد من ذلك. (يعني) لذلك لن يكونا متوازيين؛ بل هما متقاطعان. ثمة عامل واحد قد يكون

الرابط المتين الذي سيجمع بينهما هو أنهما ينتميان إلى منطقة جغرافية واحدة قد تتحرك بوصلة دمائهما باتجاه جنوب الأرض، فصلاح يتحدث اللغات الأفريقية: الطارقية والفرنسية والعربية ويتقنها جميعًا قراءة وكتابة.. أما بخيتة فلم أسمعها قط تتحدث بلغة غير اللهجة المحلية المكتسبة.. في وقت سابق سمعت شبابًا من ذوي الأصول الأفريقية يشتغلون بمهنة غسيل السيارات في أحياء الشميسي والسويدي والبديعة يتحدثون لغة غريبة، مخلوطة بلهجة محلية مكسرة لا تفرق بين المؤنث والمذكر، المفرد والمثنى، سمعت أحدهم يقول لصديقه معاتبًا: (الله يلأنك فين رهتي) يعني الله يلعنك فين رحت. هذه اللكنة سمعتها كذلك من إحدى العجائز في بيت بخيتة، فلم تستنكرها أذناي.

2

كانت الساعة تقايضنا على الرابعة، والدائري الجنوبي بدأ يطفو برائحة عوادم السيارات ويغصّ بالشاحنات الكبيرة، والحبيب صلاح المدني يهطل عرقًا ينشفه بذيل شماغه ولا يأخذ نفسًا إلا مع عبارة ساخطة، يصطادها باحترافية، فهو سيد الاحترافيات، محترف لاصطياد المواقف الغريبة، ومحترف للقراءة والحفظ، ومحترف للحديث المتواصل، ويحترف الضغط على العبارات المهمة بين طيات أحاديثه، كمن يضع خطوطًا حمراء على أفكار الكتاب المهمة. يبدو أنها طريقة اكتسبها من القراءة أيضًا، فهو يكزّ على بعض الجمل، تلك التي كان يعلمها (بهاي لايت) فما دامت ملكة الحفظ لديه وصلت إلى أرقام الصفحات وهوامشها، فلا أقل من استحضار أهم ما تتضمنه الصفحة من أفكار، لذلك ينطقها بصوت ثقيل. تعجبني طريقته الممسرحة في الكلام، فيها فواصل ونقاط، وبدايات ونهايات، لم يقطع وتيرتها إلا ساعة دخلنا المضيق المنحدر لبيت بخيتة. من زعيق المنبه برزت بخيتة تتهادى نحونا كنجمة تلمع شيلتها المطرزة الحواف بخيوط وتر فضي. بحركة بهلوانية استعراضية ترجّل صلاح مسارعًا يحمل عنها ما أثقلها. اقتحامه المفاجئ لها أفزعها، لولا وقوع عينها علي بضحكة فانجلى الأمر. ركبت

المرتبة الخلفية وحدقتا عينيها لا تزالان مملوءتين بالاستغراب، ودهشة لا تبرحها لخفته ورشاقته وفزعته الجسورة. للمرة الأولى مذ عرفته يطبق الصمت على فمه وييبس لسانه، وكأنه أصيب بعطب أخرسه. تشاغلت في معالجة مضايق الأزقة للخروج منها سالمًا، دونما إحداث أي احتكاك بالسيارات الملصقة بالجدر حتى انتهيت سالكًا طريق البطحاء العام، وحالما أخذنا الطريق المؤدي للديرة اندمجا في أحاديث مدهونة باستلطاف.

تقاربا روحيًا بشكل مدهش، وكأنهما يعرفان بعضهما منذ عصور، كأن أواصر الدم تجارفت لتصبّ في نهر واحد. الحنين أول أماراتها. بشرة صلاح تميل للسمرة وشعره تقريبًا أجعد. وبخيتة سوداء وأحيانًا سمراء وشعرها أكرت. هذا التمازج الجزئي تذكرة أولى لدخول عالم بخيتة.

ما أذهلني من صلاح انتحاله السريع صفة الدرويش المغلوب على أمره، وببلادة مصطنعة صار يواكب أسئلتها بما يحقّق نزعة الاقتراب منها.. بدوت نشازًا بينهما، لا يسعفني ذهني المشوش بفهم كل ما يتجاذبانه، حتى انغمسا بلغة غريبة وكأنهما يتعمدان تعمية أحاديثهما عني، في لحظة دار في خلدي أنهما يتلاعبان بي، فكتمت أنفاسي حتى التفت نحوي صلاح قائلًا:

- تعرف إنها تتحدث لغة قريبة من السواحلية.

ضحكت بخيتة مزيحة غطاء وجهها، فلمعت أسنانها البيض وهي تقول:

ـ ما أحكيها كثيرًا.. ولا نستخدمها إلا مع العجائز، تكون أسهل لنا ولهن.

وصلنا قريبًا من المكان المحجوز لبسطة بخيتة، فتناول صلاح بأطراف أصابع قدمه حذاءه المبعثر، استعدادًا للخدمة، وقبل أن تتوقف السيارة نهائيًّا قالت بخيتة:

ـ لا تغيب خلينا نشوفك.

ضحك صلاح وهو يرخي شماغه فوق كتفه وقال:

ـ لا تخافي لن أغيب.

سألتها وهي تستعد للنزول عن الأمر الذي كانت تود أن تفضي به إليَّ، فقالت على عجل:

ـ شوف.. كنت أبقولك وش رايك تشتغل معنا، إحنا نحتاج لمثلك، ولا تخاف شف كم تطلع من السيارة يوميًّا ومالك إلا اللي يرضيك.

قلت:

ـ طيب ما دام هذا الموضوع خلينا نقعد شوي ونسولف.

كان صلاح قد انتهى من إنزال بضاعة بخيتة، وقف متسمرًا أمامها بانتظار نزولها كأميرة متوّجة. نزلت لتزيح الغطاء الشراعي الثقيل المثبت بالحجارة عن مصطبتها من طرف وصلاح من طرف، تركته لتقسم الأكياس على بسطاتها القريبة منها. جلست على الرصيف منتظرًا انتهاءهما، عاد صلاح بوجه تصبّب بالعرق، سألته وعيني على بخيتة القادمة نحونا حاملة علبتي بيبسي:

- هاه وش قلت؟

أجابني هامسًا:

- اعتمد

فتحت بخيتة علبة البيبسي لي وهي تقول:

- هاه وش قلت؟

كنت مزهوًّا بصاحبي صلاح الذي يعبّ المشروب بنفس واحد، قلت وأنا أنظر إليه:

- وش تبين بي وعندك هالمكحول طير شلوى؟

التفتت نحو صلاح وكأنها تتنبه للتو وقالت:

- كيف فاتني، بس هو معه سيارة؟

- لا ما معه سيارة، نشتغل كلنا معك أنت تقولين عندك أكثر من فرقة.

- أنا عندي أربع فرق، والفرقة الخامسة أبشرك تجهز.

- والشباب (سأل صلاح)

التفتت نحوه وكأنه قد لمس قضية حساسة قائلة:

- الشباب موزعون بين قهوجية وفرق سامري، والصغار معنا وبعضهم مع معازيبهم، وكلهم يحصلون خيرًا.

قلت لها بشيء من الأريحية:

- شوفي معناته الشغل يسعنا كلنا، سنتناوب السيارة.

- طيب يعني بدأنا من اليوم، هالحين واحد منكم يطلع

لهذا العنوان (استخرجت بطاقة من حقيبتها وأخذتها منها) ويروح يأخذ الكوافيرات لقصر البستان للأفراح، وعقبها يمرّ على القهوجيات ويوديهن، ويرجع لي هنا.

قلت:

ـ خلاص، أنا أروح وصلاح يقعد حتى أرجع

كأنها التفتت إلى أمر كادت تنساه فقالت:

ـ صلاح يروح يجيب لي البضاعة من السوق، بس يقولهم من طرف بخيتة.

التقطت سيارتي ومضيت أنفّذ أوامر المعزبة بخيتة مخلفًا صلاح بين يديها، متجولًا بين بسطاتها الأخرى.

كل مشوار بمثابة اكتشاف، انقطعت خلالها عن عالم الرجال إلى عالم النساء. النساء اللاتي كنت أعسُّ الطرقات بعين ثاقبة لاصطيادهن، انفرطت وجوههن أمامي حدّ الملل والزهد طقاقات من كل شكل ولون، بالقدر الذي يتعسر علي فهمه، ناهيك عن شرحه. ألتقطهن من أماكن مختلفة، ثم أعيدهن في ساعات معلومة، ثلاث فتيات رشيقات ذوات بشرة بيضاء كسرن اعتيادية التوصيل اليومي، إحداهن اختارت الجلوس وسط المرتبة الخلفية. لتحسر غطاءها عن وجهها بخبث وأريحية، فشعّ بجمال تخفف من المساحيق، تفحصتها عبر مرآتي العاكسة، حتى كدت أفقد سيطرتي على مقود السيارة، ارتطمت بحاوية زبالة كبيرة، فأزت حلوقهن بضحكات شامتة، وقبل أن يتوارين قدمن اعتذرًا مشتركًا لطيفًا حيّرني كثيرًا، وقلب موازيني. واربت أسئلتي حتى

ألتقي ببخيتة، لن يروي عطش أسئلتي سواها، فلديها مفاتيح أسرارهن المنغلقة، تحيّنت فرصة الاختلاء بها ناثرًا أمامها لهفة سؤالي عن هوية الفتيات لتفرقع ضاحكة وهي تقول:

- شوف أنت صرت منا وعلينا وأبقولك.. هالبنات مستورات الحال بنات حمايل. بعضهن على فكرة متعلمات وعندهن شهادات، بس مثل ما تعرفون الحياة صعبة، أول ما جوا لي على أساس تشتغل وحدة منهن؛ لأن صوتها حلو بس في النهاية يوم شافن الرزق اشتغلن كلهن طقاقات.

- وما ينكشفن؟ سألتها.

- من يكشفهن وهن مبرقعات. وعلى فكرة: فيه غيرهن نجيبهن للرقص عشان يرقصن ويشجعن البنات على الرقص.

- كم يطلع لهن من الليلة.. سألت؟

- يطلع لهن رزق ما شاء الله، يمكن يطلع للواحدة منهن بالليلة على الأقل ألف ريال

- واااااااو بالليلة ألف ريال..؟!

- لا وأحيانًا أكثر..

- وأنت وش تستفيدين؟

- أنا آخذ عليهن على الليلة نسبة، فمثل ما تشوف حنا اللي ننظم ونرتب ونتفق. وهالجوالات شغالة.

أطرقت مشدوهًا مما أسمع، شيء لا أصدقه، ربما تبالغ.

كل واحدة ألف ريال، يعني بالشهر إذا قلنا إنهن اشتغلن عشرين يومًا فسيحصلن تقريبًا عشرين ألف ريال.

طيب، وبخيتة والطقاقات من الدرجة الأولى «كم يطلع لهن» لنقل ألفي ريال يعني أربعين ألف ريال، ولا راتب وزير يا شيخ. يا الله شغلتهن وإلا شغلة موظف (يملطش) عز الله لقيت العز وأنا ذابح روحي كديد ونيت، أقول: هذولا عمومتنا خل عنك. من اليوم ورايح ما أسميها إلا العمة بخيتة.

3

لم يساوم صلاح الطقاقة بخيتة، كما لم يقدم عريضة اشتراطات، بل انطلق بكل ما أوتي من قوة في صميم العمل الجماعي، في الوقت الذي ينتابني فيه الخور والملل؛ اتقد شعلة نشاط مثل النار المتلظية بجمر يزداد أوارها كلما حمي وطيس العمل.. ينطلق بسيارتي منذ الفجر الأول معلقًا مقولته المعتادة فوق لسانة مثل حكمة تعلمها باكرًا (بورك لأمتي في بكورها) لذلك ينجز أعماله قبل حلول الساعة التاسعة. آهه نسيت إخباركم أن ظروف العمل مع بخيتة وفرقها الخمس اضطرتنا لاستئجار الملحق العلوي من عمارتها، أي فوق السطوح، لنبيت قريبين جدًّا من مسمعها، تلتقط خطوات أقدامنا.

شهر واحد كافٍ ليتجلى لنا المشهد كاملًا بكل التفاصيل الدقيقة. غدونا جزءًا من نسيجهم، تعرفنا على نسائهم ورجالهم الجادين جدًّا في تحمل أعباء الحياة المرهقة، بعضهم يتوارى عن الأعين أيامًا وربما شهورًا. يتوجها بعودة مظفرة، بما سلخه من معزبه. بعض الشباب انغمسوا في نعيم المعزب أو العم، تغضرت بشراتهم، لا يلبسون إلا الأثواب الناعمة، يزدهون بالسيارات الفارهة، يستبدلونها من (كراج) سيارات المعزب كما يستبدلون

الأحذية. المهم أننا أصبحنا ضمن نسيج كامل بألوان ساخنة ودماء متدفقة، حتى صلاح صار يتقافز بينهم برشاقته المعتادة، لم أعد أفرق بينه وبينهم، تلونت سحنة وجهه وتقاسيمه بألوانهم. بشرته الداكنة قليلًا من درجة لونية تقاربهم، لذلك أضحى أثيرًا عند بخيتة ومحبوبًا جدًّا عند طفلتها الصغيرة التي التمست فيه رائحة الأب المفقودة. ما إن يرى الطفلة تقتحم حلبة الرقص أثناء التمارين، حتى يقفز جذلًا يراقصها، صلاح لا يجد غضاضة في مشاركتهم الرقص، لحظة تشير له إحداهن بدلال وغنج بريء وفيما بعد صنف بينهم راقصًا بدرجة امتياز، ينساب جسده يتلوى على تنغيمات أوتار حلوقهم الصوتية، ويرتعش لهزة (الطار) وخفقة الطبل. ثمل ذات مرة بمقطوعات (شهد) بصوتها النقي وهي تغني:

أنا إنسان مع نفسي قبل لا أكون معاك إنسان
لي مبدأ ولي نظرة وتحكمني قناعتي
أحاسيسي حقيقة ثابتة في الوصل والهجران
أنا طبعي إذا حبيت أحب بكل حالاتي
ولا أجامل بأحاسيسي ولا أقبل في الهوى أحزان
ولا للمصلحة يا سيدي دور بعلاقاتي

تمايل معه بما يشبه الدوخان، ليس منه سوى عينين منطفئتين، لا يكاد يرى منهما سوى بصيص بياضهما. دخلت إليه بخيتة وسط حلبة الرقص، سحبت يده تشدّها بقبضة لافتة، فصاراً يوزنان توقيع خطواتهما على إيقاع الأغنية، طوّحا برأسيهما باتجاههما وتقاربا لحدّ الاحتضان، كانت تطوق خصره الناحل بذراعها، لم يتنبها لانتهاء المقطوعة،

حتى دوَّى صفير البنات والشباب مصاحبًا بالتصفيق، كان جسداهما منهكين فانضويا إلى زاوية من الصالة الواسعة، وجلسا ينشفان عرقهما. كنت أتابع المشهد وأدوّنه في رأسي بحذافيره. أحاول التقاط ما يتفوهان به. هذان المنشطران عن كوكبة الجماعة ينغمسان في أحاديث هامسة، لابد أنهما يدبران أمرًا ما، وحتى لا أقطع وتيرة أحاديثهما اقتربت لمستوى السمع متكئًا على العمود القريب جدًا منهما، أعطيتهما ظهري وأذناي تمتدان نحوهما. كان صلاح يتغزل برشاقتها وجسدها المفتول، وهي تجاذبه بصوتها المختلط ببحة لذيذة لعبة الغزل، تعترف له بجملة من المشاعر، وهي تمعن النظر إليه بعينين ذاويتين وشفتين ممتلئتين رغبة، ثم شرع يسألها عما ينغص عليها حياتها لتعترف له بأن ما يتعب تفكيرها ابنتها الصغيرة التي لا تعرف مصيرها، فهي ستسأل عن أبيها ذات يوم، فماذا ستجيبها، كيف ستبرر تطابق اسميهما. قالت أنا لا أريدها أن تتعرض للأذى النفسي، أخشى ما أخشاه أن تكتشف بطريق ما، السر الذي أخفيته عنها ويعرفه البعض، فكما تعرف الناس هنا لا يخبئون شيئًا، فألسنتهم نوافذ تطل منها قلوبهم.

هذا البوح المأزوم أعاد إليه أوجاعه. رأيته يعصر جبينه ويحبس دمعة تطل على مشارف عينيه، تتلمس طريقها للسقوط. أعرف ما يتوارى خلف هاتين العينين المتجهمتين، هي القضية الأزلية لا غير «الهوية» الهم المقيم الذي ما فتئ يردمه بكل ما أوتي من قوة بالمشاغل أو التشاغل. بخيتة مترعة بهمّ البنت الصغيرة بلا أب، المنسوبة إلى جدها، وهو لا يزال يتجرع هم الكفيل وكأنه نسب إليه منذ طفولته،

تنحيت بعيدًا.. تركتهما ينبشان أوصابهما المدفونة، ويتقاربان حدّ الالتصاق وكأنهما يتحضبان نارًا متقدة دفعًا للبرد المتشبث بعظامهما. التقطت يده تفركها بأصابعها وهي تسأله:

- إلى متى سيبقى الحال على ما هو عليه؟

وهو يجيب بغصة وعين متأوهة:

- حتى الموت.

ثم تسأله وكأنها ترنو للوصول إلى نقطة معينة.

- ألم تحاول؟

ويجيبها متحفزًا كي ينفي عن نفسه الخمول:

- بلى حاولت، وأوراقي منذ أكثر من عشر سنوات في مراحلها الأخيرة. يقولون في عنق الزجاجة، ولا أدري أي زجاجة تحتمل هذه المعاملة المكدسة بالأوراق!

أطرقت بخيتة وكأنها تفتش عن شيء ما مفقود، ثم اقتربت إليه ملصقة ركبتيها بركبتيه تقول:

- اسمعني ما فيه حلّ إلا عند واحد، أقدر أصل له. بس أنت هات رقم المعاملة وإن شاء الله خير.

فجأة أشرقت أسارير صلاح وعادت الدماء إلى وجهه المخطوف، هزّ يدها بفرحة كلّلها بسؤال يؤكد تفاؤله قائلًا:

- وهل تستطيعين؟

أومأت برأسها تقول بشفتين ضاحكتين:

- إن شاء الله، بس الموضوع يحتاج لوقت حتى نصيد الفرصة المناسبة، وأنت تعرف الفرص المناسبة ما تحصل إلا

بالأفراح والليالي الملاح. نهضا يشبكان بين أصابعهما، تاركين ترنيمة الضحك وخيوط الأمل تراوغ وشوشاتهما المنثورة على خطوات أقدامهما، وهما يصعدان السلالم الخلفية تجاه الدور العلوي لاستكمال اللذة.

كيف يمكن توصيف ما وقع في مخيلتي، لن آخذهما بالشبهة، لعل الدور العلوي أيضًا يحتشد بالناس فلا يختليان بنفسيهما. يعزّز ثقتي بصلاح قربه من الله ومحافظته على الصلاة في أوقاتها حتى مع انغماسنا في متطلبات بخيتة وفرقها في مثل هذه الأيام الصيفية المزدحمة بالأعراس، فيجبرنا أحيانًا على الوقوف بمحاذاة رصيف في الدائري ليؤدي فرض الصلاة بين ضجيج السيارات وعوادم المحركات الثقيلة.

لن آخذهما بالظنة حتى يبدو منهما ما يتحدث عن نفسه مباشرة، انسحبت صاعدًا إلى فضائنا المفرغ من بقية هذه الليلة سأفتقد صلاحًا، وشايَهُ الأخضر، وأنامل الهواء الناعم، لم أمكث طويلا متمددًا على السطح، ارتشفت أنفاسًا من هواء معتق، واستلقيت فوق فراشي أقلّب القنوات العربية المغرقة بالمسلسلات وأخبار القتل والدم والأوبئة والأغاني من كل شكل ولون، كلها لم تنجح في طرد هواجسي. سحبت قلمي الرصاص من بين دفتي كتاب أضعه كعلامة وقف على الصفحة التي انتهيت عندها في القراءة، وأرسم خطوطًا على أهم ما مرّ بي، وأدوّن ملحوظاتي. في هذه الساعة المحمومة بالانتظار واللهفة للغائب المنتظر قلت: لن يردم الهوة إلا الكتابة، طبعًا سأكتب مشاهدات

اليوم جديرة بالتدوين. أعلم أنها بدون الحدث الأخير الأهم ستبدو ناقصة، فَلأُجَهِّزْ ريثما يأتي صلاح، وأعرف منه سرّه مع بخيتة، لا أريد استعجال التخمين، وأكتب لكم ما ليس له رصيد واقعي، فكما عاهدتكم منذ البداية، سأكون أمينًا مع الواقع وناقلًا للحقيقة كما هي.

جلست أقلّب شخصياتي في رأسي. كان ضوء القمر الصافي ينسكب مثل شلال وسط السطح. في منتصف الشهر أتحرى استدارة القمر كاملة. أطفئ كل الأضواء عدا (لمبة) صغيرة معلقة بقضيب يشبه المشجب، تضيء المساحة الكافية للقراءة، وعيناي تتقاسمان الكون، عين على صفحة الكتاب وأخرى تنعم بفيض الضوء الشفاف الصافي الذي لا ظلال له. تناهت إلى أذني خرفشات خلتها تصدر من القطة التي تلاحق الحشرات الصغيرة فوق الجدار، ولا تهدأ حتى تملأ معدتها وتنطرح تتقلب بفتور فوق السطح الإسمنتي البارد. بدا وقع الخطوات يتكاثف في مسمعي ثقيلًا. أبصرت ظل يدين تزيحان مصراع الباب للدخول ببطء، ونصف وجه يلمع بانعكاس الضوء الخافت، انتظرته يقترب بطريقته المعهودة ويضيء كل الأنوار ويبدأ في تحضير عدة الشاي الأخضر جالسًا، وهو يثرثر كعادته. شيء من هذا لم يحدث، بل حمل جسده التالف وألقى به على الفراش مطوّقًا وجهه بذراعه وكأنه يواريه من ندبة مستجدة تثير الاستهجان أو التقزز. لم يحرر ذراعه من فوق وجهه متصنِّعًا النوم، تركته إلى نفسه. ألقيت بالأوراق جانبًا، وسحبت رواية كنت قد أجلتها لوقت غير معلوم. لا أدري لماذا أنتقيها بعينها في هذا الوقت بالذات؟ تدرون ما هي؟ رواية رفيقة القاهرة رباب.

الفصل الحادي عشر

تجربة زار

1

تهدر الطبول فتتساقط الأجساد الموغلة بالرقص. أرى بعضهم يتفاعل مع الخبيتيات وآخرين مع السامريات.. الشباب تهزّهم الخبيتيات لخفتها. ذات مساء هدرت الطبول، وتعرقت الأيدي وغنت تفانين، أردفتها بخيتة بأصوات متماوجة تتعالى كألسنة اللهب:

أنا جاي من بعيد يا سادتي من بلادي
امشي دروب طويلة والخاتم أحمر يماني
ما دريت ما دريت إن المحبة تبتلي
لترك أمي وابويا وابني عشيشه لحالي

تخطفت الأقدام حلبة الرقص بلا هوادة، ورقصوا. سقطت إحداهن وتبعتها الأخرى، ثم قفز شاب كان يقف بعيدًا يضرب الأرض بقدمه، رافعًا رأسه إلى الأعلى لا يرى من عينه إلا بياضها. حملت إحداهن المبخرة الثائرة بالأدخنة، ودورتها بينهم، حتى عادت إليهم الحياة يدفعون أجسادهم إلى الوراء برقصة الحبارى. توقف الشوط الأول. وعاد كل شيء إلى طبيعته دون أن يسأل أحدهم ماذا حدث.. ابتدرت تفانين الجولة الثانية بسامرية، ثقيلة الرتم بصوت يتكسر حسرة ووجعًا:

ياونتي ونت يتيم يحسدونه
شاف الجفا عقب المحبين والعي
تولته العمات شينات الاطباعي
يا ناصر انشد عن أهله هم يبيعونه

اهتزت الأيدي بحركات وئيدة ومعها الرؤوس ثم الأكتاف، نهض آخرون غير الأول. . ما لاحظته أنهم أكبر سنًّا من راقصي الخبيتي، تمايلوا إلى أن هوى اثنان منهم غائبي الوعي. حملت لهم المبخرة فأفاقوا ببطء شديد. هذه الملحوظات سألت عنها أحد الفتيان الضاربين على الآلات الحديثة، فزوّدني بمعلومات غريبة منها:

إن ثمة خبيتيات وسامريات مخصوصة للجن اليماني وأخرى للمغربي، لذلك إذا غنيت اليمانية يسقط اليمنيون زارًا دونما إدراك. ولا يعرف الزار ذكرًا أو أنثى صغيرًا أو كبيرًا، فكلهم متساوون إلا فيما يخصّ به بعضهم دون بعض، لذلك فإن للزار حالات بحسب أنواعهم مع المزارين؛ منهم الملوك الذين يجلونهم، ينثرون من أفواههم الغالي والنفيس من دهن العود، ومنهم الشيوخ الذين يعينونهم على نفث أطيب أنوع البخور، ومنهم الأقوياء الذين يأكلون الجمر، ومنهم الخدام العابثون الذين يشربون الماء أو الشاي الحار، ويعرف المزار من حالته المتكسرة، رقصاته المترنحة والعنيفة، وقد يتحدث إلى الناس ويناقشهم ويريهم العجائب والمعجزات دون وعي منه، كأن يحشو فمه بالجمر، وقد يؤذي الساخر منه بأن يصيبه بانقباض. أو أن يحبس لسانه فلا يقدر على النطق، وهو ما رأيته بعيني حينما ذهبنا ذات يوم إلى بيت عتيق مهدم في هجرة تسمى (الدهو)، تبعد عن

الرياض قرابة الخمسين كيلًا جنوبًا يعرفها كثير منهم، ولا يذهب إليها سوى الأقوياء، وبعناد وافقت على اصطحابهم، وهناك رأيت العجب، كيف يتكاثر الحمام فوقنا بصفقة من يدي أحدهم، وكيف يتحول الجبل إلى كتلة من ذهب ثم كتلة من نار وأشياء كثيرة أعجز عن وصفها. فإن قلت إنني توصلت إلى نتيجة منطقية فسأكون كاذبًا، فكل ما رأيته كان عصيًّا عن الفهم، ولا يدخل في حيّز العقل والمنطق، هذه والفجوة تتسع، بيد أن ما يحيرني جدًّا أن الزار يكاد يكون قريبًا جدًّا مع ذوي البشرة السمراء، اخترقت هذا الحاجز الضبابي مرتين ولجت متاهة غريبة لا أستطيع وصفها، ثم تعلمت كيف أربط جأشي متشاغلًا بأي شيء، كأن أتفحص شخوص روايتي، فلا أستشعر سوى هزة طفيفة بين أوصالي لا تستجيب لها عظامي الراسخة. حاولت تتبع السبب فلم أعثر على نتيجة محددة، هل هو يعود إلى الدماء الحارة أم الجينات المتوارثة، أو العقل الباطن الممتد من عصور سحيقة؟ لا أدري.

ثمة حالات زارية غير كاملة، يزار الشخص في مكانه ولا ينتبه له أحد، اكتشفت ذلك من شاب كان يجاورني الوقوف.. سألته عن نوع الأغنية المغناة فلم يجبني، ظننته في البدء أصمَّ، هززت كفي أمامه، دفعته بيدي فلم يستجب، كانت مداركه غائبة تمامًا.

2

استيقظت كعادتي عند الظهيرة بقوى فاترة وعظام موجوعة، لا أدري ماذا أصابني. كان جسدي يرتعش من البرد، وفي حلقي حشرجة غريبة، وأنفاسي ألتقطها من قاع صدري بعسر كمن يلتقط صغار الأسماك من قاع بركة راكدة.

كان المكيف مسلطًا فوق رأسي وأنا مضطجع في مكاني أقرأ الكتاب. غافلني النوم دونما وعي مني. غطست في سبات عميق لم أفق منه حتى استحكم البرد مني. تناولت حبتي بندول. أغلقت جهاز التكييف، ونقعت رأسي بماء فاتر، ثم صنعت لي قهوة تركية سوداء. كان صلاح قد سبقني وخرج. جلست أنتظر عودته للنظر فيما سنأكله على الغداء، مع أني لا أزال مسكونًا بحكايته مع بخيتة.

مضت الساعات سراعًا، انتهيت من قراءة رواية رباب بصعوبة، كانت عتمة الليل الأول تخيّم على الكون، وصلاح مختف، وجواله مغلق، لم يكلف نفسه عناء اتصال سريع يريحني من القلق الذي بدأ ينهش رأسي. ما ضاعف من احتمالات السوء والذعر هو اتصالات بخيتة المتكررة. نزلت أسأل من في الطابق الأسفل، وكل من أقابله لا يفيدني بشيء، وصلت بخيتة المتقدة بالمخاوف، وليس على لسانها سوى صلاح. أين صلاح، متى خرج صلاح؟ لماذا لم يعد

حتى الآن؟ كانت تنكت بأسئلتها مخاوفي أيضًا، فليس من عاداته أن يأخذ الونيت ويغيب كل هذا الوقت، حتمًا الأمر لا يخلو من مصيبة. عدت إلى غرفتي أقلّب جوالي وأبحث بين الاتصالات الفائتة، فلم يكن له أثر. قبيل الفجر جربت الاتصال بيأس أخير، فاهتز الجوال بيدي مترنحًا من الفرحة وأنا أسمع الرنين، وأخيرًا أجاب. كان صوته واهنًا لا أكاد أسمعه إلا بشق الأنفس. كل ما فهمته أنه في غرفة تنويم في مستشفى الشميسي. أغلقت الخط سريعًا وأسدلت ملابسي فوق جسدي الموجوع، وخرجت أقفز السلالم وفي رأسي تحوم ألف صورة، ليس منها واحدة مريحة، وقبل أن أدلق جسدي من عقب باب العمارة خرجت بخيتة في أثري تسألني. قلت باقتضاب:

- الله يستر.

- وش فيه صلاح.

رجعت سريعًا إلى البيت تلتقط عباءتها وتعود مرة ثانية تلاحقني إلى الطريق العام للبحث عن ليموزين، ركبنا الليموزين وهي لا تتوقف عن السؤال، حتى وصلنا إلى المستشفى. كانت الممرات تعجّ بالناس. سألت الكاونتر سريعًا عن صلاح المدني فأرشدني إلى أنه في الدور الثالث قسم العظام. هرولنا إليه بأنفاس مكبوتة، حتى تناهينا إلى الغرفة، بحثنا عنه بين المتمددين من المصابين فوق الأسرّة البيضاء؛ فوقعت عليه أبصارنا اللاهثة مستلقيًا على ظهره فوق سرير أقصى اليمين بأنين متواصل. لا أثر لكسور أو جبائر عدا خدوش بسيطة على وجهه من الزجاج المتطاير. تحدث

إلينا بصعوبة، أخبرنا بما يستطيع عن الحادث الذي وقع له؛ حادث اصطدام، قال:

- يعني الونيت (يخلف الله عليه).

- يالله، المهم سلامتك.

كانت بخيتة تطوف من حوله كحمامة شركسية، لا تكف عن السؤال، وكأنها لا تجيد غير الأسئلة، باختصار أخبرنا أنه بعد نزوله من جسر العصارات، حاول تلافي أحد المارة عابر الطريق، فارتطمت السيارة بشبك الرصيف المتوسط، المقام حائلًا دون المارة الذين يعرضون أنفسهم للهلاك بقطع هذا الطريق المزدحم بالسيارات. السيارة طبعًا انتهت صلاحيتها وهذا لا يهم؛ المهم أني صاحب السيارة وسأتورط بمخالفة ربما تزجّ بي في السجن. كان صلاح يحرك قدمه اليمنى بتثاقل وهو يئن، كأنه يريد تنبيهنا لشيء لم نفطن إليه فأحنيت رأسي نحو الأسفل ملقيًا نظرة سريعة لما يشير. وإذا بها مقيدة برجل السرير، منعًا له من الهرب، هذا يعني أن ثمة مساءلة قانونية ستلحق بنا. وحتمًا سندفع تعويضات على العطب الذي ألحق بحديد البلدية، وربما سنساق إلى السجن على المخالفة. ألقيت بنظرة حائرة إلى بخيتة فهمتها، فراحت على عجل تجري بعض الاتصالات، لتعود بوجه ينضح بالأمل، تقول:

- بكرا إن شاء الله يطلعونه.

جلست إلى جانبه بحميمية مريبة تحيطه بعنايتها، تمسح عن وجهه آثار الجروح وعن رأسه بقايا كسر الزجاج، فخرجت أجرجر قدمي بين الممرات. رأيت أحدهم يحاول

تحريك كرسيه المتحرك تجاه غرفة تنويمه فلا يقوى.. اقتربت منه، ودون أن أسأله سحبت الكرسي المتحرك أعينه وأدفعه إلى الأمام حتى أوقفته موازيًا لسريره. سألته ما إذا كان باستطاعته رفع جسده إلى السرير أو أساعده؛ قال وهو يلهج بالشكر والدعاء:

ـ لا.. شكرا الله يعافيك أستطيع.

لفتني صوت شيخ يئن متضورًا من آلام مبرحة، هذا الصوت أعرفه جيدًا. تتبعت مصدره فكان خلف الستارة المسدلة دونه، أزحتها قليلًا بما يسمح لي ببصيص رؤية، فكان هو ذاته من أبحث عنه، يا للقدر: هذا هو أقسم بالله هو بداح، يئن بشيء من الهذيان. اقتربت منه وسحبت الكرسي المسند على الجدار وجلست قبالته أغشاه بنظراتي للتأكد. فلم أبلغ مرادي لولا هذيانه المتواصل بأسماء أعرفها، سمعتها منه سابقًا وأخرى جديدة أسمعها منه للمرة الأولى. كان يردد (وطفا.. شنيشل.. (سِيسْران) وكلمات أخرى لم أفهمها. عدت إلى الرجل الذي دفعت عربته قبل قليل أسأله عنه فاخبرني دونما استطراد قائلًا:

ـ منذ أن أتي به من غرفة العمليات وهو يهذي.

ـ أي نوع من العمليات؟سألته.

كان رأسه معصوبًا بلفافة ثقيلة. إذن العملية كانت في رأسه. تركته بأنينه أحمل مصابي في أهم شخصيتين روائيتين ثرتين. يا لهذه الرزية؛ فأي لعنة تحيق بي عبر شخصياتي. خرجت أعبر الممر هاذيًا بما يعتلج به رأسي من أوراق مختلطة، ولساني يلهج طالبًا من الله العافية والسلامة لهما.

3

بتّ قريبًا منهما، وبصعوبة انتزعت بخيتة من بين يدي صلاح وهي تبكيه بحرقة. اقتدتها ناشجة. أسكنتها قعر أقرب ليموزين رابض بمحاذاة رصيف بوابة الزيارة. عدت إلى صاحبي المتضور من وجع أضلاعه، ارتطام قفصه الصدري بمقود السيارة حطم له ضلعين، جلست إلى جواره أسري عنه، وأحرك ذاكرته بما يشغله قليلًا عن استشعار الألم. يخرج صوتًا يشبه صفير صراصير الليل. لم يأت من يستحثني لإخلاء المكان. تجلّى عالم المرضى والممرضين الذين يذرعون الممرات وغرف التنويم؛ الممرضات لا تكف حلوقهن عن الثرثرة والضحك. يا له من جبار هذا المستشفى العتيد الواقع وسط مدينة الرياض لم تدرسه السنين أو يعفو عليه الدهر، ظل جاثمًا في مكانه لم يتزحزح، لم يعثُ به الدمار الوحشي الذي لحق بالرياض. ثمة سر لا يعرفه سوى قاطني هذه المدينة. فهم الذين حقنوه بدماء الحياة، فذاكرتهم الجسدية تنكت ندوبًا على جدرانه، معلّقة كتمائم، بدونه لا تُعّد الرياض مدينتهم، فهو حبلهم السري الموصول ما بين الموت والحياة، ما بين الرحم ومقبرتي العود والنسيم. يا لهذه الذاكرة المشبعة بالألفة والجزع، والانتظار والبكاء.. حتى رائحة الدهانات الرخيصة المختمرة برائحة المحاليل

والعقاقير لم يمحها الزمان. الذين أبقوه يئن تحت طائلة الشيخوخة سحلوا من رؤوسهم الماضي. تركوه للمهملين من البشر كسلة نفايات، الناجي منه مولود والداخل مفقود. تورم بكل أنواع حالات الطوارئ المنهمرة إليه من كل حدب وصوب. حوادث طرقات قاتلة، وأمراض مزمنة. هذا المستشفى أحالني إلى تلك الإحصاءات المعلقة بين متفرعات الطرق السريعة التي قدرت في مدينة الرياض وحدها بما يزيد على خمسين ألف حادث مروري سنويًا، تكلف خمسين مليار ريال، أي ما يعادل نحو 7,4% من الناتج المحلي.

نسبة موحشة جعلتنا نتبوأ مركزًا متقدمًا في نسبة الحوادث عالميًا.. في هذا المستشفى تمنح تذكرتين، الأولى للحياة والثانية للموت. بقبول تام وتسليم مطلق، هذا مريح جدًّا ومريع أيضًا. العاملون هنا فوق الشبهات والمساءلة، فهو الحقل المثالي للتعلم على الضحايا الأبرياء، من يتخرج منه يكون تكدس بالتجارب ولو كان حمارًا. أخال كل العاملين أساتذة استثنائيين بمهنة الطبابة، ولا أخص من الجراحة، التي تتمّ بلا تردد. هنا لا يمكن أن تحدث أخطاء طبية؛ لأنها لا تكتشف بفعل التراكم الكمي للأجساد الواردة؛ بغض النظر عن الأرواح أو حتى الأسماء. الشكايات هنا قليلة جدًا، وثلاجة الموتى تغصّ بالأبرياء. زحمتني هذه الذاكرة بذعر مستطير على صاحبي صلاح، والشيخ بداح معصوب الرأس. كم أتوسل إلى الله أن ينتشله من هذا المضيق. تلك الليلة أطلعتني على وجوه الموت المختلفة. التقطت نعلي ومشيت أتجوّل بين الممرات.. رأيت المحتضرين بأعينهم الزائغة. التقيت بطبيب منهك،

واقفًا أمام كاونتر الاستقبال، ناولته كأس شاي كنت أحضرته لصلاح، التقطه بعفوية مع ابتسامة شكر منهكة. قلت له: أعانكم الله. هزّ رأسه بشيء من الزهق وهو يردد: يا رب.. يا رب.

خلته وهو منكب على ملفات المرضى يبكي. الممرضون والممرضات يتعابثون بنكات سمجة. لم أكن أحب إطالة الحديث مع الأطباء إلا هذه المرة، حيث بادرني الطبيب المستجد بالفضفضة المجانية، وكأنه مرهون بوقت محدود جدًا، إما أن يبوح، أو يكتم أنفاسه. كنت فرصته فنثر لي كل ما يعتلج به صدره، قال: الأطباء مساكين لا يكادون يلتقطون أنفاسهم وكأنهم يقفون على حدود معركة ضروس، يداوون الجرحى بالممكن من العلاجات والأدوية، وهم بين هذا وذاك بين أيادي اليأس والرجاء، يدخلون غرف العمليات بلا خلفيات مسبقة أو مدروسة؛ مكتفين بتقرير معلق على سرير المصاب، يقرؤه الجرّاح سريعًا ليشرع من فوره في عملية البتر أو الاستئصال.

في الصباح باكرًا أفقت على جلبة، مريض يؤخذ من بيننا لإجراء عملية، نصف ساعة ثم أرجعوه إلى مكانه، لم يكن المقصود تحديدًا بالعملية. نسب إلى تشابه في الأسماء، سمعت الممرضة تضاحك زميلتها في العنبر المجاور لنا على هذا الخطأ المشابه للمزحة، ما يمزق نياط القلب ويثير الكمد ويبعث على القهر صياح أحد المرضى، علقت رجله بحبل على قائم صغير وقد ألصق بها أنبوب بلاستيكي يتسرب من خلاله صديد ضارب للصفار.

اقتربت منه مواسيًا فنهرني، عدت إلى صلاح الذي يتجرع إفطاره بصعوبة. في هذه الأثناء دخلت علينا تنعيم بصحبة ممرضتين في العنبر، للاطمئنان على حالة صلاح، فسألتها عن حالة هذا الشاب العشريني الجزع، فأخبرتنا أنه نقل إلى المستشفى على إثر حادث قبل ستة أشهر، وأجريت له عملية إسقاط أسياخ ألمنيوم، وقبل التئام الجرح بدأ ينزف بقيح وصديد وأشياء أخرى مقززة. تلوثت قدمه بسبب الإهمال وعدم العناية والحرص في تعقيم الأدوات المستخدمة أثناء إجراء عملية تجبير القدم، ليقضي قرابة الستة أشهر متألمًا متحسرًا يتمنى بترها كي يرتاح. وقد عجز الأطباء عن مداواته، مع كمية المضادات الكبيرة التي تدخل جسده يوميًا. مع خطورتها القصوى على وظائف الكبد والكلى جاءت النتيجة «لا فائدة»؛ أرعبني مقام الليلة، فطلبت من تنعيم تسهيل عملية خروجه ولو تهريبًا، تخليصًا له من خطر يتهدده. غمزتني وهي تقول:

ـ لا تخف، بخيتة بالطريق، هي أحرص عليه منًّا جميعًا.

ثم خرجت برفقة صاحبتها بأسماع صافنة، وأعين تذرع الممرات تحريًا لمجيء بخيتة.

كانت الساعة تتجه نحو التاسعة حينما دخلت علينا بخيتة بوجه يبشّ بالبشر، يرافقها عسكري برتبة رقيب، حيث بادر بعملية إقفال المحضر وتحرير قيده. حملته من فوق السرير وهو يئن من شدة الوجع. أجلسته على الكرسي المتحرك، وأسلمت قياده إلى بخيتة ريثما أستخبر من

العسكري عن مصير السيارة. زوّدني رجل الشرطة مشكورًا بالتفاصيل الضرورية عن موقع الحادث، وآثاره المدمرة، وحجم الضرر الذي لحق بـ (ونيتي)، ومكان حجزها. تمنيت فقط لو ألقي عليه نظرة وداع أخيرة، كم غالبني الحنين إليه. فهو بالنسبة لي تاريخ من الحكايات، وشاهد على مسيرتي، ولقمة عيشي.

لم أبرح مكاني حتى ألقيت نظرة عجولة على بداح. فألفيت الدكتور يقف فوق رأسه. اقتربت منه بوجل وسألته عنه باقتضاب. أجابني بلا اكتراث قائلًا : جلطة خفيفة. أراحتني إجابته. أشعرتني بخفة تسري بين أوصالي حتى خلتني أطير. هرولت ألحق ببخيتة، دلقت قدمي من بوابة المستشفى أودّع الماضي، موطّنًا نفسي على تدشين حياة جديدة.

بقي شهران على موعد مباشرتي. سأقف بين المعلمين مثل طالب مستجد يطوعه فضوله لقبول عادات الصباح الباكر القسرية، النهوض فجرًا وتناول «ساندويتش» يملأ فراغ المعدة، والوقوف قبالة طوابير الطلاب بنصف صحو لتأدية تحية العلم مع زقزقة العصافير. هل سيفي هذا الوقت القصير بمتطلبات هذه الطبخة الروائية؟ لم يعد لي حجة، شخصياتي الرئيسة تحت يدي. ما يرعبني فقط حالة بداح الحرجة. أما صاحبي المتوجع صلاح فقد أصبح تحت جناح بخيتة متنعمًا بدفئها، فهما العصفوران اللذان سأصطادهما برمية واحدة.

انزويت قرابة أربعة أيام لا أبرح مكاني، أفكر بما

يمكنني عمله بدون وسيلة نقل. هل أقتني سيارة تقضي حوائجي وتبقيني قريبًا من عالم بخيتة؟ هل أضحي بجزء من مدخراتي المادية التي جمعتها خلال سنوات سبع بالكد المضني، حارمًا نفسي من متع الحياة.

أوه.. كلما تذكرت الشيخ بداح نخزتني الوساوس واستبدت بي الشكوك. لن يتحقق لي ما أصبو إليه إلا بمبادرة الحصول على سيارة، لا يجب أن تزوغ عيني عن الشيخ لحظة واحدة. . راودني هاجس الاختفاء، ماذا لو حمل من المستشفى على أيدي آخرين لا أعرفهم؟ لن أترك لقلبي لعبة الانقباض والانبساط، هذه اللعبة تستنزف الأعصاب. قبل انتصاف نهار اليوم التالي استأجرت سيارة هونداي صغيرة، انطلقت بها إلى المستشفى، حوالي الساعة الثانية ظهرًا، انشرح صدري وتعبأ قلبي بالغبطة، وتهللت أسارير وجهي، وأنا أراه جالسًا على السرير وقد نزعت منه كل الأجهزة والممرضة تحقن فمه بحساء من ملعقة صغيرة. اقتربت منها وسألتها عن حالته، لتسألني:

ـ هذا بابا؟

فهمت من سكوتي الإجابة فناولتني الوعاء الصغير بعدما أسقطت الملعقة داخله وهي تقول:

ـ هذا بابا مية مية بكرا خروج.

تفحصني بعينيه الكليلتين وأنا أضع الملعقة بين شفتيه، فمطهما بابتسامة طفيفة، أكّدت لي سلامة قواه العقلية. قلت له أمازحه:

ـ المثل المصري يقول: عمر الشاقي باقي ما عليك إلا

العافية. هزّ رأسه وحرك شفتيه وكأنه يود قول شيء ما، اقتربت منه فسمعته يجتر صوتًا ثقيلًا من حنجرة مبحوحة تالفة يقول:

- ما عندهم إلا هالماء الحار، أبي آكل.

قلت له تطمينًا له:

- لما تطلع بالعافية ابعزمك على ذبيحة.. بس عاد اصبر.

ثم سألته:

- ما عندك عيال، من يجي يطلعك؟

هزّ يده بما يعني لا أحد، أسدل رأسه إلى الوراء وأغمض جفنيه وتعالى شخيره. جلست على الكرسي المحاذي لسريره أتدبّر أمرًا ما؛ خاطر ورد إلى رأسي.. هذا الغريب عبء ثقيل لن يتحمل مرضه وكهولته سوى ذويه، بهذا المرض الذي أعطب جزءًا من خلايا مخه. لن يقاوم ولربما تتابع الجلطات الواحدة تلو الأخرى، ولو التزمت معه بشيء سأتورط به وأنا لا أبتغي منه أكثر من الكلام. قد أكتفي منه بساعات أستكمل فصول حكاياته فهل أجازف وأخرجه من المستشفى على مسؤوليتي؟ ظلت هذه الأفكار تؤرجحني ذات اليمين وذات الشمال، مرة أقول في سرّي: سأتركه وشأنه. لن أسمح لغواية كتابة رواية أن تدفعني لورطة لا تُحمد عقباها، وتارة أخرى أعقد العزم على استخراجه، ونقله إلى بيته ولن ألتزم بعد ذلك بأي شيء، وأخرى أقرّر فيها اصطحابه معي إلى غرفة السطوح، علي أن أحزم أمري سريعًا فالوقت أزف على إخراجه، فلن أنكص على عقبي في

اللحظات الحاسمة من الرواية. ما دمت قد بلغت الحبكة فلا أقل من أيام أنتزع فيها منه ما أريده، ثم أطلق قدميه للرحيل.

انداحت في صدري طمأنينة؛ أطفأت بقايا التردد الواهن مشمِّرًا عن قراري الأخير بتبني بداح مؤقتًا.

قبل أن أصعد إلى غرفتي وآوي إلى فراشي، عدت صلاحًا طريح فراش المرض، منضويًا تحت جناح بخيتة. تتعهده بلمساتها الحانية، كان يرفل بصحة جيدة وقد أخذت الدماء تجف على خدوش وجهه. ما لم أفهمه والجديد في الموضوع تمتعه بأريحية تامة في بيتها، كنت سأطرح عليه سؤالي حول انعطاف علاقته ببخيتة بشكل حميمي، فأحجمت مخافة اجتراح مشاعره وهو لا يزال في طور التحسن، سأتركه يحكي لي طبيعيًّا دون ضغط، لربما سيبوح لي بما خفي عني، وهذا ما كنت أرنو إليه، لا أود أن تكون أحداث روايتي الأولى وباكورة إنتاجي الأدبي متعسفة كما وعدتكم، ولا أن أوردها بشكل متكلف ينفي عنها واقعيتها، لم أطل مقامي بالرغم من نظراته المتوسلة مكثي فترة أطول، فما بين لسانه شيء أصخب عليه روحه، لن أستعجله ريثما يبرأ ويتعافى، فما يشغلني أهم.

اضطجعت في مرقدي ملتفًّا بحلك الليلة الداكنة، مسترجعًا تقاسيم وجوه أبطالي. قدح أمامي وجه بداح المتغضن بالشيخوخة والألم. شعّ كشعلة تضيء بكل اتجاه رأيتني أغطّ في صميم حلم، ومن خلف وجه بداح تبدّى وجه بخيتة، ومن ورائها صلاح، وحتى رفقاء القاهرة تراءوا أمامي وكأنهم يستعيدون أدوارهم، يتقدمهم المسطول أبو

بسام الذي وصفته رباب بأنه مؤجر الطابق العاشر.

تمنيت حقًّا لو صادفت ذاك المجدول الشعر خلف وجه يلتمع بالنعمة والصفاء؛ لأقبض عليه من زنده، وأقتاده إلى مستشفى الشميسي؛ وأريه الحياة الطبيعية بلا مساحيق، علّه يصحو من عربدته ويبصر هذا القاع الآسن.

لا أخفيكم أن اكتمال عقد هذا الطابور شحنني بالإرادة الكاملة لمواصلة كتابة روايتي، بما بدا لي من اكتمال شخوصها وأحداثها. نهضت من فراشي. أضأت اللمبة المتدلية بكوع أسود فوق فراشي؛ متلمسًا أوراقي وقلمي وبدأت الكتابة، كان عقلي متفتحًا وذهني صافيًا تمامًا بها. لم أستطع منها فكاكًا ولو لبرهة لصنع فنجان قهوة تركية تشدّ من أواصري وتحرسني من مباغتات النوم البغيض. وجدتني مكبّلًا بأصواتهم، كل ما دوّنته من ملاحظات، ورسمته للشخصيات، وكتبته من أحداث صار يعوم في رأسي كلعبة هجوم الأجساد الفضائية، إن لم أسدد رميي نحوها فستصيبني وتعيدني إلى بداية اللعبة.

لم أكن في حيرة شديدة في نقطة البداية ولا خط سيرورة الأحداث؛ لأني سأقدمها بطريقة كلاسيكية تتابعية، بمعنى أني سأبدأ من الشخصية الأولى التي تعرّفت عليها وستكون حتمًا بخيتة، ولكن هل ستكون شخصيتها مسيطرة على الحيز الأكبر من الرواية على اعتبارات من أهمها العنوان: (ضاربة الدف بخيتة، أو بالمعنى الشعبي الطقاقة بخيتة).

4

اقتحمت بالسيارة بوابة مستشفى الشميسي الرئيسة باتجاه المدخل الرئيس للمبنى، ومشيت خببًا صوب غرفة تنويم بداح فلم أجده. سألت الممرضة: هل خرج؟، فأخبرتني أنه قد نقل إلى غرفة النقاهة وبانتظار من يقوم باستلامه، وقبيل أن تندّ ضحكة ساخرة من عبارة «غرفة النقاهة». دخلت الغرفة المسماة مجازًا غرفة النقاهة لأجده متربعًا على أرض الغرفة بكامل حلته بما فيها عباءته الوبرية، وبيده فنجان قهوة وبيده اليمنى زمزمية ستيل مدببة. اقتربت منه أقبّل رأسه وأحمد الله على سلامته، نظر إلي من طرف فاتر وواصل ارتشاف فناجين القهوة، كان المرضى الآخرون يغطون في نوم عميق وكأنهم في فندق خمس نجوم. سألته عن أغراضه فقال بصوت ثقيل أجش: ما معي شي. فطلبت منه النهوض للمغادرة، وعبثًا كنت أردد طلبي، فقد ذهب صوتي أدراج الرياح على تنغيمته اللذيذة الطروب وهو يرتشف الفنجان تلو الآخر، وقد تواطأ مع نفسه على ارتشاف آخر قطرة من زمزمية القهوة. تركته لملذته وسحبت كرسيًا بلاستيكيًا، وجلست إلى جانبه، أرسم صورته كي لا يفوتني منها شيء وأنا أصفه في روايتي لزمن ما بعد العملية، فجاءت كالتالي: وجه مستطيل مليء بالتجاعيد وندوب

الجدري التي طالت طرفًا من عينه، وشعر ذقن يتفرق فوق فكيه، يتكاثف باتجاه الأسفل، حتى عيناه النقيتان بالتماعة بياضهما وسوادهما، تكادان تختفيان خلف أنقاض شعر الحاجبين الكثيفين، يأكل شعر رأسه الأبيض جزءًا من جبهته العريضة يتصبّب من تحت طاقيته الرمادية بما علق بها من أوساخ قديمة، يمسك شماغه المنتوف بعقال صوف يتعرج في استدارته فوق رأسه وكأنه حبل أسود معقود فوق رأسه، سقط من خلفه لمّة شعر شديد البياض بلون الفضة، وبالرغم من نحافته فلم يؤثر هزاله على كتفيه العريضين.

تراءى أمامي وهو بين يدي القهوة وكأنه في حضرة صلاة، وأنا أستشعر أنامل الملل تعصر نفسي. بدأ يحرك جسده متأهبًا للوقوف، نهضت أردفه بيدي حتى امتثل واقفًا وقربت له الكرسي المتحرك وهو يتجشأ قهوته من فمه وأنفه. خرجت به متعجلًا قبل أن يلمحنا موظف الكاونتر ويدخلني بأسئلته اللامتناهية؛ قابضًا على أنفاسي الجائشة بخوف مستطير. لم أطلق لرئتي حرية التنفس حتى أجلسته في مرتبة السيارة. لملمت عباءاته ووضعت عصاه الثقيلة في المرتبة الخلفية وفتحت له النافذة وأغلقت الباب بالقفل الداخلي. سريعًا انطلقت ببداح إلى حي منفوحة؛ حيث الملحق العلوي الذي كلفني وقتًا طويلًا وجهدًا بالغًا للصعود به إلى الأعلى. وهناك أعددت له فراشه وضعت جرابه إلى جانبه.

تركته ينام. وفي الليل بدأت أجهز له القهوة فما أن خامرت رائحتها رئتيه حتى رفع جذعه الأعلى متكئًا على (مركاة) كان يضع فوقها جرابه. يتحسس بمنخريه رائحة

القهوة. جهزت له متكأً وكأنه كرسي اعتراف. شرعت أحرث رأسه قبل أن تتلفه الجلطات؛ فما بقي منه يكفيني وذاكرته لا تزال بخير. . كنت محفزًا لمعرفة كل شيء خصوصًا متاهته الصحراوية. حتى لو كلفني أطنانًا من القهوة التي تنعش ذاكرته وتطري روحه. استخرج من جرابه الذي لا يفارق متنه إلا عند النوم، عدة دخان التنباك وبدأ يحشو وريقته الرقيقة البيضاء بمسحوق التنباك بتلذذ ويطويها مع تمرير لسانه على حافتها المطوية بعناية، المزة الأولى أرخت عضلات رأسه قليلًا، عندها قربت إليه القهوة الصهباء أسكب باكورتها؛ حتمًا سيكون تحت وطأة القهوة والتنباك بما يقترب من السكر، ولن يخفي عني شيئًا فسألته:

- عم بداح.

- هاه..

العم بداح أصابه ما يشبه الوقر بعد العملية أو ربما نتيجة الأدوية التي يتناولها، هذا ما لاحظته عليه للوهلة لأولى؛ لذلك لن أضجر أبدًا من ترديد أسئلتي عليه.

- أقول الله يحييك وش صار على (سِيسْران) وشنيشل.

- وش تبي بهم خلهم يولون..

قالها وهو يمزّ سيجارته بمزاج وتذوق عاليين. وحتى لا يجرّ علي الملل رفعت صوتي.

- سمعتك تهذر بهم وأنت مبنج.

- ايييييه.. جاءت هذه الـ اييييه مع آخر نفس سحبه من السيجارة الذاوية .

ـ وش تبي بهالسالفة؟

ـ أبي أعرف وش جرى عليهم عقب هالسنين؟

ـ أجل تبي تعرف؟ بس ها ما تقاطعني بأسئلتك.

ـ ما اقطع عليك.

ـ طيب قم وزبط لنا شاهي وكثر السكر، شاهيكم يالحضران ما أحبه ماصخ؟

ـ ابشر..

ـ وشو؟

ـ أقول ابشر.

نهضت بفرح غامر وأنا أقول: بس شاهي والله لو تبي ذبيحة.

بسرعة البرق الخاطف أتيت بالشاي (الخادر) المحلّى بثلاثة فناجين سكر. سكبت له الكأس الأول وهو متكئ بعباءته الفرو. بصوت مسموع ارتشف ثلاث رشفات ثم أجلسه قريبًا من أصابع قدمه وكأنه يتحسس دفأه. سحب طرف العباءة المنطرحة إلى أسفل وكأنه يتقي بها برودة قرّ المربعانية ونحن في عز الصيف، أي منتصف شهر رجب. أخيرًا حرك لسانه متشهيًا لمذاق الشاي وقال:

ـ شف يا ولدي.

ثم صمت وكأن لسانه يتثاقل عن الكلام... أو أنه لا يريد أن يستعيد الماضي.. أو لربما أن مقص الجراح استأصل هذا الحيّز من الذاكرة.. ثم نطق بسؤال مفاجئ:

ـ أنت وراك ما تعرس؟ وش لك بهالغرابيل؟

ـ وش تقصد؟

ـ أقول خل عنك الخربطة واعرس يجيك عيال أو ودك تصير مثلي؟

ـ وشلون مثلك.

ـ وشو؟

اقتربت من أذنه وصحت بصوت عال:

ـ أقووول وش لوووون أصيييير مثلك

ـ ايه مثلي.. لا تلد ولا ولد.

ـ تدري عاد والله إني أفكر بقصتك مع وطفا.

ما إن سمع وطفا حتى أرهف سمعه لي جيدًا، ورفع فنجانه إلى شفتيه وراح يرتشفه بعينين سارحتين ثم نطق:

ـ ايييييه وين وطفا؟ لنا الجنة إن شاء الله.

ثم عاد إلى بئر الصمت القاتل. تركته إلى عالمه يستعيد ملفات الماضي.

أطرقت مليًا أقلّب حكاية وطفا بعدما يئست تقريبًا من لسانه الثقيل. فقد رافق انحراف صحته واعتلال ذاكرته تدن شديد في مزاجه. كنت أروم تحقيق أمنيته الوحيدة قبل أن يقضي نحبه بالعثور على وطفا. فكرت ببخيتة، فما دامت تدخل كل البيوت فلماذا لا تساعدنا في البحث عن صلبيته؟ ولكن كيف أحصل منه على دالة أو إشارة تهون علينا هذه المهمة. وهو مضرب عن الكلام. وقد استحال إلى ما يشبه تمساحًا هرمًا لا يقوى على شيء؟ اقتربت من شحمة أذنه اليمنى وصحت به طارحًا عليه فكرتي:

ـ أقول ياعم بداح، وش رايك لو دورنا على وطفا؟

ـ وطفا.. تقول وطفا؟

ـ إيه أقول ندور عليها.

استعادت طبلة أذنه حساسيتها وانزاح عنها الصمم قائلًا:

ـ وشلون؟

ارتحت قليلًا من عناء توصيل المعلومات فقلت:

ـ بالعروس.. نخلي الطقاقة بخيتة تدور عليها.

ـ وشي الطقاقة بخيتة؟

ـ راعية هالبيت.. طقاقة بالعروس.

فابتهج كثيرًا وهو يهاجس نفسه بصوت مسموع.

ـ وهل يعقل؟ تحريهم يلاقونها.. تراها خمسين سنة ما هي هوينة؟

ـ وليش لا؟ هي كانت صغيرة يعني عمرها هالحين ست وستون سنة.

ثم اتجه إلي بوجه تعود إليه الحياة توًّا قائلًا:

ـ أنت تقول طقاقة؟

أومأت برأسي أن نعم فأتبع كلامه قائلًا:

ـ طيب احفظ أبيات الشعر هذي خلها تغني بها. فإذا هي بينهم فتبي تعرفها؛ هذي شارتنا. متى سريت عليها بليل... فإذا المكان آمن ردّت علي هي ببيت من عندها فأدخل عليها آمنًا مطمئنًا. وإلا عودت.

ـ هات البيت.

ثم بدأ ينشد بداح قصيدته بصوت حداء مبحوح، متهالك:

يا صاحبي من سيف الأيام مقتول
طعنة ظهر منها خفوقي صويبي
ياالعنبو قلب من الهم معلول
من هرجة العذال جرحه عطيبي
كل الملامح ضايعة دون مدلول
الحظ عاثر والمقدر صعيبي
الفكر من لوعات الأيام مشلول
والصمت ناره في ضلوعي لهيبي
ماعاد لي حيله ولا قوة ولا حول
بسمة حزن اخفي وراها نحيبي

سألته:

ـ والبيت اللي تجاوبك فيه؟

اسمع أجل:

ما كن لي قلبن على الصبر مجبول
صبري نفد والقلب جرحه عطيبي

انهى بداح ترانيم حدائيته ثم صمت بخشوع، وكأنه ينهي للتو آية قرآنية بتدبر. رفع رأسه نحوي مصوّبًا عينه الكليلة نحوي بهيبة، وقال:

ـ شف ترى ما أحد يعرف بهالبيت الأخير إلا هي. فلو سمعت تبي تفز مثل الملدوغة وتسأل عن راعيه.

بهذا فتح لي «بداح الخرش» نافذة أخرى تشبه المغامرة، حتمًا ستضيف إلى روايتي بعدًا تشويقيًّا آخر.. وأنا لا أحتاج إلى أكثر من ذلك، سكبت له فنجان القهوة فارتشفها بصوت يوقظ خلايا دماغه، وأطلق ببحة صوته المعهودة هجينية عذبة.

الفصل الثاني عشر

ساحرة

1

ما كدت أضع قدمي على العتبة الأخيرة من دَرَج العمارة الجانبي حتى تناهى إلي صوت ينحدر من الأعلى صافيًا رقراقًا تميّزه رنته الخاصة. كان صلاح يندبني للصعود إليه لأمر مهم لا يحتمل التأجيل واعدًا بعدم تأخيري عن مشواري الصباحي وهو يعلم أني لا أخرج في مثل هذا الوقت إلا لأمر ملح. التفت نحوه مسارعًا بفرحة؛ جاهدت كي أواريها عنه متصنعًا تقطيبة رفضتها عروق وجهي. انتهيت إليه فطوّق ذراعي يجذبني إلى الداخل. استشرت في أنفي رائحة عطر حادة تتضوع من قميص النوم الأزرق الواسع. أبصرت، لا أدري كيف تطل من محياه ملامح إفريقية واضحة برغم سماره المخلوط ببياض كبياض الحنطة وتقاسيم وجهه التي آلت فجأة إلى أشباه قريبة من بعض أهالي بخيتة. جلس على الأريكة المزينة بأهداب طويلة، بينما هو يسحب علبة حلوى فاخر التقطت منها مكعبين، وهو يقول:

ـ اعتبرها حلوى الفرح.

ـ ما فهمت.. قلت له باستغراب.

وضع العلبة فوق المنضدة الصغيرة. اقترب مني

بابتسامة مرتجفة تطفو فوق شفتيه، تنم عن تردد وحرج. بادرته بسؤال يحلّ من عقدة لسانه:

ـ كأنك تخفي شيئًا تستحي منه؟

ـ لا أنا لا مستحي ولا هم يحزنون، كل ما هناك أني تزوجت بخيتة، وأرجوك لا تستغرب ودعني أكمل، فأعذاري وأسبابي كثيرة.

اعتدلت في جلستي وأنا أجيبه على ما توقعه من ردّة فعل مفاجئة:

ـ لا أبدًا، هذا شأنك.

ـ طيب.. طيب.. حتى لا تذهب بك الظنون بعيدًا سأخبرك. تذكر ليلة انفردنا معًا وصعدت معها إلى غرفتها.. لعلك تذكر.

ـ أذكر.. كمل.

ـ جميل.. ليلتها لا أدري ماذا ألمّ بي.. كنت أتصرف بلا وعي، كأنني مسحور، أو فاقد الإرادة، أتحرك وفق ما تمليه علي، والله العظيم ما أدري وش صار لي إلى يومنا هذا، حتى بعدما صعدنا إلى شقتها ودخلنا غرفتها كنت أرى أشياء غريبة؛ بوابة ولجت من خلالها إلى الغواية، عندما أخذتني في أحضانها تهدهدني، وكأني طفلها المدلل، أدخلتني حديقة مليئة بالألعاب الملونة ركبنا الألعاب الصغيرة، وبنينا قصورًا من رمل وضحكنا، وركضنا حتى لهثنا وسقطنا فوق بعضنا، لم أكتشف نفسي إلا وأنا بين أحضانها عاريًا صباحًا. لقد اقترفت ما لا يمكن أن أقترفه حتى مع أجمل نساء الكون. كنت لا أدري ماذا أفعل جربت

أن أصارحك بحثًا عن مخرج، يوم الحادث كنت مبلبلًا تائهًا شارد الذهن، ويوم خرجت بمعيتها من المستشفى أعلنت لها عن رغبتي في الزواج منها.

ـ يعني لكم أسبوع متزوجين؟!

ـ أسبوع.. وخلال هذا الأسبوع اكتشفت معدن هذه الإنسانة، نحن دائمًا نحكم على الناس من خلال مظاهرهم، أشكالهم، ألوانهم. لا نختبر معادنهم. صدقني، هؤلاء الناس طيبون في معشرهم وسلامة نياتهم، وصدق تعاملهم، لايسبر أغوارهم إلا من توغّل فيهم. أنا أتقلب في كنف بخيتة كانت أجمل أيام عمري. أغرقتني بدلالها. هذا مع ما سيتحقق لي من ورائها وعجزت عنه طيلة عشرين سنة.

ـ قصدك الجنسية؟

ـ نعم، هذا الهم المقيم، واللعنة التي تصمني ليل نهار، النظام الآن يسمح بمنح الجنسية للمتزوجين من سعوديات؛ لأن الشروط تنطبق علي الآن تمامًا، كما أن لديها من سيقدم لها هذه الخدمة مجانًا.

ـ عمومًا، هذا أمر يخصّك وحدك، وأسأل الله أن يبلغك مرادك.

خرجت من عنده مشحونًا بتداعيات كثيرة تكاد تفجرّ رأسي، فهل اهتدى أخيرًا صلاح لطريقه الذي قضى عمره يبحث عنه؟ وهل يقدر على مواءمة حياته مع مستجدات هذه الظروف؟ وهو المتعلم الاستثنائي، والحافظ الفريد! فكيف سيمارس عاداته بين هؤلاء الناس الذين لا يرون الكتاب سوى مضيعة للوقت؟ هل ستوفر له بخيتة الأجواء الملائمة

للقراءة؟ أم أنها ستكشط بقاياه العالقة في دماغه وتنسيه كل الماضي؟ هل ستجعله متعلّقًا بعالم الطبل والزار الذي بت أخشاه؟ كل هذه الأسئلة تخللت دماغي كدبابيس حادة.

اكتشفت هوية الحالة التي ألمت بي يوم رقصت. صلاح قال: كنت منجذبًا بلا إرادة. لم لا تكون بخيتة تنفث أسحارها في أعين الراقصين وتنال منهم بغيتها، مثلما فعلت بصلاح لا.. لا.. لا أريد أن أتجنى على خلق الله بلا دليل.. قد تكون هذه الحالة مصاحبة لكل من يلج هذا العالم للمرة الأولى. سأترك لنفسي الفرصة ولعقلي حرية التطواف بينهم حتى أصل إلى المعلومة.

2

عالم الطقاقات عالم مختلف ومستنكر، وهو سبّة تلحق بالمنتمين إليه؛ إلا أنه مطلوب بإلحاح لا تستقيم الأعراس بدونه.. وبعض الفرق غطت شهرتها الآفاق المحلية والخليجية؛ إلا أنها لم تحظ بمباركة الدوائر الرسمية كمؤسسات الإعلام. وإن ذكرت فبشماتة أو سخرية. أما في مواسم الأعراس فتستعز الفرق ويدفع لها مبالغ طائلة، لذلك أقبل كثير من الفتيات للانتساب إلى فرقة بخيتة. ما دمن يدارين وجوههن عن الأعين وهن جامعيات ومن أسر محترمة. إحداهن لم تكن راغبة في العمل تنأى بنفسها بعيدًا عن صخب وجنون الطقاقات، فلولا إجبار والدها لها لتركت الفرقة باكرًا، وبعدما تنعمت يداها بدبق أوراق العملة الكبيرة، وتدسم حسابها البنكي برقم كبير، غدت المغنية الرئيسة في الفرقة الثالثة من فرق الطقاقة بخيتة. وقد جلبت في إثرها فتيات كثيرات من بنات الجامعة ومعلمات المدارس.

هذا التوسع وتعدّد الفرق منعطف حاسم في مسيرة بخيتة، أمست سيدة الأعراس والحفلات الخاصة. وهذا التغيير المحدث يقبع خلفه صلاح الذي قدح شرارة الصراع؛ إذ دبّ أول خلاف بين بخيتة والمغنية الرئيسة بالفرقة تفانين،

لأن بخيتة لم تعد ترى أن صوت تفانين يواكب متطلبات الأعراس، فالمرحلة الانتقالية الحالية لها مواصفاتها الخاصة، والأصوات الشابة المنتظمة مؤخرًا في حلقات فرق الطق متميزة بالعذوبة، إضافة إلى إجادة بعضهن أنواعًا من الآلات الموسيقية الحديثة، مثل الأورج والطبل الكهربائي والسمسمية والمزمار والبوص؛ إضافة إلى العود الذي أصبح آلة رئيسة لدى الفرقة. طفقت تفانين تنثر سهام الشكوك نحو صلاح الذي ما إن حلّ في بيت بخيتة حتى ساق معه هذه التغييرات التي لا تراها مفيدة، وخوفها يكمن في استبعادها من الفرقة نهائيًا، وهي مشاركة رئيس لبخيتة في تأسيس الفرقة. حاولت بخيتة شرح ما ستؤول إليه الفرقة الآخذة بالتوسع ودورها في عملية التغيير هذه. لم تستسلم لكل ما سمعته من بخيتة، بل تضاعف إصرارها على موقفها. لم يجد صلاح بدًّا من التدخل السريع خوفًا من اتساع هوة الخلاف، خصوصًا عقب ما رأى من انقسام الفرق على نفسها، فجزء يساند تفانين، والأكثرية منهن يقفن إلى صف بخيتة. انغمس صلاح قرابة الشهر يوفّق بين الأطراف، شارحًا وجهة نظره، حتى اهتدى إلى طريقة تريح الجميع، تتمثل في كتابة ورقة تشبه عقد اتفاق، تكون بخيتة بموجبه مسؤولة عن ثلاث فرق مع تجهيز الفرق الأخرى، واستقبال المستجدات، واختبار ملاءمة أصواتهن، وتدريبهم. أما تفانين فتكون مسؤولة عن فرقتين متخصصتين بالأعراس الإسلامية التي لا تقبل بأكثر من الدفوف، هكذا وجدت تفانين نفسها ذات قيمة أعلى من السابق، بدأ صلاح بتقسيم العمل وجدولة الحجوزات، بما فيها فرق الرجال، واقترب من بعض الجهات والشخصيات

الكبيرة حتى تمكن من ربط الفرق الرجالية والنسائية ببعض الفاعليات الرسمية، بما في ذلك القهوجية والخدم.

لم يعد العمل تحت إدارته عشوائيًا البتة؛ بل أصبح وفق خطة مدروسة ومواعيد ثابتة، والجميع يعملون بأريحية متناهية. يرون في صلاح هبة الله التي بعثها لهم لتقيم أحوالهم. ومن يومها بات الجميع يرفلون بحلة الرخاء والسكينة. وكان الخلاف مدعاة خير للجميع. . يستعين صلاح ببعض العازفات والمغنيات على القيام بنسخ القوائم والأسماء وأي عمل يثقل عليه يحيله إليهن، بما لدى بعضهن من تعليم عال وخبرة في مجال التنظيم، واتفق أخيرًا مع شركة إنتاج كاسيتات لتسجيل الحفلات بنقاوة صوت عالية، بيع منها نسخ بالألوف، تقتنيها الفتيات لتعلم الرقص قبل مواسم الأفراح. وأمام هذه المسؤوليات الجمّة، تخلت بخيتة عن إدارة البسطات لمتعهدات أخريات. فلم تعد سوى السيدة بخيتة مديرة الأعمال الناجحة.

الفصل الثالث عشر

عودة الغائب

1

سمعنا خفق نعال تصعد السلالم. صوت غير محدد، بلا هوية، كأنني أتوهم. عدت إلى هجينية بداح التي يصدح بها كلما فرغ من مزّ سيجارة التنباك، وأفرغ دلة القهوة في جوفه بتؤدة، الفنجان تلو الفنجان، وعيناي لا تحسنان سوى مراقبة أنفاسه، فقد بدأت أستشعر ثقلًا في نباهته، ووقرًا زائدًا في أذنيه، والتصاقًا دائمًا بالأرض إلا لقضاء حاجاته بصعوبة وقيام باهظ التكليف، وفي غمرة النوم الثقيل أتنبه إليه وهو يزحف إلى الحمام على ركبتيه. يالجبروت هذا الرجل الطاعن في السن. كان إلى قبيل هذا العطب الذي لحق برأسه يتشهى الأنثى بصوت مسموع، كلما رأى النساء بعباءات مخصرة تشفّ قدودهن الرشيقة. صرخ صرخته المعتادة (أويل كبدك)؛ ليشتعل لسانه بقصائد انهالت منه فورًا دون تكلف. يرسم بها تفاصيلها، كأنه كان يتحسر على ما فاته من أيام بالغناء. تذكرت مقولة صلاح المدني الحائر بكينونته عن نفسه فهو مقسم إلى أرباع: ربع رجل، وربع ذخيرة جنسية، وربع ذاكرة، وربع مؤنة، إذن بماذا نصف هذا البدوي الذي مجّ الحضر؟ قبل إجراء العملية كان مشطورًا إلى نصفين؛ نصف ذاكرة ونصف بطن وذاكرته ما تعنيني تحديدًا. أتحين الفرص كي يفتح لي أضابير حياته. لم تكن

تعزب عن ذاكرته كل التفاصيل. أغذي بطنه ويغذي رأسي بكل أسراره بعفوية متناهية. أما اليوم فقد صار ينغلق أمامي. يصبح طلسمًا يستعصي على الفهم؛ فيحيلني إلى مراجعة تشبه استعادة قراءته، كأن أبدأ بقراءة كتاب ما؛ يغريني فأسترسل معه بأريحية، يقطعني اتصال ثقيل، فتضيع جادتي. لن أبدأ مما انتهيت عنده، سأضطر للعودة كرة أخرى لمراجعة الصفحتين السابقتين.. هذا ما لم يجلب لي هذا الاتصال أخبارًا سامة، أظل أكافحها طوال اليوم.

برز إلينا صلاح المدني بعد غياب شهرين، بثوب يتكسر نعومة ولمعانًا مطرز الياقة والأكمام، وثلاث خواتم بفصوص كبيرة ملونة، موزعة على أصابع اليد اليمنى. جلس متربعًا وهو يخلع غترته المتموجة بياضًا وعقاله العريض، وفي فمه كلام كثير. قلت له محررًا إياه من ثقل أيام الغيبة:

ـ الرجال سمعه ثقيل؛ خذ راحتك.

سحب من جيبه (بكت) سجائر مالبورو أبيض. استل منه سيجارة. ثبتها بين شفتيه وأشعلها بولاعة مذهبة. لم أستغرب تبدل أحواله بعد اقترانه ببخيتة، فالعالم الذي ولجه ليس اعتياديًا، فهو زاخم بالنساء مملوء بالرقص، مسجور بالغناء. وسبل العيش متاحة بوفرة. يا الله.. كم يجتالني التوق إلى ثرثرته. تركت له مصطبة الاعتراف، فتحدث بالتفصيل الممل كيف خلع جلباب الماضي، وأصبح ابن الحاضر، وزوج السيدة ولية نعمته بخيتة التي أولته عنايتها الكاملة، وأغدقت عليه ما لم يرد على عقله أو يخطر على قلبه أو تره عينه. زرعته بين حرارة أجساد النساء الدافئة، ابتاعت له

(حافلة) صغيرة ليكون على مقربة من الطقاقات والراقصات العاملات تحت إدارتها.

كان هذا بالضبط هو السبب في اختفائه عني تلك المدة التي أعقبت خروج بداح من المستشفى. استمعت إليه وهو يتلو سفر حياته الجديدة. استشعر صمتي البارد فقال وكأنه يهزّ وجومي:

ـ لا أراك تجاذبني الحديث، أدرك أنك ممتلئ مني، صمتك يفيض بأكثر من علامة تعجب، واستنكار.

تحركت عيني بما يشبه التأمل، فقلت معاتبًا:

ـ جئنا يا صديقي من أجل هدف وخرجت أنت بغايات، لا أدري كيف يمكن تصفية حساباتنا مع أيام لا تنصفنا دائمًا. تذكر يوم كنت ألح عليك بقبول مغامرتنا البحثية هذه؛ صحيح لم أكن في مثل همتك العالية، لقد انغمست بهم وطفوت أنا فوق السطح ولم أبتل. لا أستطيع القول إنك الرابح الأكبر، فمعادلة الربح والخسارة لا تُحسب هكذا ببساطة. الوقت لم يعد طريًا، الصيف يتجرع بقايا أيامه، وأنا أعدّ الأيام بأصابع اليد الواحدة، بعدها سأرحل إلى القرية حيث مدرستي التي وجهت إليها.. أنا عمليًا متورط بالشيخ بداح. هل أتركه للموت؟ من سيرعاه بعدي؟ وأنا لا ألومك، أقدّر وضعك تمامًا، فلو كنت مكانك سأسلك نفس المسلك.

صمت قليلًا مطرقًا بانتظاره. عيناه تتزاحمان بالكلام وفمه يحبس لسانًا.. خلته مكبلًا بأقوى سلاسل الصبر والتريث، فقال سائلًا:

ـ هل انتهيت؟

قلت:

ـ نعم.

استوى في جلسته ثم سألني بشيء من الأريحية.

ـ ما رأيك بشاي أخضر أعدّه؟

قلت مبدئًا ذلك الحيّز الضيق من العتب:

ـ كم أنا مشتاق إلى الشاي الأخضر من يدك.

فقفز من مكانه ساحبًا الصينية بيننا وبدأ بعملية الإعداد، ترك الماء يغلي ثم أطلق عقال لسانه للحديث قائلًا:

ـ صدقني أنا لم أنكث العهد، على الرغم من كل ما طرأ علي داخل منزل بخيتة .

ـ أوضح.

ـ كان هدفنا اكتشاف هذا العالم، ولبساطة هؤلاء القوم فلم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من الوقت، ولكي أجيبك دعني أسكب لك كأس شاي.

تناولت الكأس دون أدنى تعليق ثم أتمّ كلامه بعدما ارتشف نصف الكأس بجرعة واحدة، قال:

ـ ركبت طريقهم، وسأمضي حيث يشير قدري معهم. لقد وضعت بصمتي الخاصة واستطعت خلال مدة وجيزة تطوير هذه الفرق، لا تستغرب فهؤلاء الناس مثابرون، ما ينقصهم التخطيط المتأني، وكنت أنا رأسهم المدبر. اقترحت على بخيتة تجهيز فرقة للأعراس الإسلامية لا تستغرب، فموضة الإسلامي دارجة هذه الأيام، حتى الطق أصبح

إسلاميًّا بمعنى بلا موسيقى وتكون الأغاني المصاحبة محتشمة، وهذا ما بدأناه فعلًا ووجدنا إقبالًا منقطع النظير، حاليًّا طلبات الفرق الإسلامية تضاهي الفرق الأخرى، بهذا يا صاحبي ودعت حياة الفقر والقهر. بخيتة بلغتني مأمني الأخير. أرجو أن تقدر هذا وتعفيني من اللوم والعتب.

هذه الصياغة الجدية في تجربة صلاح أعفتني من أدنى علامة استفهام محتبسة في لساني، كأنه يقول:

اللعبة انتهت «العبارة المشهورة في ألعاب البلاي ستيشن»، فما كان يريده مني تحديدًا ويجد لتحقيقه هو إعادتي للعمل معهم، فبخيتة لا تزال تحتفظ لي بود، ولا تريد خسراني. عرض علي الالتحاق بهم، مع ضمانات أكيدة بعيش رغيد وحياة آمنة. بهذا لن أضطر للسفر البعيد، وسأظل إلى جانب البدوي بداح حتى يتماثل للشفاء ويصبح قادرًا على القيام بأموره. وعدته بأن أعمل تفكيري مليًا، وحالما أتخذ قرارًا سأتصل به. تذكرت ما أوصاني به بداح، وبيت الشعر الذي سيلتقط به زوجته من بين أيادي ليل الأفراح كما تلتقط صنارة سمكة منقرضة، يا للصعوبة الكامنة في هذا التحري، إن لم تكن مستحيلة. سمَّعت أبيات البدوي بداح لصلاح، فحفظها سريعًا عن ظهر قلب دون تكرار، وقبل أن تبتلعه عتمة الدرج قال:

ـ إذا أردت شيئًا فلا تتردد، اتصل.

ثم أتبع متذكرًا شيئًا ملحًا كاد أن ينساه، خمنته الدافع الأساس لمجيئه:

ـ يالله كيف نسيت: بكرا أنت معزوم على سهرة خاصة جدًا على شرفي. وستكون سهرة العمر.

ـ خيرًا إن شاء الله؟

ـ حصلت على الجنسية.

قالها ببرود لافت، حركت تفاصيل وجهي، ثم هبط سريعًا إلى الأسفل وتركني قبل تدوين فرحتي، وقبل أن أبارك له. لم أتنبه إلى شخير بداح المتصاعد. لن أترك هذا الثوي وحيدًا سآخذه، معي، حتى لو كلفني ذلك حمله على ظهري. فهذه السهرة ستكون مادة غنية مشبعة بالأحداث والتفاصيل الثرية عن صلاح وطقاقته بخيتة، ربما ستكون آخر المطاف في رحلة تجميع مادة الرواية. . المعضلة أنني في تقلب ليال قليلة راحل لا محالة. لم آت بحثًا عن لقمة العيش عند بخيتة كما صلاح.. أو عن ما هو أكثر. كأن الرواية عند هذا الحد تقريبًا انتهت، وعلاقتي أقصد ورطتي بالشيخ الخرش بداح لم تنته بعد.

ظهور مفاجئ لبطلة محتملة

الظروف.. نعم، الظروف الملعونة هي من يقودنا مرغمين لقبول ما لا نطيق ونستسيغ. نُقاد إليها عنوة. نتلمس من أجلها العزاء داخلنا وعددًا لا بأس به من مبررات بليدة نكدّسها أمام أعيننا بغباء مطلق؛ لنرتاح لكل القرارات التعسفية، حتى تلك التي نلجأ إليها مرغمين كحلول جذرية لمأساة الفاقة.. كم هي كوابيس.. ندفعها بالحلم وأمانٍ عريضة، نكدسها أمامنا تمامًا مثل كابوس الموت الذي يقتحم مناماتنا القلقة. . يفسّره المعبرون بالحياة المرتاحة والعيش الرغيد.. تمامًا.. هكذا تدحرجت بين أحضان الرجل الذي تعرفت عليه صورة وهو يطل علينا من نافذة بلورية أطلق عليها اعتباطًا: الدائرة التلفزيونية المغلقة. مما يعطيها مشروعية الوجود. صوته الرتيب المدوزن انسكب في أذني، امتد مع شاربه المعقوف كهلال فضي لامع.. بدأت أقارب صورته من خطين عميقين على جانبي خديه، وكأنهما ممتدان من زمن سحيق.. والزمن المستهلك من عمره المديد ..

في مدينة كلها عيون وآذان وجيوش عسكر.. تحدثت تهاني في غرفة اعتراف مغلقة من مقهى يجترّ أحلام العشاق المنتظرين أو سراق الوقت. تأوهت وهي تعصر محجريها من واكف دموع تسحّ بلا توقف، نشرت غيمة سوداء جرت

خلفها أرتال سحب قاتمة. أم تسوق عوز أبنائها بين القلوب الرحيمة. غابت بصمت وعادت بحقائب مشحونة بالوجع، كنت أخالها طوت ذاكرتي للأبد تحت طائلة الخزي... كما قطعت كل الحبال التي تصلني بها جراء القهر والكرامة المسحولة على مرأى وضيع منها؛ فهل أترك لها حبال الصمت أم أجازف بعبارة تسحب دلاء الحكي فسألتها عن زوجها؟ قالت وهي تعصر دمعة يتيمة:

ـ الله يرحمه.

ـ الله يرحمه (لم يكن في جعبتي أكثر من ذلك).

ـ مات في سكتة عقب عودتنا من القاهرة.

كانت تريد تمرير رسالة اعتذار عن سبب انقطاعها الشهرين الفائتين، ثم استرسلت في سرد حكايتها معه وهي ترتشف فنجان الاكسبرسو إضافة إلى ما سبق قالت:

لقد أخفيت عنك كثيرًا من حكايتي التفصيلية، فأنا من أسرة فقيرة، أنا الرابعة بين ثلاث أخوات سبقنني إلى سجن الزوجية لكسر أنصال الفاقة، وهربًا من أعين تتصنع الرأفة. توفي أبونا بلا مأوى، البيت الذي نقطنه بالكاد نتدبر أجرته من المحسنين. رأيت أخواتي يتقلبن بلظى حارقة مع أزواجهن فآليت على نفسي أن لا أسلم روحي للأبواب المختصرة والغوايات الناجزة، فعكفت على دراستي حتى وصلت إلى مقاعد الجامعة، وهناك بدأت خيوط اللعبة الأسخن وعبر أستاذي الذي تحريت عنه.. اكتشفت أنه موسر لا يشكو من علة مادية، فطفقت أزاول معه لعبة الإغواء.. استمرأت لذلك، حتى أوقعته في فخ نجابتي التي يعشقها كل أستاذ في

طلابه.. ثم نصبت له شراك الدلال والغنج المندلقين من صوت يقطع نياط القلب، ويفكك رباطة جأش الرجولة، في أيام يسيرة اقتحمت مكتبه، فعرفني من صوتي الذي يساكنه ليل نهار، فتهاوت بقايا الحصون، فاقتحمته بكل جبروت الصبا والجمال، ورميته بكل سهام الغواية التي وهبني الله إياها، حتى خرّ صريع رغباتي مفسحًا لي الطريق فورًا، فاستعمرت كيانه وتمّمت استحكاماتي، فأصبح لا يرى الكون إلا من خلال وجهي وصوتي.. نقضي الليالي نلهب خيوط الأثير بكل شيء من فلسفة وتاريخ وأدب، نلتقي في أماكن معزولة وآمنة أمنحه لمسات خفيفة من جسدي.. بما يفجر براكين الرغبة، ثم أنسل بهدوئي تاركة إياه في عذابه. قلت له: لن تنال مني ما تهفو إليه نفسك إلا بصكّ شرعي موثق.. فلما طال أمد ترقبي تمنعت عنه.. فزاد أوار اشتعاله.. فتواريت عنه موصدة كل الطرق الموصلة إليَّ.. أسبوع واحد كاف لإنضاج الحيلة وقربه إلى شفا المبتغى، فنطق أخيرًا وبعبارة لم تستعص على لسانه طالبًا يدي بشرط السرية التامة.. وبتردد مقابل وافقت بشرط منزل يملّكني إياه بصك شرعي.. وفي ليلة العرس الذي تمّ في غضون أيام قادني إليه فكان جنتي التي سعيت حثيثًا للوصول إليها، كان بمثابة منتجع ثقافي له ولثلة أصدقاء من الجنسين، وأنا سيدة الليالي المغدقة بالثقافة، فيه تعرفت على أكثر مبدعي الوطن، منهم أبو بسام، وهو الصديق الأقرب لزوجي ومع ذلك لم يتورع أو يحفظ حرمة الصداقة؛ بل طفق يراودني عن نفسي بما لديه من معلومات خاصة وسرية عن حالة زوجي الصحية التي لم تكن تعينه على ممارسة حقه الزوجي معي، فكبدني حرمانًا

أتجرعه كل ليلة.. مرة قال لي أبو بسام صراحة إنه سيعوضني عن هذه المتعة وبشكل مرضٍ تمامًا، فما إن أعوزته الحيلة برفضي القاطع لمجرد الخيانة تلميحًا ثم تصريحًا، حتى دسّ لي رباب لتكون همزة وصل بيني وبينه فتمنعت بإصرار. وكان الطريق المعبد لصداقة متينة مع رباب، تعمقت علاقتي بها وأحببتها أو بالأحرى عشقتها، وكانت عوضي الأمثل عن فاقة الجسد، وهي التي كشفت لي عن زوايا غامضة في متعة الجسد فكنا نجرب أصوات الذكور فقط من خلف حجاب الأثير بما يكفي لتفجير طاقاتنا ويغيّر من ذائقة متعة أجسادنا.. صدقني كان الوحيد الذي أسلمته جسدي كاملًا وبإرادة كاملة.. فزوجي الطيب جدًا، صار لي مثل أب حنون عوضني عن أبي الذي لم أشتم رائحة حنوه قط.. ويوم وافاه الأجل فقدت روحي معه، فهو ملاذي من صلف الحياة التي لم أرها إلا من خلاله، ولم أتعرف على قسماتها إلا بين يديه، كان يكتفي مني فقط بأن أستلقي أمامه عارية ويجلس يداعب غليونه بين يديه وعيناه تجوبان جسدي بتلذذ وحسرة.. في بعض المرات أفيق على حشرجة بكاء مكظوم، فأقترب إليه أمسح على شعره وأهدهده كطفل صغير حتى تغفو عينه. لقد أحدث فقده زلزالًا جوانيًا لا أحتمله؛ لذلك لجأت إليك فأرجوك لا تتركني، فأنت وحدك من أثق به، وأريد حمايتك.

مدّت يدها نحوي وضغطت بأناملها أطراف أصابعي.. ثم نهضت استعدادًا للرحيل وقبل أن تولي مدبرة قلت لها:

- تهاني، لن أتركك ربما مصيرنا واحد، فقط هناك أشياء أريد الانتهاء منها .

ـ هل تعدني؟

ـ أعدك.. أعدك حتى لو مزق البين المكان بيننا.. سأتصل بك.. طرق التواصل كثيرة.. نختار منها أو كلها.. لا تخافي. غدًا.. لا أقصد بعد غد سأرتب للقاء نحدّد فيه كل شيء. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

خرجت ورأسي يتزاحم بالأسئلة والوقت والانتظار. أيها يصرع الآخر؟ لا أدري. ربما مذاقها الذي لا يزال في فمي.

فاجعة تقطع الحبل السردي

1

أوصدت السيارة لصق الحائط، تاركًا فسحة كافية لمرور السيارات المنسلة عبر الشارع الضيق، صعدت إلى العم بداح أستنهض همته للوقوف بمعاونتي، فلم يسأل عن السبب مكتفيًا بقوله:

ـ (تبي نروح).

قلت له وأنا أردفه بكلتا يدي:

ـ يالله شدّ حيلك، الليلة معزومين.

لملمت أوصاله ونهض بعسر أثقلني وكأني أحمل جملًا. تلمس خرجه بعينيه الكليلتين. ألقمه كاهله المثقل بالمرض والشيخوخة. مسح بيده على جبينه ثم مرّرها على وجهه وكأنه يتفقد ندوبه، ومسّد لحيته حتى آخر خصلة منها، حتى ناهزت أصابعه تعويذة الجنية التي لا ينسى أبدًا الاطمئنان عليها، فلم تكن في مكانها.. امتقع وجهه بصفار باهت، وتأرجحت عيناه بذعر طير لبابه.. للتأكد أقحم يده في جيبه، ثم شد إليه الخرج وهو يتساءل بفزع مسموع:

ـ وين راحت.. أنا ما فسختها من أربعين سنة!

ـ وشي يا عم بداح (سألته).

ـ القلادة.. تعويذة الجنية..

ـ دوّرها تلاقيها، طاحت وإلا انقطع الخيط.

ـ لا، الخيط من صوف الغنم ما بينقطع.

تشاغل عن أسئلتي بالتنقيب عن القلادة.. نثر خرجه وهو يتكئ بجسده على الجدار. أقعيت ألتقط الأشياء معه وأعدها بلا جدوى.. والوقت يمرّ سريعًا، وبتوسل قلت له:

ـ عم بداح.. خلنا نروح هالحين وإذا رجعنا ندور عليها ما هي ضايعة.. لا تخف.

بتردد استسلم لرأيي ومشى وأنا أعضده، محاذرًا سقوطه وكأنه يقتلع قدميه من جوف الأرض.. فما أن رأى الدرج حتى استشعر غثيانًا ألمّ بمعدته، فهوى جاثيًا على ركبتيه، قريبًا من حافة الزلفة الأولى. دوى بصوت مفزوع:

ـ ياركايب الله.. ياويل ويلي.. ردني ياولد.. رح أنت.

ـ عم بداح ما تبي تشوف الناس، وتتعشى لحم.

ـ ايه بس هالدرج ما اقدر عليهن.

ـ أعاونك.

ـ أجل على هون.

بدأنا رحلة الهبوط. زحف وأنا أرفده من الأمام؛ متوخيًّا الحذر كي لا يخرّ على أم رأسه فيهلك عن بينة.. يا الله، لم يكن كذلك يوم جئت به من المستشفى. لعل مداومة القعود شلّت قدميه، أخذ منا النزول إلى الدور الأرضي وقتًا طويلًا. وصلنا وجسدي يشر بالعرق، ورائحة بداح تفوح بمخلوط غريب من العرق والتنباك ورائحة فمه ورائحة أخرى

لم أفرزها. أركبته في المرتبة الخلفية، وقفت أمام الباب انتظارًا لخروج صلاح برفقة بخيتة. ثمة فتيات يتقاطرن من بيت بخيتة والبيتين المجاورين له، بحلل قشيبة وعباءات سوداء لامعة رسم عليها أشكال فراشات وطواويس بألوان ذهبية وفضية، يتعمدن حسر العباءات عن سيقانهن ليبرز ما خفي من بهرجتهن الداخلية. يلوحن بأجسادهن المفتولة بمجون فاضح. توّجت بخيتة هذا الكوكبة بفستان عرس ينتفش من الجانبين. يمسك صلاح بغطاء وجهها خشية السقوط حتى ركبا السيارة الجديدة، التي تقدمتنا مستلمة الطريق العام. تبعناها في موكب مهيب باتجاه الدائري الجنوبي وقريبًا من مصنع الإسمنت.. اقتحمنا إحدى الفرجات المؤدية إلى مرور محلي، ومن بين الشوارع استلمنا طريقنا باتجاه استراحة كانت هي الأقصى بين الاستراحات المتناثرة هناك. وحاولت سحب بداح الجاثم في قعر السيارة دون جدوى. ثم قدم شابان بعضلات مفتولة انتشلاه معي من قراره المكين، وحملاه إلى السرداق الكبير ووضعاه في صدر المجلس فألقى عليه حشمة وجلالًا. تقاسم الشباب مهمات الضيافة، ممسكين بمباخر تثوِّر دخانًا رصاصيًا، ودلال قهوة لم أذق مثل نكهتها من قبل. وبين البشرات السود بدا وجهانا أكثر نصاعة. كان صلاح يروغ بين الرجال الواقفين والجالسين، يمنحونه مباركاتهم ويعلقون ابتسامتهم المغتبطة به مثل أوسمة انتصار مجيد، وعند الساعة التاسعة دقّت الطبول عند النساء وبدأت سامرياتهن وخبيتياتهن، ثم دعينا من صوت ينادي عند حلق الباب لدخول صالة العشاء القريبة من أصوات المغنيات. حملنا بداحًا وأجلسناه في صدر

المائدة المستطيلة أمام صحن (المفطح). وبدأت أفتل له من لحم الظهر والأكتاف ألذّه وأطعمه، وهو يوسع ما بين أصابعه ليحشو أكبر لقمة أرز ممكنة يتبعها بكتلة لحم. كان يأكل بصمت منحنيًا كبعير يُعدّ للنحر. الشباب الصغار يتندرون عليه ويتهامسون ضاحكين. أكل الجميع دونما إبطاء ثم نهضوا، بينما بداح يحرث بيده الأرز وينتزع اللحم بلا هوادة، يأكل بشره وكأنه يحفر في رمال سافية. انطلقت سامرية من حناجر الشباب صافية على إيقاعات الطبول. تركت بداحًا يعوض ما فاته من أكل دسم طيلة فترة النقاهة. عدت إليه وقد كفّ يده. أكل بعشرة بطون. . حتى لم يبق من ظهر المفطح سوى العظام. مسحت يده بقراطيس البرتقال وقشوره، وتركته يرخي جسده مغمض العينين في مكانه، لا أدري هل أثقله الأكل حدّ النعاس. أم أنه يتغرغر ببقايا أنفاسه لنومة أبدية أخيرة. عدت إلى الطبول والأصوات الشجية، والأجساد الدائخة في إحماءة للسقوط الزاري. ابتعدت قليلًا مخافة أن تجذبني دوامة هذه الطبول فتسوقني لا إراديًا معها في دورتها الكاملة. وقفت أرمقهم من بعيد، ثم لمحت صلاحًا يدخل من الباب الخارجي الكبير متجهًا إليَّ. طلب مني اللحاق به، فتبعته وأقدامي تسابقني. دخلنا على الشق المخصص للنساء. قال لي وهو يتقدمني في عجلة من أمره:

ـ الليلة ستشهد احتفالين، الأول حفل ارتباطي ببخيتة، والثاني وهو الأهم حصولي عن الجنسية، خذ راحتك على قدر ما تستطيع، وقفت بمحاذاته وهو يجلس إلى جانب بخيتة على الكرسي ذي القوائم المذهبة، وسط الغناء والزغاريد، والراقصون من الجنسين يتمايلون برشاقة عالية، تجلّدت

مكاني والخوف يلازمني من تكرار التجربة إياها.. اليوم رأيت وجوهًا بيضاء وشعورًا ناعمة وأجسادًا مهفهفة، تخالط الوجوه السمراء والسوداء بالشعور المنعمة والمنفوشة بالأجهزة الحرارية، كلهم رقصوا بما فيهم بخيتة وصلاح الذي شدّني من ذراعي نحو الحلبة، رقصت مسكونًا بالذعر المتنامي من السقوط. انتهت الرقصة بسلام. أخذ الليل يكشح بلمعة الأثواب المزركشة بالزري، وعيني تغشاها لمسة النعيم البادية على ملامح الفتيات الحسان، لم يعد ثمة سوداء قبيحة وأخرى بيضاء جميلة، تجلّت من بينهن ندى تشبك أصابعها بأصابع تنعيم، أقبلن نحوي بجذل يتقاسمنه بخبث، يرشقنني بنظرات متشفية، لم أتزحزح. ابتدرتني ندى بقبلة مسالمة، وكذلك فعلت تنعيم. لعبة التحدي قبلتها بعناد، لن أترك لهن فرصة التلاعب بي. تنعيم تبتغي التحقق من مشاعري تجاه ندى، وندى تتوخى إثبات إخلاصها. أخضعنني تحت إرادتهن. رقصنا وطربنا حتى تماهى الليل مع خيوط الصباح، وعروق شمسه تتخلل خميلة الليل الواهن.. عدت إلى رفيقي العم بداح، وقد بلغ بي الإعياء المخلوط بالمتعة الاستثنائية مبلغه. ألفيته لا يزال مضطجعًا على شقّه الأيمن متوسدًا ذراعه، أقعيت فوق رأسه، أناديه كي يخرج لي قاعه السحيق فلم يستيقظ. هززته أكثر من مرة، دفعته على ظهره، كان جسده ثقيلًا؛ ثقل حجر، بلا شخير، بلا نفس يشي بروحه، سارعت مستنجدًا ببعض الشباب المتأهبين للرحيل، فتراكضوا يحملونه معي للمستشفى. وهناك ختمت الورقة الأخيرة من حياة هذا البطل. فهل أودعه، وأندب حظي على نهاية شخصية لم تكتمل حياكتها بعد؟ أم أردم فوهات الحزن

التي تفتفت داخلي؟ انتابني أسى حارق. ومساءلة ملامة موجعة، كيف أطلقت له العنان وتركته يأكل بلا هوادة، حتى تفجرت شرايينه وأفضت روحه إلى بارئه. رزئي به لا يتسع له جوف أحزاني. الأحزان التي طفقت تتنكر لي وتشير بأصابع الاتهام الكاوية نحوي،جريمتي في حقّه فادحة، لم يكن ضيفًا عابرًا يمكن نسيانه، ثلاثة أشهر صرمناها معًا بكل دقائقها.. أستمطر حكاياته من لسانه اليابس، كان ينتظر نهاياته بصمت. هذا كل شيء، كأن روحه تنشد الخلاص في لحظة حاسمة، القدر يطوي ما بقي من أسراره إلى الأبد. أمسى رأسي يعتلج بأوصاب العالم وهمومه، كيف نصدّق جدية الموت الذي يقتطف الأرواح فجأة؟ روحي مشتتة منشقة ترفع عرائض احتجاج وتعلق لي مشنقة اللائمة، غادرتني سكينتي إلى غير رجعة. لم يبق لي سوى تطواف المدينة التي نفخت على مرأى منه. لم يخصص له حيزًا منها ولم تمسه بمسحة من نعيم ولأنه لم ينحن قط لعهرها، ليؤول بتعاسة تنفطر لها القلوب إلى حفرة على مقاس عظامه الكبيرة.

تداعت أمامي الصور تترى. من يوم قابلته للمرة الأولى في خيمة السطحات حتى افترش الأرض جثة هامدة. هرولت بأنفاس متقطعة هاربًا من وجه الموت المتلبث بالمكان. التقطت مقود السيارة بشكيمة، مفرغًا جيوبي من كل العوالق. اصطادت أصابعي المرتعشة الكليلة حلقة مفاتيح حائلة اللون، أحسست لحظتئذ أني مغلول اليدين مكبّل الإرادة، الحلم الذي نما من بين أصابع الوقت فجأة أسقطه رحيل بداح كحجر صغير في خضم أمواج متلاطمة، لم أكن حالمًا

قط حتى التأمت الصدف التي ساقتها الظروف وجعلتني أخطّ أول حرف من رواية لا متخيلة. لم أخل أن الواقع أليم بقدر غير محتمل، لا بل مهلك، اليوم استعدت مدينة ماكندو ماركيز وشخصياته المتوهمَة.. خوزيه أركاديو الحالم وأرسولا الملتصقة بأرض الواقع كقوقعة مائية لتنجب جيشًا من الرجال والنساء متشابهي الأسماء، مختلفي المواهب، متنوعي الأهواء. ليتني اختلقت شخوصًا ووقائع مزعومة، وألبستها حياة متخيلة، كنت أعفيت نفسي من مغبة التورط بأقدارها الحتمية.. يا لأنانيتي المغموسة بالنفعية المقيتة والاستهانة بالآخرين حدّ النذالة. اكتشفت بما يشبه الومضة كم كان بداح حالمًا نبيلًا. صمّم حلمه على مقاس قلبه ومضى يذرع الصحارى والقرى والمدن منقبًا عن حبيبته وأم ولده الذي لم يره قط. ما أقسى أن يموت الناس باستسلام مطلق مفرغي الرؤوس من الأحلام، وما أروع أن يتوسد بداح حلمه ويكفّن حبيبته معه. لقد قاسمته الأحزان والأفراح، الطمأنينة والخوف، حتى ضغطت الأقدار على آخر ورقة مخالصة وضغط على زناد مسدس محشو بطلقة واحدة ليؤول إلى سرّ الله الكوني. مات وعيناه شاخصتان وشفتاه ممطوطتان وكأنه يجتر أبيات قصيدة أنشأها من رحم الغياب. وما أتعسني، حقارتي لا توازيها حقارات العالم ودناءاته. عاجلتني سيول مشاعر وأحاسيس حارقة، لم أقدر على تمييزها أو سبر أغوارها أو فرزها بما يوائم عمق الحزن والتشتت الهادرين داخلي، أنا المستنقع الآسن، تسلّقت حلقي مرارة وافترشت لساني حموضة فاسدة. بتّ خارج نطاق المعقول، ففي حالتي وأنا مقابل تمامًا لبوابات البؤس أراها تفتح لي مصارعها،

وتنفش أمامي كل الحكايات التعيسة، فمن تهاني وصاحبتها رباب إلى بخيتة وفرقتها وتفانين وتنعيم وصاحبتها ندى مرورًا بصلاح المدني وانتهاء ببداح. خالجني شعور مسكون بالوحشة ومغلف بالمقت.. حقيقة لا أدري إلى أيهما أنحاز. أضحى الفضاء أمامي شبيهًا بمغارة، والمدينة مثل حلق ثعبان يلتف على فريسة دسمة. هذه المدينة التقمت النازحين إليها من كل حدب وصوب وغرست سمومها في قلوبهم وعصرتهم، حتى لم يبق منهم سوى أفواه مفتوحة وألسن لاهثة خلف لقمة العيش بشتى الحيل. كلهم استسلموا صاغرين عدا بداح لم يدلدل يديه أمام الناس فاقة، ولم يشرع وجهه المرقش تسولًا، كما يفعل الكبار والصغار؛ فقط لأنه أشعل فتيل قلبه بالحب وأوقد لهيب روحه بالشعر، وأطلق قدميه للطرقات وكأنه سيد المدينة الأزلي، مات وهو سيدها شامخًا لم تغلبه ضعة الحاجات.

فوق أكتاف المدينة الغربية انتصبت متحرّرًا من قيودها وشكيمتها. تفرست في سحنتها الليلية، أبصرتها للمرة الأولى تسبح بنهر من الإضاءات البرتقالية لتبدو كفوهة بركان يثور، يلتف حولها عقد ناري، تشكلت أمامي غولًا محاطة بعقد مكين.. قدرت مدى هوان الناس وصغارهم وهم جاثمون بين قدميها كعباد صالحين، حتى أولئك المخلقين من عجينة مغايرة لا يجدون فيها ملاذهم الآمن فركعوا خاضعين لجبروتها، هذه لعنة المدن المصطنعة تتحرك دائمًا مشمولة بالطاقة. من يقترب منها يسقط في جوفها كقشة في مهب ريح أو لنقل كحبة حنطة تحت رحى ثقيلة، وقفت والهواء يلفّني من كل اتجاه، أقشر ما علق بروحي وقلبي

خلال أيام مهلكة. حضرت معي الوجوه بقدر ما غابت.

كانت تتراءى لي. تهزّ أمامي أذرعها الطويلة كساحرات ليل تستحثني للارتماء بين أحضانها باستسلام مطلق.

هذه هي اللعبة التي تجيدها المدن العصرية، تحمل كل الصفات المتناقضة، الحوت، البركان، الرحى، الخديعة، الغواية، وقد يصدق عليها أيضًا وصف عربة المجانين، الذين يرونها تسحقهم رأي العين فلا يرومون خلاصًا، ولا يحسبون لأعمارهم الفانية أي حساب حتى يواريهم الثرى. هذا العلو الشاهق منحني وهدة وسكينة، غسلت روحي من أوشابها ونقّحت رأسي من كل النجاسات، لذلك قرّرت أن «لا أعود»، ربما يأتي يوم وأقدم إفادتي أمام قضاة عدول عن كل أشكال القهر الذي تجرعته شخصياتي في عقر هذا الفم المحشو بالأغبرة ليل نهار حتى ضاقت الصدور وتلمست لها عن متنفس في عقار الفونتولين.. هذا أيضًا من صفات المدن المصطنعة، لا يستقيم حالها إلا بالدفع، فحينما تقرر العيش في مدينة متلبسة بالغرور والأنانية فلا مندوحة من الدفع، والدفع بكل شكل ولون. صلف الحياة هنا يدفعك لاتخاذ قرارات سريعة وعنجهية كما اتخذت قراري بكتابة رواية.

موت النص

ثلاثة أسابيع مشحونة بالأسى وملغّمة بذاكرة حزينة، فتحت بعدها جوالي المنكس بصمت كما تنكس أعلام الدول حزنًا؛ لأجد عشرات الاتصالات والرسائل من بخيتة وندى وتهاني التي بدأت رسائلها بقصائد الاشتياق وانتهت بعبارات العتب، وحتى رباب تزامنت رسائلها مع رسائل تهاني ففهمت الحيلة، ورسالة غريبة من أبي بسام يقول فيها: لو سمحت أريد مقابلتك حالًا، وثلاثين رسالة تقريبًا من صلاح أهمها هذه الرسالة التي يقول فيها:

(صديقي الذي بعثه لي القدر في ساعة مجهولة من العمر، غيابك أحدث في قلبي فجوة، تعبّأت بألم فاسد وخوف شيطاني خبيث عليك، غيابك أقضّ مضجعي وشرد النوم من عيني، وبعثر سكينتي، فلولاك لما حصلت على الجنسية، ولولاك لما أصبحت بهذا النعيم الذي أتقلّب فيه، ولولاك لم يصبح لي بنت أراها مثل القمر حتى لو لم تكن من ظهري، فقد تبنيتها أو قلّ نسبتها لي، ولولاك لم أستشعر احترام الآخرين لي، ولولاك لما عرفت قدماي طريقها إلى الصراف الآلي، ولولاك لما اعترف بشهادتي الجامعية، ولولاك لما كان لعقالي الذي أضعه فوق رأسي أي معنى. فأنت صاحب فضل كبير ومعروف لا مقابل له. صديقي:

أعلم أن ما سأخبرك به الآن قد يضاعف رصيد آلامك: فقد اتصلت بنا إحداهن تخبرنا عن الصلبية وطفا: قالت العجوز إنها لا تزال حية ترزق ولديها أحفاد. أنتظر ردك، كن بخير يا صاحبي).

لقد ضاعفت هذه الرسالة من مقتي لنفسي، فماذا عساي أن أجيبه؟ هل أعترف له بأنهم كلهم كانوا ضمن مشروع رواية كنت أعدّ لكتابتها؟ هل أكشف له خديعتي، وأنانيتي التي أودت بالشيخ بداح إلى القبر؟ حتى هذا الخبر لم يعد ذا قيمة تُذكر وبداح تحت الثرى، لا فائدة، صدقًا لا فائدة، هذا العبث لا فائدة منه، هل سأعلن لهم قدر كمدي على موت بداح؟ هل سأعترف لهم بما اقترفته نواياي الخبيثة كي أحيلهم حطبًا لحلمي المتمثل في كتابة رواية؟ حتمًا لن أستجيب لدعواتهم أو حتى رسائلهم. لن أعود، لن أهوي في جوف الخديعة؛ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين هكذا علّمتني المدرسة؛ اليوم فقط وعيتها.

كيف أبرهن على ندمي؟ فهل يكفيهم ويكفيكم الاعتذار؟ الاعتذار عن رواية تنهض على آلام الناس وحسراتهم وبؤسهم، والاعتذار لكم عن نكث عهدي معكم.. يكفيني منكم أني قضيت معكم أوقاتًا رائعة، فكنتم أصدقاء لمن لا أصدقاء له. أخيرًا: حذار أن تقعوا فريسة سهلة لقلم روائي.. كونوا مع الشعراء، فهم أصدق.. وإن كذبوا فأجمل.

دمتم بخير..

لحظة من فضلكم

أصدقائي المخدوعين.. ليس ثمة ما أخسره اليوم.. فالفادحة أكبر من نصّ يُكتب في خلوة ليلية بمؤامرة دنيئة. من حقكم معرفة ما كنت أخبئه عنكم، لذلك سأنثر أمامكم كل الأوراق. خذوها كما هي لن أجهد نفسي بترتيبها زمنيًا، أو تنقيحها أو إعادة صياغاتها.

المحذوفات

1

تفاعل حجر المعسل مع ثلاثة كؤوس بيرة سابقة ما زلت أتجشؤها لأكتشف في لحظة أنني الأصغر والأجمل بين هؤلاء (الشيبان). فقررت وأنا مزهو بنفسي ألا أعبأ بتخاريف صاحبنا وهو يستعرض معلوماته عن جامع الحسين، وأكاد أجزم أنها من نسج خياله؛ المهم أني تركته يرغي بما يشاء وأطلقت لعيني حرية اقتناص المشاهد اللذيذة، والباقي يطول شرحه، والرقابة لن تسمح بإيراده. . أكتفي بهذا القدر ولكم أن تتخيلوا ماذا حدث بعدما تركنا الحسين بمعية هؤلاء الصحاب.

2

مرة واحدة صادف ملكًا. كان يتقدم أغنامه مع جموع الناس المصطفين طلبًا لكراماته، فقد كان جزل اليد كريم العطاء. مرّ الملك بهم فودَّ لو التمس منه إصدار أمره بالبحث عن صلبيته فتيبس لسانه وعجز عن الحراك إلا من قصيدة قفزت إلى لسانه وترنَّم بها على مسامع الملك، فقابله بثلاثين ريالًا كانت بمثابة ثلاثين ألف ريال، ابتاع بها أجود الأغنام. ويوم مات بكاه بحرقة مثل كل الناس الذين باتت أعينهم

شاخصة جهة السماء، منتظرين سقوطها، فما بعد الملك الكريم القيامة. لم تبرد أعينهم إلا بعد ردح من الزمن، إلا «بداح» الذي ظلت ذاكرته متعلقة به، حتى وهو يرى الناس متسمرين أمام شاشات التلفاز الذي دخل حياتهم على استحياء ومواربة، يشاهدون بشيء من الفخر.. مليكهم المحبوب عالي الهمة وقوي الشكيمة فيصل وهو يتحدث في موسم الحج لم يكن يعيرهم أي انتباه، وهو يرى الناس يتضوّرون من الجوع وتشقق وجوههم وأيديهم الفاقة لا يعرفون من الأكل سوى الأرز ولحم الجمال أو الخرفان في المناسبات. أما الفواكه فهي من أسماء الشعوذة، يتعوذون الله منها ليل نهار، ويطلبون منه حمايتهم. يذكر بداح وهو يضحك أنهم أول ما رأوا الموز زاغت أبصارهم، واكتست وجوههم بعلامات الاستغراب والدهشة والتعجب من خلق الله، لجهلهم بها، بعضهم أكلها بقشرتها فكانت لذيذة طرية على بطونهم الطاوية من الجوع، أما المعلبات فلها شأن آخر، فلم يكونوا يعرفون هويتها فأسقطوها في قدر الطبخ، تحديدًا معلبات الصلصة التي وضعوها مع (المطازيز) و(المرقوق)، ثم يترحم بداح على شبانة أحد أعيان حي الصالحية الذي تزوّج بشامية قدم بها بعد غيبة طويلة.. ربما يكون شبانة من أوائل الذين تزوجوا من خارج الحدود. يقول بداح: في أحد الصباحات التف الناس أمام باب داره يضربون أكفهم ببعضها تحسرًا وحنقًا على شبانة الذي تسرب من بيته حليب أبيض مزبد، تمدّد على قارعة الطريق فتوهموا أن الشامية من كفرها وبطرها تغسل بيتها بحليب النوق منتظرين عقاب الله لها. فكانت المرة الأولى التي يتعرفون

فيها على شيء يقال له صابون مما جلبته معها من الشام.

يموت الملك فتصيبهم حمّى يوم القيامة، وكأن السماء ستسقط عليهم كسفًا وأن الأرض ستزلزلهم. . بكت العجائز وحزن الصغار رثو الثياب مشققو الأرجل، وهم لا يدرون أي نعيم ينتظرهم على يد القادم الذي سيفتح لهم من أبواب واسعة، وهو الملك خالد، هذا القلب الكبير، والروح الرطبة، جاء يسوق أمامه رياح الطفرة لتنقلب حياتهم رأسًا على عقب.. يومها استغنوا عن كل شيء في سبيل انتهاب مقدرات الأيام الدسمة، حتى أنهم كانوا يأتون ليلًا ويطؤون نساءهم مصادفة نوع من الحشو مشابه تقريبًا لحشو الكوسة باللحم يضحك بداح ويعلق: مع أني يا أخوك ما أحب الكوسة.

3

هرب بداح عن أعين عيال أبي قوس المتربصة في شارع الجديد، فقد تلقن الدرس منهم جيدًا عندما تلقوه منفردًا ساعة الأصيل ونفضوا ثيابه وأفرغوا جيوبه من القرش والقرشين والأربعة قروش وهربوا بها فرحين، مسرورين إلى بقالة أبي سعد ليبتاعوا بها علك «أبو طابع» و«أبو فسوه» وصندوق بيبسي يقامرون به الأولاد في لعبة طاش ما طاش. «جحلة» الشاهد الوحيد على حادثة الاعتداء، ومن ساعتها وهو يتجافى المرور بين أيديهم ويحذرهم، حتى يصل بيتهم بسلام ويضع نقوده في حصالته الصغيرة، ثم يعود لاصطياد (القبص) الجراد الصغير و(البعارصا) البرص أو الوزغ.

4

في المساء وعلى نسمات الهواء العليل ورائحة القهوة وتنباك بداح أتبع حكاياته، كانت الذاكرة وتباريح الماضي يعتلجان في رأسه وكأنه يشاهد صورها بعينيه، فما هي حكاية البراد التي طالما علق عليها قائمًا قاعدًا بقوله (الله يرحمك يا راعي المبرد الصغير) كم أعجبتني تفاصيلها اللذيذة وما أعقبها من أحداث تستحق أن تأخذ نصيبها من الرواية تحدث عنها العم بداح.

5

كما يقول بداح (المبرد) فأنا لا أذكر من طفولتي شيئًا كثيرًا، مثلي تقريبًا مثل كثير من الأطفال الذين ولدوا زمن (الطفرة) لذلك فمعارفي ناقصة وأدخل في زمرة المرفوع عنهم القلم. متى عرفت نفسي؟ لا أذكر، ما أذكره أني عثرتني خلف مقود الونيت الذي يحنّ كساقية؟ أفهمني بداح أن المبرد مفردة يطلقونها على ما يعطَونه من أموال بمقابل أو دون مقابل، وهو قصبة يعني (ماسورة) قدرها ربع بوصة تخرج من (ماسورة أكبر قدرها عشرون بوصة تصبّ وسط بركة واسعة تُسقى منها حياض المزروعات عبر سواقي صغيرة، ومع ذلك لم يكونوا راضين تمامًا عن المبرد ربع البوصة الذي أخرجهم من «ثليم، والمرقب، وحلة العبيد، وحلة القصمان، والظهيرة، والعجلية ومنفوحة، والطرادية»، ويعلق ضاحكًا الربع بوصة أخرجتهم من «العير» جمع عاير

وهي مفترعات الأزقة الضيقة حيث كان يشترك الكبار والصغار في الجلوس عندها. الربع بوصة أنستهم بسطة دعلوجة وعشش الحمام والمهفة الخوص، متذكرًا الرياض الذي لا تشتدّ زحمته إلا (دويرة الخرج) وطريق خريص ساعة الغروب. يااااه بداح يتذكر زحام طريق خريص يا له من أزمة أزلية لم تنحل إلى يومنا هذا، حتى مع وجود البوصة أم ثمانين، التي لم يسحب منها الربع كي تبرد على (الموكوسين) وخائبي الرجاء وضحايا الأسهم.

6

المبرد الصغير برّد قلوب الناس، وأخرجهم بحركة بهلوانية تشبه ركلة مقصية مباغتة، على إثرها ثمنت البيوت الصغيرة الشبيهة ببيوت العناكب ومنحت الأراضي ونهضت أحياء جديدة كانت إلى وقت قريب مأوى الثعالب والكلاب في السويدي والملز والربوة ومشرفة. اشتغل الرجال بلملمة الفائض من هذا البراد الصغير، وطواحين الطفرة تعصر أوقاتهم وتحصد أعمارهم، ركضوا في كل ركن ينبشون كالحلم عن كنوز مخبّأة، يتراكضون كالباحثين في لعبة الكنز المفقود. جحله صاحب (السيكل) ظهر ذات مساء يقود «جيب» ربع، مكشوف السقف فالتف حوله بعجب صبيان الحارة للفرجة، فأمرهم بمساعدته في فكّ الصناديق المحمّلة فوق ظهره لتثبيت المراتب وتركيب السقف، فلم يتوانوا لحظة، وهم في ضحك وحبور حتى اكتمل بناء الجيب الصغير؛ وكمكافأة لهم أخذهم معه إلى مصنع البلوك الذي

شيّده والده أخيرًا في طريق الخرج، فمن صندقة كبيرة لبيع العلف إلى مبان عالية الأسقف وعمال يملؤون الممرات وينتشرون داخل المصنع، رأوا للمرة الأولى كيف تخرج عجينة الإسمنت الطرية من فوهة آلة كبيرة مستطيلات يابسة.. وهذا سرّ انتعاشتهم وانتقالهم كأول المنتقلين عن الحارة إلى حي الملز، فهم من طلائع من طالهم البراد المنعش بلمسته السحرية ونقلهم إلى حياة أخرى، بدأت الحارة تخوي من سكانها، ووجوه تمتطي قارعة الأرصفة، مثل أبو عرب السوري الذي قدم عرضه للخباز عوض بتطوير المخبز وتحويله من فرن يسخن الأيدي قبل العجين إلى مخبز أوتوماتيكي، يعني آلات متحركة تعجن الطحين وتشكّل العجين وتحمله إلى أفران غير مرئية، لتنحدر من الطرف الآخر جاهزة للتغليف، يومها اختفى الخباز عوض وتيبست ذاكرة الناس بهم، انبعث رجال طوال بلحى كثة يقال لهم أفغان، قلبوا الأفران أرضًا ليصنعوا خبز التميس الذي لم يكن معروفًا آنذاك، فكانت الطابونة المخبوزة بالأيدي والمخرمة بالأصابع توضع في فرن أفقي، أي مواز لقامة الخباز، طعمه لذيذ، وكان يُباع منه ثماني أرغفة بريال واحد، أما التميس الأفغاني الذي يُعدّ من تركة البراد الصغير، فقطره كبير يوضع في فرن منصوب على الأرض يخرم بمسامير مثبتة بقطعة مستديرة تمسك بذراع من فوق..

7

استنتجت مما مضى أن زمن المبرد لم يكن زمنًا نسونجيًّا بل زمن أوراق البنكنوت بامتياز، فلا وقت للانتظار.

إذن الأطفال الذين جاؤوا نتيجة الحشو الإلزامي يمكن تسميتهم أبناء الكوسة. ذلك الزمن إما أن تكون حاشيًا أو محشوًّا. حدثني بداح عن تفاصيل دقيقة عن نفسه، وكيف جلسَ متبطلًا منضويًا تحت ضعة وضعف وقلة حيلة، فلم يحصد سوى مخاتلات نهارية جالسًا في أقصى شرق الرياض، الحي المعروف بالنظيم. يتابع بعين كسيرة وقد تخفّف من أغنامه على يد نورة الأرملة، التي التقطته من بين الأزقة كي تحصل لها بواسطته على أرض وقرض. وبعدما تحقّق لها مرادها تركته هملًا، يلوب الطرقات بعباءته وجرابه، بلا مال أو ماشية يقتات منها قوت يومه، لم يكن مثل الرجال الطامحين المشغولين بالتقاط غلتهم من المنحة الكريمة، كما كانوا يسمونها.

8

مما كشفه لي بدّاح أيضًا ونبّهني إليه سرّ من أسرار تعاستي وشقائي، هو أن ولادتي كانت متزامنة تمامًا مع مصيبتين تاريخيتين هما حركة جهيمان وانقلاب الخميني على الشاه عام 1979م الانقلاب الأول باء على صاحبه بالخسران المبين مع إمكاناته الفكرية والعقدية الشعبوية كيف ذلك؟ لقد امتلك جهيمان قلوب كثير من الناس من الشباب خلال الكتيبات التي كانوا يوزعونها على عتبات الجوامع، كتيبات لم تكن تمتّ لروح الحركة بصلة، مثل كتاب يناقش قضية غريبة،وهي لو سبق ماء الرجل ماء المرأة، وأشياء غريبة عجيبة، ومع ذلك انساق خلفه كثيرون، ولو لم يقصد الحرم

لتنفيذ حركته لوافقت إجماعًا جماهيريًا لا يقل عن جماهيرية الخميني.. جهيمان ومن معه لم يكونوا ينطقون إلا بالكتاب والسُّنة، وأقوال السلف. وجد فيهم بداح الملاذ والمأوى، والمأكل والمشرب، على الرغم من جهله في كثير مما يقولون، ويبرِّر بأن الناس يقبلون على أمثال هؤلاء، حتى لو كانوا متسولين. يذكر بداح أن الموعظة أصبحت بين أيدي حتى المعتوهين والمتسولين، وقد انتشر هذا النوع الأخير من الناس، يقف المتسول أمام الناس عقب كل صلاة ويتحدث عن عذاب القبر ونعيمه، ثم بعد ذلك يعرض أمامهم حاجته. كان الناس متلهفين راغبين في الموعظة، يقبلون على المحدث المتفاقه ولو كانت بضاعته حديثًا مفترى مهما كان من هؤلاء المعتوهين «من عرف بـ«الرجعية» «الرجعية»!! شاب مخبول، أخذت تسميته من لسانه. فساعة يقف خطيبًا أو واعظًا أو متحدثًا بفتتح كلامه عن الرجعية وما أدراك ما الرجعية... بعبارات تثير الضحك وتبقي الناس في أماكنهم مرهفي أسماعهم باستمتاع تكشفه وجوههم المتمددة بابتسامات عريضة، هذا الامتثال لوقوفه بينهم زوّده بقناعة لم تزل تراوده بأنه متفوه وخطيب لا يشقّ له غبار. حتى مات (رحمه الله) لذلك كان لا يقبل بأن ينهض أحدهم من مكانه وهو يعظهم، فما أن يرى أحدًا منهم يهمّ بالنهوض حتى يقعده بصوت جهوري، ووجه يتطاير منه الشرر، وهو يلوح بيده. لا يُعرف له بيت سوى أقبية المساجد، بيد أن الطرقات مملوكة لوقع نعاله، صار مع تقادم الزمن سيدًا للحارات ليلًا

ونهارًا. كان يتصف بسحنة داكنة قليلًا ووجه تزيده استطالة لحية سوداء فاحمة تتوزع على وجهه دون مساس، وكان نحيلًا متوسط الطول.

من صفاته أنه ذو همة عالية لا يكلّ ولا يملّ، يجوب الأزقة مناديًا الناس للصلاة بما في ذلك صلاة الفجر، ويفرّ من وجهه الأطفال حالما يرونه مقتحمًا عليهم لعبتهم المحببة كرة القدم، التي يراها من ألعاب الكفار، بما حفظه من بعض شيوخ ذلك الزمان المتزمتين. يصطادها من بين أقدامهم بمقت وحنق يتطاير من جبينه، مستلًّا من جيبه سكينته المشهورة «المطوية» ويشقّها سريعًا إلى نصفين ويرحل بنشوة انتصار تتفكك لها حبال وجهه. كما كان يلاحق النساء مطالبًا إياهن بالتستر بأقذع الألفاظ المستهجنة التي تثير ضحك الجميع؛ حيث كانت العباءة تشدّ إلى منتصف الظهر.. ولا تجد المرأة غضاضة في ذلك، كما لا تجد أي مضايقات أو اجتراء على عرضها أو حتى كرامتها، ولم يكن يتميز نساء عن نساء في ذلك، عدا كبيرات السن.. الرجعية وحده كان يناهض هذه العادة في التستر، وأحيانًا كان يلسعهن بعصاه الرقيقة الموجعة، فيعذرنه لما يعرفن عنه.

ذات مرة وعلى خلفية حادثة جهيمان حُظرت الخطابة في المساجد لغير المصرح لهم، ومنع منعًا باتًا أي واعظ لا يحمل تصريحًا يخوله ذلك.. وفي جمعة من الجمع، وبعدما انقضت الصلاة فزع الرجعية إلى المحراب ووقف أمام الناس متلقفًا «المايكروفون» بصوته المعهود يحدث الناس، تقريبًا كل من في الجامع يعرفه، الذين جلسوا في

أماكنهم وجدوها فرصة سانحة للترويح عن أنفسهم بالاستماع إلى أحاديثه الفجة.

حاول إمام المسجد منعه بكل الوسائل فلم تجد نفعًا، حتى جاءه من يشدّه من مكانه إلى حيث سيارة الأمن، فزع بعض من يعرفونه في محاولة لتخليصه من بين أيديهم بالتوسل والمناشدة. فلم يذعنوا لذلك صاح بهم أحدهم «هذا الرجعية ما تعرفونه؟ هذا مجنون» فالتفت الرجعية إلى الرجل قائلًا: «والله أنا مجنون بس هاتوا نعالي لا يضيعن تراي شاريهن أمس» فلم يستطع الجميع إخفاء ضحكهم ما حدا برجال الأمن إلى إطلاق سراحه ووجوههم تفيض بابتسامات تلاحقها دموع رحيمة.

9

هل يدرك بداح إذن طبيعة التغيرات الأخيرة؟ هل يعلم أن وسائل التسول تطوّرت؟ فالقنوات الفضائية أعظم وسيلة تاريخية لبيع الفتوى وتسويق الدين بأموال مقبوضة مقدمًا، فكل شيء بثمنه لا أدري لماذا أسوق هذه المتغيرات بين يدي رواية لم تكتمل هل لأن هذا المبرد الصغير قذف بنا خارج الطين ونحن أبناؤه، وغيَّر مذاق رغيفنا وشحن قلوبنا وعقولنا بالمقت؟

10

ثمة تفاصيل كثيرة سآتي على ذكرها أو سردها، وللتنويه أقول: إن كل ما أحكيه الآن هو أرضية لكل ما

سيأتي معنا، لذلك أكرّر لا تستعجلوا. ما سمعته من بداح يستحق التدوين ولن أتحمل وزره لسببين: الأول: أن تقادم الزمن على هذه الأحداث يصل إلى أكثر من أربعين سنة، والعرف الدولي يمنح أحقية تسريب المعلومات، وطرح الآراء حولها بهذه العدّة القانونية، الثاني: إنني أنقلها من لسان بداح، وناقل الكفر ليس بكافر، بمعنى لا خوف علي ولا هم يحزنون.

بعدما انزاحت الغمة بدأ الناس ينتظرون رجالات التثمين بأضابيرهم الكبيرة، لكن المفاجأة الأجمل التي أنعشت قلوب الناس هي زيادة رواتب الموظفين والمعلمين والعسكريين إلى أضعاف مضاعفة، وخفوا سريعًا لشراء الأراضي شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، وما فهمته من بداح أن لكل جهة ناسها وأهلها، فالسويدي والشفا قطنها أهل الجهات الجنوبية والغربية من النازحين من المدن والهجر والقرى الواقعة جنوب الرياض وغربها، وكذلك شمال الرياض وشرقها، فقد استأثر بها تقريبًا أهل القصيم،أما النسيم فقد سكنها أبناء البادية لقربها من الصحراء المفتوحة على مراعيهم، لذلك نصبوا خيامهم في الأحواش، وكانوا مثار سخرية، حتى لحق بهم الجميع في أوقات تالية، وما لم يقلدهم فيه البادية هو تصميم البيوت على نمط غربي إذ كانت البلدية ترغم الناس شططًا على وضع بلكونة تطلّ على الشارع، وأن تكون الحمامات إفرنجية، فكان الناس يحتالون على ذلك بوضع العربي ملاصقًا للإفرنجي، فمتى تمّ استلام

الدفعة الأخيرة من قرض البنك المقدر بثلاثمائة ألف ريال (ولا تزال)، كانت تسلم على دفعات، ناجزوها بالتغيير والتحريف وفق ما تعوّدوا عليه. كل شيء كان ممكنًا عدا فكرة الحمام الإفرنجي، لا أدري كيف جاءت. ما يضحكني هو صديقي أحمد، فماذا يمكن أن يصنع لو أرغم الناس على أن يقضوا حاجاتهم على هوى النظام القديم، فهو مع تطور الوسائل لا يزال يعاني من عقدة اسمها الحمام الإفرنجي، لا يمكن أن يقضي حاجته دون حمام عربي، لذلك يتكبد معاناة طويلة حتى لو اضطر للخروج إلى الخلاء، أما إذا كان الخلاء متعذرًا فيضطر لركوب الصعب القريب من حدود المستحيل، لذلك عادة ما يفقد كثيرًا من أشيائه جرّاء هذه المعاناة؛ فأحيانًا تسقط في جوف الحمام الإفرنجي مفاتيح وجوالات، وأحيانًا نظارات ومحافظ ؛ وأحيانًا يسقط هو وكأنه فوق صهوة فرس وحشي.. يتصور نفسه أنه ذات يوم سيتعثر في إحدى الحمامات الإفرنجية وتبتلعه؛ فهو لا يزال متأثرًا بأفلام الثمانينيات المرعبة، تلك التي تحدث في الحمامات، وذلك الشيء الغريب الذي يتسلل عبر التمديدات التحتية ليخرج من (برج) الحمام ويختطف الجالس فوقه بأريحية كاملة. ذات مرة رفع خطابًا جديًا بضرورة إصدار فتوى شرعية تحرّم استخدام الحمام الإفرنجي على اعتبار أنه تقليد للغرب ولا يحقّق النظافة الكاملة، وصار من يومها يداوم على اقتناء الصحف اليومية بانتظار أن يرفع الموضوع إلى مجلس الشورى، ويأخذ ما يليق به من المناقشات، فهو

برأيه أهم بكثير من إشارات المرور، وعبثًا انصرمت الأيام والشهور وهو ينتظر ولا يزال.

11

خرج الناس إلى أحواش منازل تتطارد فيها الغزلان؛ لأن الخيول ترمح خارج المنزل لجمع الأموال الفائضة من عربة الطفرة، فكل حصان «أقصد رجل» يقول: (الزود عندي)، فعندما يعزم ضيفًا يذبح له جملًا أو حوارًا أو كبشًا حتى كان على الإفطار، وفي المناسبات كالأعراس تفكّ صرار الذهب وتنثر فوق الرؤوس، ويكسي الناس بالبشوت والعبايات والقماش، بما يدفع للعروس من أموال طائلة.. وساعة تصدح أصوات الطقاقات تملأ حجورهن من أوراق البنكنوت، وتهتز قلوب الرجال الموصد دونها حتى يفتح لذوي العروسين، فيخالطون النساء الرقص والأنس. أما الآخرون فيهتزّون على قرع طبول الهجيني والسامري، ويتساقط البعض على حسّ الزار، فيُدار حولهم بالبخور، حتى يعودوا إلى رشدهم سالمين غانمين والألسنة تلهج بالشكر للمليك المفدى خالد بن عبدالعزيز الذي فتح لهم كنوز الأرض وأصابتهم منه مسحة نعيم، بفضل «المبرد» حتى لا تجد فقيرًا يمدّ يده.

12

فلو تعلم بخيتة كيف تغنّى بلونها الشعراء لازدهت سمارَها المائل للبياض بفعل المبيضات.

لم أعشق السمر إلا من حيازتهم
لونَ الشبابِ وحبَ القلبِ والحِدَق
ولا سلوتُ ببياضِ البيضِ عن غلط
إني من المشيبِ والأكفانِ في فرقِ

وقول الآخر:

السمر دون البيض هم أولى بعشقي وأحق
السمر في لون اللمى والبيض في لون البهق

وقول الآخر:

سوداء بيضاء الفعال كأنها
مثل العيون تخصّ بالأضواء
أنا من جننت بحبها لا تعجبوا
أصل الجنون يكون بالسوداء
فإن لوني في الدياجي غيهب
لولاه ما قمر أتى بضياء

ومن هذا المنطق أردّد قول القائل: لا يحسن اجتماع الأحباب إلا في الليل، فيكفيك هكذا فضل، والليل ستر الأحباب من الواشين واللوام مثل سواد الظلام، ولا خوفهم من الافتضاح مثل بياض الصبح، فكم للسود من مآثر ثم أتغنى بقول الشاعر:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وأنثني وبياض الصبح يغري بي
وكم ليلة بات الحبيب مؤانسي
وقد سترتنا من دجاه ذوائب

فلما بدا نور الصباح أخافني
فقلت له إن المجوس كواذب

13

المعيقلية سوق من الأسواق القديمة مثله مثل الثميري والمتنبي. كانت هذه الأسواق في زمان مضى عزيزة الجناب تعجّ بالمتسوقين يعني تمتلئ بالمتسوقين والمتبطلين والمغازلين خصوصًا المتنبي والثميري إلى أن نحر هذان السوقان على حس لثغة التطور، فلما تغيّرت معالمها وبُنيت على طراز حديث قديم أصبحت هذه الأسواق بلا طعم ولا رائحة ولا لون، كنست عنها الأرجل وخوت منها الأصوات وأصبحت المحال التي كانت تقدّر بالملايين ما تساوي قرشًا.

14

أجابني صلاح قائلًا: أنا أكتب عن الحركات الإسلامية.

حمدت الله أنه لم يقل رواية، لصرفت النظر عن كتابة روايتي، مع أن صلاحًا قادر تمامًا على كتابة رواية أجمل وأبدع من الكثير ـ ذكورًا وإناثًا ـ الذين أخذتهم موضة الرواية وانجرفوا خلف بريق كتابتها وباتوا يتسابقون على دكاكين دور النشر المسترزقة، حتى أصبح بعضهم ما بين وليلة وضحاها من عظماء كتّاب الرواية الذين لم يعلم بهم أحد، وأصابتهم لوثة الغرور والتنطع بأوصاف مثل: الروائي الأول، أو صاحب الرواية الأكثر مبيعًا في النيل والفرات والأمازون وساحل العاج والأمريكتين الشمالية والجنوبية. توهمنا أن

العالم حفي بنا ؛ وكأن العالم يقف على قدم واحد انتظارًا لرواياتنا، بينما هو إلى وقت قصير لم يكن يرانا سوى حثالة من الرعاة، بجمال وخيام وبئر نفط.. «يمكن» الحادي عشر من سبتمبر/أيلول أو غزوة منهاتن أضافت لنا صفة أخرى هي الإرهاب.

كل هذا لا يهمّ، هذه الخيبة لن تصدّني عما عقدت العزم عليه، فما دمت لا أبحث عن هذه التصنيفات فسأواصل مشروعي، أما صلاح المدني فالوقت معه ثمِين جدًا لا ينبغي تفويته، فعزمته بود وتحبب على براد شاي في أحد المقاهي الشعبية شمال الرياض.. وافق بلا تردد، ثم انطلقنا إلى هناك، ونحن نمرّ بمحاذاة كلية اليمامة قال لي:

- شفت هذه الكلية؟ شهدت يومًا ما أحد معاركهم.

قلت باستغراب:

- من هم؟

- الصحويون.

- قصدك الإرهابيين؟

رد بشيء من التحفز الذهني وعينه مملوءة بالكلام المؤجل:

- لا شوف، لا يمكن أن تعرف الإرهابيين إلا بعدما تعرف الصحويين

ذكّرني بحسني البرزان في مسرحية (غربة) عندما كان

يردد عبارته المشهورة بتلقائيته (إذا أردنا أن نعرف ماذا في إيطاليا... يجب أن نعرف ماذا في البرازيل) فكانت بادرة ممتازة لفتح ملفاته المخبّأة.

15

وصلنا إلى هناك، وكان يسابقني الخطوات ويجلس ممددًا قدميه وكأنه يتحسس الذباب بأطراف أصابعه، قلت الله يستر بس، فلو علم الذباب بوجوده لهب برشاقته المعهودة يقدم له احتفالية مجيدة بطنينه العالي وما طلعنا منه بشيء إلا إدارة مملكة الذباب، طلبنا براد شاي (منعش) كبير وقلت له بشيء من الاستعراض:

ـ هاه، هات ما عندك، الصحوة وعلاقتها بالإرهاب، حدّثني فقد تداخلت المفاهيم ولم يعد هناك من يقيم واقع الحال؟

بدا هذا السؤال عاديًا ولا ينمّ عن متعلم مثلي، كنت أتوخّى تحديد المفاهيم جيدًا، حتى أفيد منها عند كتابة الرواية، ولسان حالي يردّد (إذا أردنا أن نعرف ماذا يجري بالبلد يجب علينا معرفة ما يجري عند الصحويين). ارتشف صاحبي بيالة شاهي بصوت عالٍ ونفس واحد، وتنحنح ثم قال:

ـ شوف حتى اختصر عليك.. لا تقاطعني اسمع حتى أنتهي.. اتفقنا؟

قلت بحماس:

ـ اتفقنا ياشيخ.

أطربته كلمة يا شيخ فسحب قدميه وجلس متربعًا ثم انطلق متحدثًا يقول باستعراض:

- أولًا: تؤرخ انطلاقة الحركات الدينية الحديثة عندنا من حركة جهيمان؛ لأنها أسهمت بطريقة مباشرة في تكوين الصورة الذهنية والنمطية لمجتمعنا عن الكون والحياة، مع أشياء أخرى سآتي على إيرادها في حينها، ردّدت في سري يا ضايق الصدر بالله وسع الخاطر، وتركته يتحدث قائلًا:

- بعد جهيمان طفت على السطح جماعات التوعية الإسلامية، كانت شوكتهم ضعيفة، يجمعون.. يبكون حال الأمة بعيدًا عن الأعين، مستمعين لأشرطة علي جريشة وعبدالقادر عودة ومحمد قطب ومحمد الراوي وأناشيد مروان حديد السوري قبل سحقهم بدبابات الجيش السوري في موقعة حماة الشهيرة، ويقرؤون مجلة الدعوة المصرية والاعتصام اليمنية، بعدها المجتمع الكويتية. هذه كل حصيلتهم الثقافية، ويتباكون على مسلمي الهند وأفغانستان التي لم تكن وقتها تحركت آلة الحرب لتخليصها من براثن الاستعمار السوفييتي، وما عدا ذلك كانت الأمور تتمّ برخاء ونعيم إلى الساعة الملعونة التي بدأت أصابع المكر والخديعة تلعب في خاصرة الخليج وتدفع إيران للمطالبة بنصيبها من شطّ العرب لتنفجر شرارة الحرب الأولى ومع هذه الشرارة الملعونة بدأ ينهار السقف على رؤوس الأشهاد، والأموال تستنزف وتصبّ في حسابات قوادي الحرب ولصوص السلاح؛ لتبدأ الألسن تتناقل المخاوف التي تجثم على القلوب في أن البلد سيمرّ بنفق ضيق وخانق من أزمات

اقتصادية متوالية.. داخل هذه المعمعة كانت الحركات الصحوية في كل العالم الإسلامي تنتفخ بما تتلقاه من أموال وكأنها تجهز لخوض معركة ما مجهولة حتى طفت على السطح دعاية الجهاد الأفغانية، فكثرت اللحى والأثواب القصيرة وأُطفئت شعلة الفرح في قلوب الناس؛ لتصير حتى الأفراح مشابهة للمآتم، يتباكون على الأموات ويحضرون جنائز للأحياء، وتعدّد القادة واستشرت في الشباب غواية المشيخة، ثم ركبوا موجة الجهاد فكانت تقطع لهم التذاكر إلى باكستان مجانًا، وفي بيشاور يلتحقون بقادة معروفين يدربونهم على السلاح الأمريكي لينقلوا بعدها إلى ساحة الوغى حيث الملائكة تنتظرهم هناك بشمعدانات من نور وقوارير من عطر ودهن عود، وفي الرياض عجّت الجوامع بأرتال الشباب انتظارًا لمشايخهم المفوهين، ومندوبو دكاكين التسجيلات الإسلامية يعدون عدتهم لاقتناص الحدث وتسويقه تحت دعاية (رحم الله من أعان على نشر هذا الشريط) بقيمة ثلاثة ريالات، حتى سابقتهم إلى ذلك محلات بيع الأغاني في شارع العصارات، وأثروا من ذلك، وكانت بركة لهم من الله.

16

معلومات دقيقة ومختصرة أوردها أو بمعنى تلاها صلاح وكأنه يقرأ من ورقة، قلت:

- ياخي والسرابيت والعرابجة وينهم. قاعدين يتفرجون؟ يعني معقول البلد كله صار مطاوعة؟

فضحك من جهلي المطبق وهو يعصر عينه من دموع الضحك قائلًا:

ـ لا، هذولا لقوا طريقهم، فبانكوك حلّت أزمتهم، تلاقي من يتباكى على سوزي التايلندية لا يدخلون في حيّز الصراع، وآخرون على المجاهدين في أفغانستان. ثمة فريق آخر يقابلهم على الضفة الأخرى ينتمون لأحزاب قومية وشيوعية، هؤلاء كانت أفكارهم تناهض شباب الصحوة، وقد اقتربوا من الكتاب بشكله النوعي الجديد، وتلمسوا ثقافة مختلفة تمامًا عن الأنساق السائدة، كانت أفكارهم متحررة، فانجرف خلفهم كثير من الشباب وعدد من الفتيات، وأصبحت تُعقد لهم اجتماعات داخلية وخارجية، في بيروت وبغداد ودمشق وأحيانًا البحرين، عدا اجتماعاتهم الخاصة في الرياض المغلقة عليهم بحضور عدة (الونس)، وتربعوا على عرش السلطة الرابعة، وكتبوا الشعر الحديث مقتفين أثر السياب ودنقل ودرويش وصلاح عبد الصبور، فبرزت منهم أسماء لامعة لفتوا إليهم خصومهم.

قلت مستوقفًا إياه:

ـ لحظة يا أخي، إذن ما هي علتهم؟ أين تبخروا؟ والله هؤلاء يصلحون لي (ونس وعلوم غانمة وش بلاهم الله...)

أجابني بتحفز ووجه ينضح بالخيلاء:

ـ هؤلاء علتهم الكبرى أنهم نخبويون.

ـ وش يعني؟.. سألته.

ـ مغلقون في كل شيء، حتى في ثقافتهم وأدبهم.

قلت مقاطعًا:

ـ أدبهم أعرفه جيدًا، أريد منهجهم بشكل عام.

أجاب: هي تبدأ معهم من الانغلاق والسرية، والهالة التي يحيطون بها أنفسهم، يعني الرفيق لا ينخرط بهم مباشرة حتى يتشرب ثقافتهم ويحيا بطريقتهم ويدعو إلى نفس أفكارهم ـ الحرية والإخاء والمساواة ـ بمعنى تحتاج أولًا إلى الارتباط بأحدهم وتدور بفلكهم الخاص لفترة اختبار طويلة يمكن تملّ وتطفش بعدها، ويا بختك إذا طلع منك شيء يؤكد قدرتك وموهبتك الإبداعية، مثل قصيدة دنقلية أو فكرة أدونيسية، وهذا ما يميّزهم عن الصحويين الذين يتجهون في خطابهم لعامة الناس دون تمييز أو تكلف، يخالطونهم بنفس المحتوى الفكري المعروف وبضاعتهم هي الدين، لا يحدثون الناس إلا بما يفهمون، لذلك اكتسبوا جماهيرية ومصداقية على الرغم مما يتعرضون له من إيذاءات يعرضون غيرهم لها. وأعينهم مفتوحة جيدًا على هؤلاء الحداثيين، إلا أن انشغالهم بأفغانستان وما يردهم من أخبار الانتصارات والشهداء المشعين بالنور أخّر معركتهم معهم قليلًا، أجَّل تداخلهم معهم، حتى جاء أوانها في أواخر الثمانينيات لبروز أسماء صحوية جديدة كان لها ثقلها الداعم للوقوف ضد هؤلاء لدرجة الصدام. قدحت شرارة المعركة وأجّج الصراع وكانت قاعات المحاضرات المنعقدة على هامش مهرجان الجنادرية تعجّ بالمصفقين والمكبرين معًا، وبدأت المعارك الخطابية والكلامية، وحملات التكفير توجه لأسماء بعينها، إلا أنها لم تصل إلى حدّ التطاول بالأيدي،

فكانت رابطة الجأش ولو حدث ذلك لوقعت كارثة على الرغم من محاولة نظرية لتصفية بعض أقطاب الحداثيين وئُدت في مهدها بعدما افتضح أمرها. كانت حرب الخليج الثانية على الرغم مما تحمله من كارثة على المستوى الاقتصادي قد حلّت جزءًا من الأزمة وسدّدت أقوى ضربة لتيار الحداثيين إذ قامت مجموعة من النساء المرتبطات بهم بمظاهرة تطالب بقيادة المرأة للسيارة. كان ذلك في نوفمبر/ تشرين الثاني 1991م. لم يكن التوقيت ملائمًا، فتناولهم المتدينون بشيء من النكاية والتشفي، عدا ما طالهم من إجراءات اتخذت بشأنهم؛ مثل الفصل من وظائفهم. فكانت القاصمة لظهر الحداثيين الذين فقدوا القطب الداعم لحركتهم المتمثل في صدام حسين، انهارت بعدها أحلام القوميين والحداثيين على حد سواء في تغيير مسار التاريخ، وبقيت الكرة في ملعب الصحويين الطامحين لتغيير التاريخ برمّته واجتلاب فكرة الأمة الواحدة من عمق التاريخ وتمثيلها واقعًا ملموسًا، وهي زمرة لا تزال تنظر إلى هذا الحلم بشيء من الاصطبار خصوصًا بعد تراجع كثير من علمائهم أو مهادنتهم لظروف الواقع، مع اشتغالهم داخل مساحات أخرى من المجتمع مستوعبة همومه بشيء من التخدير والمسحات المسكنة، مع وجود بعض الأسماء الصدامية المطالبة بالتغيير التي تقف مع حركة ابن لادن وتباركها، وتعطيها الصفة الشرعية؛ لتقوم بأعمالها الإرهابية والتخريبية. هؤلاء لا يعترفون بوطن سوى وطن الله الذي هو الأرض.

الطقاقة بخيتة

في اللحظة التي تعود فيها الطقاقات إلى أماكنهن تكون الطبول قد سخنت فوق حرارة الجمر اللاهب؛ لتبدأ الأعين بالتلاقح، انتظارًا لموال (سامرية) راقصة. تتغير خارطة الصفوف, فتحتل الفتيات الصفوف الأمامية بما يحجب الرؤية الكاملة عن كبيرات السن. وحدها ندى لا تبرح مكانها ملتصقة بتنعيم, حتى تأمرها بالرقص كصنارة اصطياد, ثم تعود من مهمتها؛ لتجفف تنعيم بطريقة مكشوفة حبات العرق الطافحة على جبينها.

ناصر الموسى

ISBN 978-614-404-167-3
9 786144 041673